

كتاب شرح نهج البلاغة

الجزء العاشر

ابن أبي الحديد

هذا الكتاب

نشر إلكترونياً وأخرج فنياً برعاية وإشراف

شبكة الإمامين الحسنين (عليهما السلام) للتراث والفكر الإسلامي

بانتظار أن يوفقنا الله تعالى لتصحيح نصه وتقديمه بصورة أفضل في فرصة أخرى قريبة إن شاء الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله الواحد العدل ١٧٥ و من كلام له ع في معنى طلحة بن عبيد
الله قَدْ كُنْتُ وَ مَا أَهْدُدُ بِالْحَرْبِ وَ لَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ وَ أَنَا عَلَى مَا وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ وَ اللَّهُ مَا
إِسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ لِأَنَّهُ مَظْنُونُهُ وَ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ
أَخْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَ يَقَعَ الشَّكُّ. وَ اللَّهُ مَا صَنَعَ فِي
أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ لَعِنَ كَانَ ابْنُ عَقَّانَ ظَالِمًا كَمَا كَانَ يَزْعُمُ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُؤَاوَرَ
قَاتِلِيهِ وَ أَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَ لَعِنَ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنْهَنِينَ عَنْهُ وَ
الْمُعَذِّرِينَ فِيهِ وَ لَعِنَ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْخِصْلَتَيْنِ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَرِلَهُ وَ يَرْكُدَ جَانِبًا وَ يَدَعِ
النَّاسَ مَعَهُ فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنْ الثَّلَاثِ وَ جَاءَ بِأَمْرِ لَمْ يُعْرِفْ بَابَهُ وَ لَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ

كان هاهنا تامة و الواو واو الحال أي خلقت و وجدت و أنا بهذه الصفة كما تقول خلقتني الله و أنا شجاع. و يجوز أن تكون الواو زائدة و تكون كان ناقصة و خبرها ما أهدد كما في المثل لقد كنت و ما أخشى بالذئب. فإن قلت إذا كانت ناقصة لزم أن تكون الآن بخلاف ما مضى فيكون الآن يهدد و يرهب. قلت لا يلزم ذلك لأن كان الناقصة للماضي من حيث هو ماض و ليس يشترط في ذلك أن يكون منقطعاً بل قد يكون دائماً كقوله تعالى (وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً). ثم ذكر ع أنه على ما وعده ربه من النصر و أنه واثق بالظفر و الغلبة الآن كما كانت عادته فيما سبق. ثم شرح حال طلحة و قال إنه تجرد للطلب بدم عثمان مغالطة للناس و إيهاماً لهم أنه بريء من دمه فيلبس الأمر و يقع الشك. و قد كان طلحة أجهد نفسه في أمر عثمان و الإجلاب عليه و الحصر له و الإغراء به و منته نفسه بالخلافة بل تلبس بها و تسلم بيوت الأموال و أخذ مفاتيحها و قاتل الناس و أحرقوا به و لم يبق إلا أن يصفق بالخلافة على يده

ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان

ذكر أبو جعفر مُجَدِّد بن جرير الطبري في كتاب التاريخ قال حدثني عمر بن شبة عن علي بن مُجَدِّد عن عبد ربه عن نافع عن إسماعيل بن أبي خالد عن حكيم بن جابر قال قال علي ع لطلحة و عثمان محصور أنشدك الله إلا رددت الناس عن عثمان قال لا و الله حتى تعطي بنو أمية الحق من أنفسها. و روى الطبري أن عثمان كان له على طلحة خمسون ألفا فخرج عثمان يوما إلى المسجد فقال له طلحة قد تهيأ مالك فاقبضه فقال هو لك يا أبا مُجَدِّد معونة لك على مروءتك. قال فكان عثمان يقول و هو محصور جزاء سنمار. و روى الطبري أيضا أن طلحة باع أرضا له من عثمان بسبعمائة ألف فحملها إليه فقال طلحة إن رجلا يبيت و هذه عنده و في بيته لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله فبات و رسله تختلف بها في سكك المدينة يقسمها حتى أصبح و ما عنده منها درهم واحد. قال الطبري روى ذلك الحسن البصري و كان إذا روى ذلك يقول ثم جاء إلينا يطلب الدينار و الدرهم أو قال و الصفراء و البيضاء.

و روى الطبري أيضا قال قال ابن عباس رضي الله عنه لما حججت بالناس نيابة عن عثمان و هو محصور مررت بعائشة بالصلصل فقالت يا ابن عباس أنشدك الله فإنك قد أعطيت لسانا و عقلا أن تخذل الناس عن طلحة فقد بانت لهم بصائرهم في عثمان و أنهجت و رفعت لهم المنار و تحلبوا من البلدان لأمر قد حم و إن طلحة فيما بلغني قد اتخذ رجالا على بيوت الأموال و أخذ مفاتيح الخزائن و أظنه يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمه أبي بكر فقال يا أمه لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا فقالت إيهنا عنك يا ابن عباس إني لست أريد مكابرتك و لا مجادلتك. و روى المدائني في كتاب مقتل عثمان أن طلحة منع من دفنه ثلاثة أيام و أن عليا ع لم يبايع الناس إلا بعد قتل عثمان بخمسة أيام و أن حكيم بن حزام أحد بني أسد بن عبد العزى و جبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجدا بعلي ع على دفنه فأقعد طلحة لهم في الطريق ناسا بالحجارة فخرج به نفر يسير من أهله و هم يريدون به حائطا بالمدينة يعرف بحش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم فلما صار هناك رجم سريه و هموا بطرحه فأرسل علي ع إلى الناس يعزم عليهم ليكفوا عنه فكفوا فانطلقوا به حتى دفنوه في حش كوكب.

و روى الطبري نحو ذلك إلا أنه لم يذكر طلحة بعينه و زاد فيه أن معاوية لما ظهر على الناس أمر بذلك الحائط فهدم حتى أفضى به إلى البقيع و أمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتصل ذلك بمقابر المسلمين. و روى المدائني في هذا الكتاب قال دفن عثمان بين المغرب و العتمة و لم يشهد جنازته إلا مروان بن الحكم و ابنة عثمان و ثلاثة من مواليه فرفعت ابنته صوتها تندبه و قد جعل طلحة ناسا هناك أكمّنهم كميناً فأخذتهم الحجارة و صاحوا نعثل نعثل فقالوا الحائط الحائط فدفن في حائط هناك. و روى الواقدي قال لما قتل عثمان تكلموا في دفنه فقال طلحة يدفن بدير سلع يعني مقابر اليهود. و ذكر الطبري في تاريخه هذا إلا أنه روى عن طلحة فقال قال رجل يدفن بدير سلع فقال حكيم بن حزام و الله لا يكون هذا أبداً و أحد من ولد قصي حي حتى كاد الشر يلتحم فقال ابن عديس البلوي أيها الشيخ و ما يضرك أين دفن قال لا يدفن إلا ببقيع الغرقد حيث دفن سلفه و رهطه فخرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلاً منهم الزبير بن العوام فمنعهم الناس عن البقيع فدفنوه بحش كوكب.

و روى الطبري في التاريخ أن عثمان لما حصر كان علي ع بخير في أمواله فلما قدم أرسل إليه يدعوه فلما دخل عليه قال له إن لي عليك حقوقا حق الإسلام و حق النسب و حق ما لي عليك من العهد و الميثاق و و الله أن لو لم يكن من هذا كله شيء و كنا في جاهلية لكان عارا على بني عبد مناف أن يبتزهم أخو تيم ملكهم يعني طلحة فقال له ع سيأتيك الخبر ثم قام فدخل المسجد فرأى أسامة بن زيد جالسا فدعاه فاعتمد على يده و خرج يمشي إلى طلحة فدخل داره و هي دحاس من الناس فقام ع فقال يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه فقال يا أبا أحسن أ بعد ما مس الحزام الطبيين فانصرف علي ع و لم يجر إليه شيئا حتى أتى بيت المال فنادى افتحوا هذا الباب فلم يقدروا على فتحه فقال اكسروه فكسر فقال أخرجوا هذا المال فجعلوا يخرجونه و هو يعطي الناس و بلغ الذين في دار طلحة ما صنع علي ع فجعلوا يتسللون إليه حتى بقي طلحة وحده و بلغ الخبر عثمان فسر بذلك ثم أقبل طلحة يمشي عامدا إلى دار عثمان فاستأذن عليه فلما دخل قال يا أمير المؤمنين أستغفر الله و أتوب إليه لقد رمت أمرا حال الله بيني و بينه فقال عثمان إنك و الله ما جئت تائبا و لكن جئت مغلوبا و الله حسيبك يا طلحة. ثم قسم ع حال طلحة فقال لا يخلو إما أن يكون معتقدا حل دم عثمان أو حرمة أو يكون شاكا في الأمرين فإن كان يعتقد حله لم يجز له أن ينقض البيعة لنصرة إنسان حلال الدم و إن كان يعتقد حرمة فقد كان يجب عليه أن ينهه عنه الناس أي يكفهم.

و أن يعذر فيه بالتشديد أي يقصر و لم يفعل ذلك و إن كان شاكا فقد كان يجب عليه أن يعتزل الأمر و يركد جانبا و لم يعتزل و إنما صلي بنار الفتنة و أصلاها غيره.فإن قلت يمكن أن يكون طلحة اعتقد إباحة دم عثمان أولا ثم تبدل ذلك الاعتقاد بعد قتله فاعتقد أن قتله حرام و أنه يجب أن يقتص من قاتليه.قلت لو اعترف بذلك لم يقسم علي ع هذا التقسيم و إنما قسمه لبقائه على اعتقاد واحد و هذا التقسيم مع فرض بقاءه على اعتقاد واحد صحيح لا مطعن فيه و كذا كان حال طلحة فإنه لم ينقل عنه أنه قال ندمت على ما فعلت بعثمان فإن قلت كيف قال أمير المؤمنين ع فما فعل واحدة من الثلاث و قد فعل واحدة منها لأنه وازر قاتليه حيث كان محصورا.قلت مراده ع أنه إن كان عثمان ظالما وجب أن يؤازر قاتليه بعد قتله يحامي عنهم و يمنعهم ممن يروم دماءهم و معلوم أنه لم يفعل ذلك و إنما وازرهم و عثمان حي و ذلك غير داخل في التقسيم

أَيُّهَا النَّاسُ غَيِّرِ الْمَعْفُولَ عَنْهُمْ وَالتَّارِكُونَ وَالْمَأْخُودُ مِنْهُمْ مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ وَ إِلَى
 غَيْرِهِ رَاغِبِينَ كَأَنَّكُمْ نَعَمَ أَرَاخَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعَى وَبِيٍّ وَ مَشْرَبٍ دَوِيٍّ وَ إِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمَدَى
 لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا إِذَا أَحْسِنَ إِلَيْهَا تَحَسَّبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا وَ شَبَعَهَا أَمْرَهَا وَ اللَّهُ لَوْ شِئْتُ أَنْ
 أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَ مَوْلِيهِ وَ جَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ وَ لَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا بِي بِرَسُولِ
 اللَّهِ صَ أَلَا وَ إِلَيَّ مُقْضِيهِ إِلَى الْخَاصَّةِ بِمَنْ يُؤْمِنُ ذَلِكَ مِنْهُ وَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ وَ اصْطَفَاهُ عَلَى
 الْخَلْقِ مَا أَنْطَقَ إِلَّا صَادِقًا وَ لَقَدْ عَاهَدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلُّهُ وَ بِمَهْلِكٍ مَنْ يَهْلِكُ وَ مَنْجَى مَنْ يَنْجُو وَ
 مَالِ هَذَا الْأَمْرِ وَ مَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَعُهُ فِي أُذُنِي وَ أَفْضَى بِهِ إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ إِلَيَّ وَ
 اللَّهُ مَا أَخُتُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَ أَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا وَ لَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَ أَتْنَاهِيَ قَبْلَكُمْ عَنْهَا
 خَاطِبُ الْمَكْلَفِينَ كَافَّةً وَ قَالَ إِنَّهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَرَادُ بِهِمْ وَ مِنْهُمْ وَ لَيْسُوا بِمَغْفُولٍ عَنْهُمْ بَلْ أَعْمَاهُمْ
 مَحْفُوظَةٌ مَكْتُوبَةٌ.

ثم قال و التاركون أي يتركون الواجبات. ثم قابل ذلك بقوله و المأخوذ منهم لأن الأخذ في مقابلة الترك و معنى الأخذ منهم انتقاص أعمارهم و انتقاض قواهم و استلاب أحبابهم و أموالهم. ثم شبههم بالنعم التي تتبع نعماً أخرى. سائمة أي راعية و إنما قال ذلك لأنها إذا اتبعت أمثالها كان أبلغ في ضرب المثل بجهلها من الإبل التي يسميها راعيها و المرعى الوبي ذو الوباء و المرض و المشرب الدوي ذو الداء و أصل الوبي اللين الوبيء المهموز و لكنه لينه يقال أرض وبيئة على فعيلة و وبئة على فعلة و يجوز أوبأت فهي موبئة. و الأصل في الدوي دو بالتخفيف و لكنه شدده للازدواج. ثم ذكر أن هذه النعم الجاهلة التي أوقعت أنفسها في هذا المرتع و المشرب المذمومين كالغنم و غيرها من النعم المعلوفة. للمدى جمع مدية و هي السكين لا تعرف ما ذا يراد بها و تظن أن ذلك العلف إحسان إليها على الحقيقة. و معنى قوله تحسب يومها دهرها أي تظن أن ذلك العلف و الإطعام كما هو حاصل لها ذلك اليوم يكون حاصلًا لها أبداً. و شبعها أمرها مثل ذلك أي تظن أنه ليس أمرها و شأها إلا أن يطعمها أربابها لتشبع و تحسن و تسمن ليس يريدون بها غير ذلك. ثم خرج ع من هذا الفن إلى فن آخر فأقسم أنه لو شاء أن يخبر كل واحد منهم من أين خرج و كيفية خروجه من منزله و أين يلج و كيفية ولوجه و جميع شأنه من مطعمه و مشربه و ما عزم عليه من أفعاله و ما أكله و ما ادخره في بيته و غير ذلك من شئونه و أحواله لفعل.

و هذا كقول المسيح ع (وَأُتْبِئْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ). قال إلا أني أخاف أن تكفروا في برسول الله ص أي أخاف عليكم الغلو في أمري و أن تفضلوني على رسول الله ص بل أخاف عليكم أن تدعوا في الإلهية كما ادعت النصارى ذلك في المسيح لما أخبرهم بالأمور الغائبة. ثم قال ألا و إني مفضيه إلى الخاصة أي مفض به و مودع إياه خواص أصحابي و ثقائي الذين آمن منهم الغلو و أعلم أنهم لا يكفرون في بالرسول ص لعلمهم أن ذلك من إعلام نبوته إذ يكون تابع من أتباعه و صاحب من أصحابه بلغ إلى هذه المنزلة الجليلة. ثم أقسم قسما ثانيا أنه ما ينطق إلا صادقا و أن رسول الله ص عهد بذلك كله إليه و أخبره بمهلك من يهلك من الصحابة و غيرهم من الناس و بنجاة من ينجو و بمآل هذا الأمر يعني ما يفضي إليه أمر الإسلام و أمر الدولة و الخلافة و أنه ما ترك شيئا يمر على رأسه ع إلا و أخبره به و أسره إليه

فصل في ذكر بعض أقوال الغلاة في علي

و اعلم أنه غير مستحيل أن تكون بعض الأنفس مختصة بخاصية تدرك بها المغيبات و قد تقدم من الكلام في ذلك ما فيه كفاية و لكن لا يمكن أن تكون نفس تدرك كل المغيبات لأن القوة المتناهية لا تحيط بأمور غير متناهية و كل قوة في نفس حادثة فهي متناهية فوجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين ع لا على أن يريد به عموم العالمية

بل بعلم أمورا محدودة من المغيبات مما اقتضت حكمة الباري سبحانه أن يؤهله لعلمه وكذلك القول في رسول الله ص إنه إنما كان يعلم أمورا معدودة لا أمورا غير متناهية و مع أنه ع قد كنتم ما علمه حذرا من أن يكفروا فيه برسول الله ص فقد كفر كثير منهم و ادعوا فيه النبوة و ادعوا فيه أنه شريك الرسول في الرسالة و ادعوا فيه أنه هو كان الرسول و لكن الملك غلط فيه و ادعوا أنه هو الذي بعث مُحمَّدًا ص إلى الناس و ادعوا فيه الحلول و ادعوا فيه الاتحاد و لم يتركوا نوعا من أنواع الضلالة فيه إلا و قالوه و اعتقدوه و قال شاعرهم فيه من أبيات:

و من أهلـك عـادا و	ثمـودا بدواهيـه
و من كلـم موسى فوق	طـور إذ يناديـه
و من قال على المنبر	يوما و هو راقـيه
سلولي أيها الناس	فحـاروا في معانيـه

و قال بعض شعرائهم:

إنما خالق الخلائق من زعزع	أركان حصن خير جذبا
قد رضينا به إماما و مولى	و سجدنا له إلهـا و ربا

جملة من إخبار علي بالأمور الغيبية

و قد ذكرنا فيما تقدم من إخباره ع عن الغيوب طرفا صالحا و من عجيب ما وقفت عليه من ذلك قوله في الخطبة التي يذكر فيها الملاحم و هو يشير إلى القرامطة

ينتحلون لنا الحب و الهوى و يضمرون لنا البغض و القلى و آية ذلك قتلهم وراثنا و هجرهم أحداثنا. و صح ما أخبر به لأن القرامطة قتلت من آل أبي طالب ع خلقا كثيرا و أسماءهم مذكورة في كتاب مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني. و مر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي في جيشه بالغري و بالحائر فلم يعرج على واحد منهما و لا دخل و لا وقف. و في هذه الخطبة قال و هو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة كأني بالحجر الأسود منصوبا هاهنا ويحهم إن فضيلته ليست في نفسه بل في موضعه و أسسه بمكث هاهنا برهة ثم هاهنا برهة و أشار إلى البحرين ثم يعود إلى مأواه و أم مثواه. و وقع الأمر في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به ع. و قد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه و ما لا يجوز أن ينسب إليه و وجدت في كثير منها اختلالا ظاهرا و هذه المواضع التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة بل من كلام له وجدته متفرقا في كتب مختلفة و من ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه و هو يخطب على المنبر و يقول سلوني قبل أن تفقدوني فو الله لا تسألوني عن فئة تضل مائة أو تهدي مائة إلا نبأتكم بناعقها و سائقها و لو شئت لأخبرت كل واحد منكم بمخرجه و مدخله و جمع شأنه فقال فكم في رأسي طاقة شعر فقال له أما و الله إني لأعلم ذلك و لكن أين برهانه لو أخبرتك به و لقد أخبرتك بقيامك و مقالك و قيل لي إن على كل

شعرة من شعر رأسك ملكا يلعنك و شيطاننا يستفزك و آية ذلك أن في بيتك سخلا يقتل ابن رسول الله ص و يحض على قتله. فكان الأمر بموجب ما أخبر به ع كان ابنه حصين بالصاد المهمة يومئذ طفلا صغيرا يرضع اللبن ثم عاش إلى أن صار على شرطة عبيد الله بن زياد و أخرجه عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين ع و يتوعده على لسانه إن أرجأ ذلك فقتل ع صبيحة اليوم الذي ورد فيه الحصين بالرسالة في ليلته. و من ذلك قوله ع للبراء بن عازب يوما يا براء أ يقتل الحسين و أنت حي فلا تنصره فقال البراء لا كان ذلك يا أمير المؤمنين. فلما قتل الحسين ع كان البراء يذكر ذلك و يقول أعظم بها حسرة إذ لم أشهده و أقتل دونه. و سنذكر من هذا النمط فيما بعد إذا مررنا بما يقتضي ذكره ما يحضرنا إن شاء الله

١٧٧ و من خطبة له ع

إِنْتَفَعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ وَ اسْتَغْطُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ وَ اقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيلَةِ وَ أَخَذَ إِتِّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ وَ بَيَّنَّ لَكُمْ مُحَابَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَ مَكَارِهِهُ مِنْهَا لِيَتَّبِعُوا هَذِهِ وَ يَحْتَنِبُوا هَذِهِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص كَانَ يَقُولُ إِنَّ الْجَنَّةَ خُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَ إِنَّ النَّارَ خُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ شَيْءٍ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ وَ مَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ شَيْءٍ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةِ فَرَحِهِ اللَّهُ إِمْرًا نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ وَ قَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مُنْزَعًا وَ إِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوَى وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُمْسِي وَ لَا يُصْبِحُ لَا يُصْبِحُ وَ لَا يُمْسِي إِلَّا وَ نَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ فَلَا يَزَالُ زَارِيًا عَلَيْهَا وَ مُسْتَزِيدًا لَهَا فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ وَ الْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ فَوَضُّوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ وَ طَوَّوْهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ أَعَذَرَ إِلَيْكُمْ أَوْضَحَ عَذْرِهِ فِي عِقَابِكُمْ إِذَا خَالَفْتُمْ أَوَامِرَهُ وَ الْجَلِيلَةَ الْيَقِينِ وَ إِنَّمَا أَعَذَرَ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مَكْنَهُمُ مِنَ الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ بِتَوْحِيدِهِ وَ عَدْلِهِ وَ أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي

عقولهم فإذا تركوه ساغ في الحكمة تعذيبهم و عقوبتهم فكأنه قد أبان لهم عذره أن لو قالوا لم تعاقبنا. و محابه من الأعمال هي الطاعات التي يحبها و حبه لها إرادة وقوعها من المكلفين و مكارهه من الأعمال القبائح التي يكرهها منهم و هذا الكلام حجة لأصحابنا على المجبرة و الخبر الذي رواه ع مروي في كتب المحدثين و هو قول رسول الله ص حجبت الجنة بالمكاره و حفت النار بالشهوات و من المحدثين من يرويه حفت فيهما و ليس منهم من يرويه حجبت في النار و ذلك لأن لفظ الحجاب إنما يستعمل فيما يرام دخوله و ولوجه لمكان النفع فيه و يقال حجب زيد عن مأدبة الأمير و لا يقال حجب زيد عن الحبس. ثم ذكر ع أنه لا طاعة إلا في أمر تكرهه النفس و لا معصية إلا بمواقعة أمر تحبه النفس و هذا حق لأن الإنسان ما لم يكن متردد الدواعي لا يصح التكليف و إنما تتردد الدواعي إذا أمر بما فيه مشقة أو نهي عما فيه لذة و منفعة. فإن قلت أليس قد أمر الإنسان بالنكاح و هو لذة قلت ما فيه من ضرر الإنفاق و معالجة أخلاق النساء يربي على اللذة الحاصلة فيه مرارا. ثم قال ع رحم الله امرأ نزع عن شهوته أي أقلع. و قمع هوى نفسه أي قهره. ثم قال فإن هذه النفس أبعد شيء منزعا أي مذهبا قال أبو ذؤيب:

و النفس راغبة إذا رغبتها و إذا تـرد إلى قليل تقنع

و من الكلام

المروى عنه ع و يروى أيضا عن غيره أيها الناس إن هذه النفوس طلعة فيلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. و قال الشاعر:

و ما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تافت و إلا تسلت

ثم قال ع نفس المؤمن ظنون عنده الظنون البئر التي لا يدري أ فيها ماء أم لا فالمؤمن لا يصبح و لا يمسي إلا و هو على حذر من نفسه معتقدا فيها التقصير و التضجيع في الطاعة غير قاطع على صلاحها و سلامة عاقبتها. و زاريا عليها عائبا زريت عليه عبت. ثم أمرهم بالتأسي بمن كان قبلهم و هم الذين قوضوا من الدنيا خيامهم أي نقضوها و طووا أيام العمر كما يطوي المسافر منازل طريقه : وَ اعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ وَ الْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ وَ الْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ وَ مَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِي هُدًى أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاةٍ وَ لَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ

غَنَى فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْثَرِ الدَّاءِ وَهُوَ الْكُفْرُ
وَالتَّقَاقُ وَالْعَيْ وَالضَّلَالُ فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ وَ لَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ
الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَفَائِلٌ مُصَدَّقٌ وَ أَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ شَفَّعَ فِيهِ وَ مَنْ حَلَّ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَّقَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ
كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلَى فِي حَرْثِهِ وَ عَاقِبَةِ عَمَلِهِ غَيْرَ حَرْثَةِ الْقُرْآنِ فَكُونُوا مِنْ حَرْثِهِ وَ أَتْبَاعِهِ وَ اسْتَدِلُّوهُ
عَلَى رَبِّكُمْ وَ اسْتَنْصَحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَ اهْتُمُّوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ وَ اسْتَعِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ غَشَى يَغْشَى
بِالضَّمِّ غَشَا خِلَافَ نَصَحِهِ وَ اللَّأْوَاءَ الشَّدَّةَ. وَ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ شِفَاعَةً بِالْفَتْحِ وَ هُوَ مِمَّا يَغْلُطُ فِيهِ
الْعَامَّةُ فَيَكْسِرُونَهُ وَ كَذَلِكَ تَبَعَتْ كَذَا بِكَذَا أَتْبَعَتْهُ مَفْتُوحٌ أَيْضًا. وَ حَلَّ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ قَالَ عَنْهُ مَا
يُضْرُهُ كَأَنَّهُ جَعَلَ الْقُرْآنَ يَحْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ بِقَوْمٍ أَيْ يَقُولُ عَنْهُمْ شَرَا وَ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ لِقَوْمٍ
أَي يَنْثِي عَلَيْهِمْ خَيْرًا. وَ الْحَارِثُ الْمَكْتَسَبُ وَ الْحَرْثُ الْكَسْبُ وَ حَرْثَةُ الْقُرْآنِ الْمُتَاجِرُونَ بِهِ اللَّهُ. وَ
اسْتَنْصَحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَي إِذَا أَشَارَ عَلَيْكُمْ بِأَمْرٍ وَ أَشَارَتْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ بِأَمْرٍ يَخَالِفُهُ.

فاقبلوا مشورة القرآن دون مشورة أنفسكم وكذلك معنى قوله و اتهموا عليه آراءكم و استغشوا فيه أهواءكم

فصل في القرآن و ذكر الآثار التي وردت بفضله

و اعلم أن هذا الفصل من أحسن ما ورد في تعظيم القرآن و إجلاله و قد قال الناس في هذا الباب فأكثرُوا. و من الكلام المروي عن أمير المؤمنين ع في ذكر القرآن أيضا ما رواه ابن قتيبة في كتاب عيون الأخبار عنه ع أيضا و هو مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب و طعمها طيب و مثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب و لا ريح لها و مثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب و طعمها مر و مثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنظلة طعمها مر و ريحها منتنة و قال الحسن عليه السلام قراء القرآن ثلاثة رجل اتخذه بضاعة فنقله من مصر إلى مصر يطلب به ما عند الناس و رجل حفظ حروفه و ضيع حدوده و استدر به الولاة و استطال به على أهل بلاده و قد كثر الله هذا الضرب من حملة القرآن لاكثرهم الله و رجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن فوضعه على داء قلبه فسهر ليله و انهملت عيناه و تسربل بالخشوع و ارتدى بالحزن فبدأ و أمثاله يسقى الناس الغيث و ينزل النصر و يدفع البلاء و الله لهذا الضرب من حملة القرآن أعز و أقل من الكبريت الأحمر

و في الحديث المرفوع إن من تعظيم جلال الله إكرام ذي الشبهة في الإسلام و إكرام الإمام العادل و إكرام حملة القرآن و في الخبر المرفوع أيضا لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو فإني أخاف أن يناله العدو. وكانت الصحابة تكره بيع المصاحف و تراه عظيما و كانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على تعليم القرآن أجرا. وكان ابن عباس يقول إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمنات أتأثق فيهن

و قال ابن مسعود لكل شيء ديباجة و ديباجة القرآن آل حم
قيل لابن عباس أ يجوز أن يحلى المصحف بالذهب و الفضة فقال حليته في جوفه و
قال النبي ص أصفر البيوت جوف صفر من كتاب الله و قال الشعبي إياكم و تفسير القرآن
فإن الذي يفسره إنما يحدث عن الله. الحسن عليه السلام رحم الله امرأ عرض نفسه و عمله على كتاب الله
فإن وافق حمد الله و سألته الزيادة و إن خالف أعتب و راجع من قريب. حفظ عمر بن الخطاب
سورة البقرة فبحر و أطعم.

وفد غالب بن صعصعة على علي ع و معه ابنه الفرزدق فقال له من أنت فقال غالب بن
صعصعة المجاشعي قال ذو الإبل الكثيرة قال نعم قال ما فعلت إبلك قال أذهبتها النوائب و
ذعدعتها الحقوق قال ذاك خير سبلها

ثم قال يا أبا الأخطل من هذا الغلام معك قال ابني و هو شاعر قال علمه القرآن فهو خير له من الشعر فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه و آلى ألا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فما حله حتى حفظه و ذلك قوله:

و ما صب رجلي في حديد مجاشع مع القد إلا حاجة لي أريدها
قلت تحت قوله ع يا أبا الأخطل قبل أن يعلم أن ذلك الغلام ولده و أنه شاعر سر غامض و يكاد يكون إخبارا عن غيب فليلمح. الفضيل بن عياض بلغني أن صاحب القرآن إذا وقف على معصية خرج القرآن من جوفه فاعتزل ناحية و قال أ لهذا حملتني. قلت و هذا القول على سبيل المثل و التخويف من واقعة المعاصي لمن يحفظ القرآن.

أنس قال قال لي رسول الله ص يا ابن أم سليم لا تغفل عن قراءة القرآن صباحا و مساء فإن القرآن يحيي القلب الميت و ينهى عن الفحشاء و المنكر. كان سفيان الثوري إذا دخل شهر رمضان ترك جميع العبادة و أقبل على قراءة القرآن من المصحف.

كعب الأخبار قال الله تعالى لموسى ع مثل كتاب مُجَدِّ في الكتب مثل سقاء فيه لبن كلما مخضته استخرجت منه زبدا. أسلم الخواص كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة فقلت لنفسي يا أسلم اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله ص فجاءت حلاوة قليلة فقلت اقرأه كأنك تسمعه من جبرئيل ع فازدادت الحلاوة فقلت اقرأه كأنك تسمعه من الله عز و جل حين تكلم به فجاءت الحلاوة كلها.

بعض أرباب القلوب إن الناس يجمزون في قراءة القرآن ما خلا المحبين فإن لهم خان إشارات إذا مروا به نزلوا يريد آيات من القرآن يقفون عندها فيفكرون فيها.

في الحديث المرفوع ما من شفيع من ملك و لا نبي و لا غيرهما أفضل من القرآن و في الحديث المرفوع أيضا من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر عظمة الله و جاء في بعض الآثار إن الله تعالى خلق بعض القرآن قبل أن يخلق آدم و قرأه على الملائكة فقالوا طوبى لأمة ينزل عليها هذا و طوبى لأجواف تحمل هذا و طوبى لألسنة تنطق بهذا و قال النبي ص إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل يا رسول الله و ما جلاؤها قال قراءة القرآن و ذكر الموت و عنه ع ما أذن الله لشيء أذنه لنبي حسن الترنم بالقرآن و عنه ع إن ربكم لأشد أذنا إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته و عنه ع أنت تقرأ القرآن ما نكأ فإذا لم ينهك فلست تقرأه

ابن مسعود رضي الله عنه ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بلبه إذ الناس نائمون و بنهاره إذ الناس مفطرون و بحزنه إذ الناس يفرحون و بكائه إذ الناس يضحكون و بخشوعه إذ الناس يختالون و ينبغي لحامل القرآن أن يكون سكيئا زميتا لنا و لا ينبغي أن يكون جافيا و لا مماريا و لا صياحا و لا حديدا و لا صخابا.

بعض السلف إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه حتى يفرغ منها و إن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها قيل كيف ذاك قال إذا أحل حلالها و حرم حرامها صلت عليه و إلا لعنته. ابن مسعود أنزل الله عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا إن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا و قد أسقط العمل به

ابن عباس لأن أقرأ البقرة و آل عمران أرتلها و أتدبرها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هزيمة. ثابت البناني كابدت في القرآن عشرين سنة و تنعمت به عشرين سنة : الْعَمَلُ الْعَمَلُ ثُمَّ الْنَهَايَةُ الْنَهَايَةُ وَالْإِسْتِقَامَةُ الْإِسْتِقَامَةُ ثُمَّ الصَّبْرُ الصَّبْرُ وَالْوَرَعُ الْوَرَعُ إِنَّ لَكُمْ نَهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نَهَائِكُمْ وَ إِنَّ لَكُمْ عِلْمًا فَاهْتَدُوا بِعِلْمِكُمْ وَ إِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ وَ أُخْرِجُوا إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ وَ بَيَّنَّ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ وَ حَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ أَلَا وَ إِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ وَ الْقَضَاءُ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ وَ إِلَيَّ مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللَّهِ وَ حُجَّتِهِ قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

الَّتِي كُنْتُمْ تُوعِدُونَ) وَ قَدْ قُلْتُمْ (رَبُّنَا اللَّهُ) فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ وَ عَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ وَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ لَا تَمُرُّوا مِنْهَا وَ لَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا وَ لَا تُخَالِفُوا عَنْهَا فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُورِ مُنْقَطِعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ النصب على الإغراء و حقيقته فعل مقدر أي الزموا العمل و كرر الاسم لينوب أحد اللفظين عن الفعل المقدر و الأشبه أن يكون اللفظ الأول هو القائم مقام الفعل لأنه في رتبته أمرهم بلزوم العمل ثم أمرهم بمراعاة العاقبة و الخاتمة و عبر عنها بالنهاية و هي آخر أحوال المكلف التي يفارق الدنيا عليها إما مؤمناً أو كافراً أو فاسقاً و الفعل المقدر هاهنا راعوا و أحسنوا و أصلحوا و نحو ذلك. ثم أمرهم بالاستقامة و أن يلزموها و هي أداء الفرائض. ثم أمرهم بالصبر عليها و ملازمته و بملازمة الورع. ثم شرع بعد هذا الكلام المجمل في تفصيله فقال إن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم و هذا لفظ رسول الله ص أيها الناس إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم و إن لكم غاية فانتهاوا إلى غايتكم و المراد بالنهاية و الغاية أن يموت الإنسان على توبة من فعل القبيح و الإخلال بالواجب. ثم أمرهم بالاهتداء بالعلم المنصوب لهم و إنما يعني نفسه ع. ثم ذكر أن للإسلام غاية و أمرهم بالانتهاء إليها و هي أداء الواجبات و اجتناب المقبحات. ثم أوضح ذلك بقوله و اخرجوا إلى الله مما افترض عليكم من حقه و بين لكم

من وظائفه فكشف بهذا الكلام معنى الغاية التي أجملها أولاً ثم ذكر أنه شاهد لهم و محاج يوم القيامة عنهم و هذا إشارة إلى قوله تعالى (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ). و حجيج فعيل بمعنى فاعل و إنما سمي نفسه حجيجا عنهم و إن لم يكن ذلك الموقف موقف مخصوصة لأنه إذا شهد لهم فكأنه أثبت لهم الحجة فصار محاجا عنهم. قوله ع ألا و إن القدر السابق قد وقع يشير به إلى خلافته. و هذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويج بعد قتل عثمان و في هذا إشارة إلى أن رسول الله ص قد أخبره أن الأمر سيفضى إليه منتهى عمره و عند انقضاء أجله. ثم أخبرهم أنه سيتكلم بوعده الله تعالى و محجته على عباده في قوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...) الآية و معنى الآية أن الله تعالى وعد الذين أقروا بالربوبية و لم يقتصرُوا على الإقرار بل عقبوا ذلك بالاستقامة أن ينزل عليهم الملائكة عند موتهم بالبشرى و لفظة (ثُمَّ) للتراخي و الاستقامة مفضلة على الإقرار باللسان لأن الشأن كله في الاستقامة و نحوها قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) أي ثم ثبتوا على الإقرار و مقتضياته و الاستقامة هاهنا هي الاستقامة الفعلية شافعة للاستقامة القولية و قد اختلف فيه قول أمير المؤمنين ع و أبي بكر فقال أمير المؤمنين ع أدوا الفرائض و قال أبو بكر استمروا على التوحيد.

و روي أن أبا بكر تلاها و قال ما تقولون فيها فقالوا لم يذنبوا فقال حملتم الأمر على أشده فقالوا قل قال لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان و رأي أبي بكر في هذا الموضع إن ثبت عنه يؤكد مذهب الإرجاء و قول أمير المؤمنين ع يؤكد مذهب أصحابنا. و روى سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصم به فقال قل لا إله إلا الله ثم استقم فقلت ما أخوف ما تخافه علي فقال هذا و أخذ بلسان نفسه ص و تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ عند الموت أو في القبر أو عند النشور. و أَلَّا تَخَافُوا أَنْ بِمَعْنَى أَيَّ أَوْ تكون خفيفة من الثقيلة و أصله أنه لا تخافوا و الهاء ضمير الشأن. و قد فسر أمير المؤمنين الاستقامة المشتركة في الآية فقال قد أقررتم بأن الله ربكم فاستقيموا على كتابه و على منهج أمره و على الطريقة الصالحة من عبادته. لا تمرقوا منها مرق السهم إذا خرج من الرمية مروقاً. و لا تبتدعوا لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب و السنة. و لا تخالفوا عنها تقول خالفت عن الطريق أي عدلت عنها. قال فإن أهل المروق منقطع بهم بفتح الطاء انقطع بزيد بضم الهمزة فهو منقطع به إذا لم يجد بلاغا و وصولا إلى المقصد

ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَ تَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَ تَصْرِيفَهَا وَ اجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا وَ لِيُخْزِنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ فَإِنَّ هَذَا
اللِّسَانَ جُمُوحٌ بِصَاحِبِهِ وَ اللَّهُ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْتَرِنَ لِسَانَهُ وَ إِنَّ لِسَانَ
الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ وَ إِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ
تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ وَ إِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ وَ إِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا
يُدْرِي مَا ذَا لَهُ وَ مَا ذَا عَلَيْهِ وَ لَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَ لَا
يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ هُوَ نَقِيٌّ الرَّاحَةِ مِنْ
دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَ أَمْوَالِهِمْ سَلِيمٌ اللِّسَانِ مِنْ أَغْرَاضِهِمْ فَلْيَفْعَلْ تَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ تَغْيِيرَهَا وَ أَصْلَ الْمَزْعِ
الْمَكْسَرِ أَسَدَ مَهْزَعٍ يَكْسِرُ الْأَعْنَاقَ وَ يَرْضُ الْعِظَامَ وَ لِمَا كَانَ الْمُتَصَرِّفُ بِخَلْقِهِ النَّاظِلَ لَهُ مِنْ حَالٍ قَدْ
أَعْدَمَ سَمْتَهُ الْأَوَّلَى كَمَا يَعْدَمُ الْكَاسِرُ صُورَةَ الْمَكْسُورِ اشْتَرَكَا فِي مَسْمَى شَامِلٍ لهُمَا فَاسْتَعْمَلَ التَّهْزِيعَ
فِي الْخَلْقِ لِلتَّغْيِيرِ وَ التَّبْدِيلِ مَجَازًا. قَوْلُهُ وَ اجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا نَهَى عَنِ النِّفَاقِ وَ اسْتَعْمَالَ
الْوَجْهِينِ. قَالَ وَ لِيُخْزِنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ أَيَّ لِيُحْبِسَهُ فَإِنَّ اللِّسَانَ يَجْمَعُ بِصَاحِبِهِ فِيلْقِيهِ فِي الْهَلَكَةِ.

فالقبح البطن و الذبذب الفرج و اللقلق اللسان. و قال بعض الحكماء من علم أن لسانه جارحة من جوارحه أقل من اعتمالها و استقبح تحريكها كما يستقبح تحريك رأسه أو منكبه دائما : وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَ عَاماً أَوَّلَ وَ يُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ وَ أَنَّ مَا أَحَدَثَ النَّاسُ لَا يَحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَ لَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَ الْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَ ضَرَسْتُمُوهَا وَ وَعِظْتُمُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَ ضَرَبْتِ الْأَمْثَالَ لَكُمْ وَ دُعِيتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ فَلَا يَصُمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ وَ لَا يَعْصِي عَنْهُ إِلَّا أَعْمَى وَ مَنْ لَمْ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَ التَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ وَ أَتَاهُ التَّفْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ وَ يُنْكِرَ مَا عَرَفَ فَإِنَّ النَّاسَ وَ إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ مُتَّبِعِ شِرْعَةٍ وَ مُبْتَدِعِ بَدْعَةٍ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّةٌ وَ لَا ضِيَاءٌ حُجَّةٌ يَقُولُ إِنْ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ لَا يَجُوزُ بَعْدَ ثُبُوتِ الْأَدْلَةِ عَلَيْهَا مِنْ طَرِيقِ النِّصِّ أَنْ تَنْقُضَ بِاجْتِهَادٍ وَ قِيَاسٍ بَلْ كُلُّ مَا وَرَدَ بِهِ النِّصُّ تَتَّبِعُ مَوْرِدَ النِّصِّ فِيهِ فَمَا اسْتَحَلَّتْهُ عَاماً أَوَّلَ فَهُوَ فِي هَذَا الْعَامِ حَلَالٌ لَكَ وَ كَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي التَّحْرِيمِ وَ هَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ أَصْحَابِنَا أَنَّ النِّصَّ مُقَدِّمٌ عَلَى الْقِيَاسِ وَ قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِنَا فِي أَصُولِ الْفَقْهِ. وَ أَوَّلُ هَاهُنَا لَا يَنْصَرِفُ لِأَنَّهُ صِفَةٌ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلٍ.

و قال إن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئا مما حرم عليكم أي ما أحدثوه من القياس و الاجتهاد و ليس هذا بقادح في القياس و لكنه مانع من تقديمه على النص و هكذا يقول أصحابنا. قوله و ضرستموها بالتشديد أي أحكمتموها تجربة و ممارسة يقال قد ضرسته الحرب و رجل مضرس. قوله فلا يصم عن ذلك إلا أصم أي لا يصم عنه إلا من هو حقيق أن يقال عنه إنه أصم كما تقول ما يجهل هذا الأمر إلا جاهل أي بالغ في الجهل. ثم قال من لم ينفعه الله بالبلاء أي بالامتحان و التجربة لم تنفعه المواعظ و جاءه النقص من بين يديه حتى يتخيل فيما أنكره أنه قد عرفه و ينكر ما قد كان عارفا به و سمي اعتقاد العرفان و تخيله عرفانا على المجاز. ثم قسم الناس إلى رجلين إما متبع طريقة و منهاجا أو مبتدع ما لا يعرف و ليس بيده حجة فالأول المحق و الثاني المبتل. و الشرعة المنهاج و البرهان الحجة : فَإِنَّ وَ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَ سَبَبُهُ الْأَمِينُ وَ فِيهِ رَيْعُ الْقَلْبِ وَ بِنَايِعُ الْعِلْمِ وَ مَا لِلْقَلْبِ جَلَاءٌ غَيْرُهُ مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ وَ بَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ الْمُتَنَاسُونَ فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ وَ إِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص كَانَ يَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ اِعْمَلِ الْخَيْرَ وَ دَعْ الشَّرَّ فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ

إنما جعله جبل الله لأن الجبل ينجو من تعلق به من هوة و القرآن ينجو من الضلال من يتعلق به. و جعله متينا أي قويا لأنه لا انقطاع له أبدا و هذه غاية المتانة و القوة. و متن الشيء بالضم أي صلب و قوي و سببه الأمين مثل حبله المتين و إنما خالف بين اللفظين على قاعدة الخطابة. و فيه ربيع القلب لأن القلب يحيا به كما تحيا الأنعام برعي الربيع. و ينابيع العلم لأن العلم منه يتفرع كما يخرج الماء من ينبوع و يتفرع إلى الجداول و الجلاء بالكسر مصدر جلوت السيف يقول لا جلاء لصدأ القلوب من الشبهات و الغفلات إلا القرآن. ثم قال إن المتذكرين قد ذهبوا و ماتوا و بقي الناسون الذين لا علوم لهم أو المتناسون الذين عندهم العلوم و يتكلفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم و روي و المتناسون بالواو. ثم قال أعينوا على الخير إذا رأيتموه بتحسينه عند فاعله و بدفع الأمور المانعة عنه و بتسهيل أسبابه و تسنية سبله و إذا رأيتم الشر فاذهبوا عنه و لا تقاربوه و لا تقيموا أنفسكم في مقام الراضي به الموافق على فعله ثم روى لهم الخير. و الجواد القاصد السهل السير لا سريع يتعب بسرعته و لا بطيء يفوت الغرض ببطئه

أَلَا وَ إِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ وَ ظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ وَ ظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ أَهْنَاتٍ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ لَيْسَ هُوَ جَزَاءً بِالْمَدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْعَرُ ذَلِكَ مَعَهُ فَإِيَّاكُمْ وَ التَّلَاؤُنَ فِي دِينِ اللَّهِ فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيَمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيَمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ وَ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْنُهُ عَنِ غُيُوبِ النَّاسِ وَ طُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ وَ أَكَلَ قُوتَهُ وَ اشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ وَ بَكَى عَلَى حَطِيئَتِهِ فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ وَ النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ قَسَمَ عَ الظُّلْمِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ أَحَدُهَا ظَلَمَ لَا يَغْفَرُ وَ هُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ أَيُّ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ مَصْرًا عَلَى الشِّرْكِ وَ يَجِبُ عِنْدَ أَصْحَابِنَا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ الْكِبَائِرَ وَ إِنْ لَمْ يَذْكُرْهَا لِأَنَّ حُكْمَهَا حُكْمُ الشِّرْكِ عِنْدَهُمْ.

و ثانيها الهنات المغفورة و هي صغائر الذنوب هكذا يفسر أصحابنا كلامه ع.و ثالثها ما يتعلق بحقوق البشر بعضهم على بعض فإن ذلك لا يتركه الله هملا بل لا بد من عقاب فاعله و إنما أفرد هذا القسم مع دخوله في القسم الأول لتمييزه بكونه متعلقا بحقوق بني آدم بعضهم على بعض و ليس الأول كذلك.فإن قلت لفظه ع مطابق للآية و هي قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) و الآية و لفظه ع صريحان في مذهب المرجئة لأنكم إذا فسرتم قوله لمن يشاء بأن المراد به أرباب التوبة قيل لكم فالمشركون هكذا حالهم يقبل الله توبتهم و يسقط عقاب شركهم بما فلائي معنى خصص المشيئة بالقسم الثاني و هو ما دون الشرك و هل هذا إلا تصريح بأن الشرك لا يغفر لمن مات عليه و ما دونه من المعاصي إذا مات الإنسان عليه لا يقطع له بالعقاب و لا لغيره بل أمره إلى الله.قلت الأصوب في هذا الموضع ألا يجعل قوله لمن يشاء معنيا به التائبون بل نقول المراد أن الله لا يستر في موقف القيامة من مات مشركا بل يفضحه على رءوس الأشهاد كما قال تعالى (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ). و أما من مات على كبيرة من أهل الإسلام فإن الله تعالى يستره في الموقف و لا يفضحه بين الخلائق و إن كان من أهل النار و يكون معنى المغفرة في هذه الآية الستر و تغطية حال العاصي في موقف الحشر و قد يكون من أهل الكبائر ممن يقر بالإسلام

لعظيم كبائره جدا فيفضحه الله تعالى في الموقف كما يفضح المشرك فهذا معنى قوله (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ). فأما الكلام المطول في تأويلات هذه الآية فمذكور في كتبنا الكلامية. و اعلم أنه لا تعلق للمرجئة و لا جدوى عليهم من عموم لفظ الآية لأنهم قد وافقونا على أن الفيلسفي غير مغفور له و ليس بمشرك فإذا أراد بقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) و من جرى مجرى المشركين قيل لهم و نحن نقول إن الزاني و القاتل يجريان مجرى المشركين كما أجرىتم الفلاسفة مجرى المشركين فلا تنكروا علينا ما لم تنكروه على أنفسكم. ثم ذكر ع أن القصاص في الآخرة شديد ليس كما يعهده الناس من عقاب الدنيا الذي هو ضرب السوط و غايته أن يذوق الإنسان طعم الحديد و هو معنى قوله جرحا بالمدى جمع مدية و هي السكين بل هو شيء آخر عظيم لا يعبر النطق عن كنهه و شدة نكاله و ألمه

فصل في الآثار الواردة في شديد عذاب جهنم

قال الأوزاعي في مواعظه للمنصور

روي لي عن رسول الله ص لو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء و الأرض لأحرق أهل الأرض قاطبة فكيف بمن يتقمصه و لو أن ذنوبا من حميم جهنم صب على ماء الأرض كله لأجنه حتى لا يستطيع مخلوق شربه فكيف بمن يتجرعه و لو أن حلقة من سلاسل النار وضعت على جبل لذاب كما يذوب الرصاص فكيف بمن يسلك فيها و يرد فضلها على عاتقه و روى أبو هريرة عن النبي ص لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون و أخرج إليهم رجل من النار فتنفس و أصابهم نفسه لأحرق المسجد و من فيه

و روي أن رسول الله ص قال لجبريل ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكا قال إن ميكائيل لم يضحك منذ خلقت النار و رآها و عنه ص لما أسري بي سمعت هدة فسألت جبريل عنها فقال حجر أرسله الله من شفيع جهنم فهو يهوي منذ سبعين خريفا حتى بلغ الآن فيه و روي عن النبي ص في قوله (تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) قال تتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه و تسترخي شفته السفلى حتى تضرب سترته و روى عبيد بن عمير الليثي عنه ع لتزفرن جهنم زفرة لا يبقى ملك و لا نبي إلا خر مرتعدة فرائضه حتى إن إبراهيم الخليل ليحثو على ركبتيه فيقول يا رب إني لا أسألك إلا نفسي

أبو سعيد الخدري مرفوعا لو ضربت جبال الدنيا بمقمع من تلك المقامع الحديد لصارت غبارا. الحسن البصري قال الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الرب و لكن إذا أصابهم اللهب أرسبتهم في النار ثم خر الحسن صعقا و قال و دموعه تتحادر يا ابن آدم نفسك نفسك فإنما هي نفس واحدة إن نجت نجوت و إن هلكت لم ينفعك من نجا. طاوس أيها الناس إن النار لما خلقت طارت أفئدة الملائكة فلما خلقتكم سكنت.

مطرف بن الشخير إنكم لتذكرون الجنة و إن ذكر النار قد حال بيني و بين أن أسأل الله الجنة.منصور بن عمار يا من البعوضة تقلقه و البقرة تسهره أ مثلك يقوى على وهج السعير أو تطبيق صفحة خده لفح سمومها و رقة أحشائه خشونة ضريعها و رطوبة كبده تجرع غساقها. قيل لعطاء السلمي أ يسرك أن يقال لك قع في جهنم فتحرق فتذهب فلا تبعث أبدا لا إليها و لا إلى غيرها فقال و الله الذي لا إله إلا هو لو سمعت أن يقال لي لظننت أني أموت فرحا قبل أن يقال لي ذلك.الحسن و الله ما يقدر العباد قدر حرها رويانا لو أن رجلا كان بالمشرق و جهنم بالمغرب ثم كشف عن غطاء واحد منها لغلت جمجمته و لو أن دلوا من صديدها صب في الأرض ما بقي على وجهها شيء فيه روح إلا مات. كان الأحنف يصلي صلاة الليل و يضع المصباح قريبا منه فيضع إصبعه عليه و يقول يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا حتى يصبح

فصل في العزلة و الاجتماع و ما قيل فيهما

ثم نهامهم ع عن التفرق في دين الله و هو الاختلاف و الفرقة ثم أمرهم باجتماع الكلمة و قال إن الجماعة في الحق المكروه إليكم خير لكم من الفرقة في الباطل المحبوب عندكم فإن الله لم يعط أحدا خيرا بالفرقة لا ممن مضى و لا ممن بقي.

و قد تقدم ذكر ما ورد عن النبي ص في الأمر بلزوم الجماعة و النهي عن الاختلاف و
الفرقة. ثم أمر ع بالعزلة و لزوم البيت و الاشتغال بالعبادة و مجانبة الناس و متاركتهم و اشتغال
الإنسان بعيب نفسه عن عيوبهم. و قد ورد في العزلة أخبار و آثار كثيرة و اختلف الناس قديما و
حديثا فيها ففضلها قوم على المخالطة و فضل قوم المخالطة عليها. فممن فضل العزلة سفيان
الثوري و إبراهيم بن أدهم و داود الطائي و الفضيل بن عياض و سليمان الخواص و يوسف بن
أسباط و بشر الحافي و حذيفة المرعشي و جمع كثير من الصوفية و هو مذهب أكثر العارفين و
قول المتأهلين من الفلاسفة. و ممن فضل المخالطة على العزلة ابن المسيب و الشعبي و ابن أبي ليلى
و هشام بن عروة و ابن شبرمة و القاضي شريح و شريك بن عبد الله و ابن عيينة و ابن
المبارك. فأما كلام أمير المؤمنين ع فيقتضي عند إمعان النظر فيه أن العزلة خير لقوم و أن المخالطة
خير لقوم آخرين على حسب أحوال الناس و اختلافهم. و قد احتج أرباب المخالطة يقول الله
تعالى (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) و بقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا و
اِخْتَلَفُوا) و هذا ضعيف لأن المراد بالآية تفرق الآراء و اختلاف المذاهب في أصول الدين و المراد

بتأليف القلوب و بالأخوة عدم الإحن و الأحقاد بينهم بعد استعار نارها في الجاهلية و هذا أمر خارج عن حديث العزلة. و احتجوا بقول النبي ص المؤمن إلف مألوف و لا خير فيمن لا يألف و لا يؤلف و هذا أيضا ضعيف لأن المراد منه ذم سوء الخلق و الأمر بالرفق و البشر فلا يدخل تحته الإنسان الحسن الخلق الذي لو خولط لألف و ألف و إنما يمنعه من المخالطة طلب السلامة من الناس. و احتجوا بقوله من شق عصا المسلمين فقد خلع ربة الإسلام عن عنقه و هذا ضعيف أيضا لأنه مختص بالبغية و المارقين عن طاعة الإمام فلا يتناول أهل العزلة الذين هم أهل طاعة للأئمة إلا أنهم لا يخالطون الناس. و احتجوا بنهي ص عن هجر الإنسان أخاه فوق ثلاث و هذا ضعيف لأن المراد منه النهي عن الغضب و اللجاج و قطع الكلام و السلام لثوران الغيظ فهذا أمر خارج عن الباب الذي نحن فيه. و احتجوا بأن رجلا أتى جبلا يعبد فيه فجاء أهله إلى رسول الله ص فنهاه و قال له إن صبر المسلم في بعض مواطن الجهاد يوما واحدا خير له من عبادة أربعين سنة. و هذا ضعيف لأنه إنما كان ذلك في ابتداء الإسلام و الحث على جهاد المشركين. و احتجوا بما روي عنه ص أنه قال الشيطان ذئب و الناس كالغنم يأخذ القاصية و الشاذة إياكم و الشباب و عليكم بالعمامة و الجماعة و المساجد و هذا ضعيف لأن المراد به من اعتزل الجماعة و خالفها.

و احتج من رجح العزلة و أثرها على المخالطة بالآثار الكثيرة الواردة في ذلك نحو قول عمر
خذوا بحظكم من العزلة. و قول ابن سيرين العزلة عبادة. و قول الفضيل كفى بالله محبوبا و بالقرآن
مؤنسا و بالموت واعظا اتخذ الله صاحبا و دع الناس جانبا. و قال ابن الربيع الزاهد لداود الطائي
عظني فقال صم عن الدنيا و اجعل فطرك للآخرة و فر من الناس فرارك من الأسد. و قال الحسن
كلمات أحفظهن من التوراة قنع ابن آدم فاستغنى و اعتزل الناس فسلم ترك الشهوات فصار حرا
ترك الحسد فظهرت مروءته صبر قليلا فتمتع طويلا. و قال وهب بن الورد بلغنا أن الحكمة عشرة
أجزاء تسعة منها الصمت و العاشر في العزلة عن الناس. و قال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار ما
أصبرك على الوحدة و كان قد لزم البيت فقال كنت و أنا شاب أصبر على أشد من هذا كنت
أجالس الناس و لا أكلمهم. و قال الثوري هذا وقت السكوت و ملازمة البيوت. و قال بعضهم
كنت في سفينة و معنا شاب علوي فمكث معنا سبعا لا نسمع له كلاما فقلنا له قد جمعنا الله و
إياك منذ سبع و لا نراك تخالطنا و لا تكلمنا فأنشد:

قليل الهم لا ولد يموت و ليس بخائف أمرا يفوت
قضى وطر الصبا و أفاد علما فغايتة التفرد و السكوت

وأكبر همه مما عليه تنجز من ترى خلق و قوت
قال النخعي لصاحب له تفقه ثم اعتزل. وكان مالك بن أنس الفقيه يشهد الجنائز و يعود
المرضى و يعطي الإخوان حقوقهم ثم ترك واحدا واحدا من ذلك إلى أن ترك الجميع و قال ليس
يتهمياً للإنسان أن يخبر بكل عذر له. و قيل لعمر بن عبد العزيز لو تفرغت لنا فقال ذهب الفراغ
فلا فراغ إلا عند الله تعالى. و قال الفضيل بن عياض إني لأجد للرجل عندي يدا إذا لقيني ألا
يسلم علي و إذا مرضت ألا يعودني. و قال الداراني بينا ابن خثيم جالس على باب داره إذ جاء
حجر فصك وجهه فسجد و جعل يمسح الدم و يقول لقد وعظت يا ربيع ثم قام فدخل الدار
فما جلس بعد ذلك على بابه حتى مات. و كان سعد بن أبي وقاص و سعيد بن زيد قد لهما
بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتیان المدينة لا حاجة لهما و لا لغيرهما حتى ماتا بالعقيق. قال بشر أفلل
من معرفة الناس فإنك لا تدري ما تكون يوم القيامة فإن تكن فضيحة كان من يعرفك أقل. و
أحضر بعض الأمراء حاتما الأصم فكلمه ثم قال له أ لك حاجة قال نعم ألا تراني و لا أراك. و قيل
للفضيل إن ابنك يقول لوددت أني في مكان أرى الناس و لا يرونني فبكى الفضيل و قال يا ويح
علي أ لا أتمها فقال و لا أراهم.

و من كلام الفضيل أيضا من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه. و قد جاء في الأحاديث المرفوعة
ذكر العزلة و فضلها

نحو قوله ع لعبد الله بن عامر الجهني لما سأله عن طريق النجاة فقال له ليسعك بيتك أمسك
عليك دينك و ابك على خطيئتك
و قيل له ص أي الناس أفضل فقال رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه و يدع الناس
من شره و

قال ع إن الله يحب التقي النقي الخفي

ذكر فوائد العزلة

و في العزلة فوائد منها الفراغ للعبادة و الذكر و الاستئناس بمناجاة الله عن مناجاة الخلق فيتفرغ
لاستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا و الآخرة و ملكوت السماوات و الأرض لأن ذلك لا
يمكن إلا بفراغ و لا فراغ مع المخالطة و لذلك كان رسول الله ص في ابتداء أمره يتبتل في جبل
حراء و يعتزل فيه حتى أتته النبوة. و قيل لبعض الحكماء ما الذي أرادوا بالخلوة و العزلة فقال دوام
الفكر و ثبات العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيبة و يموتوا موتا طيبا. و قيل لبعضهم ما أصبرك على
الوحدة فقال لست وحدي أنا جليس ربي إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه و إذا شئت أن أناجيه
صليت. و قال سفيان بن عيينة لقيت إبراهيم بن أدهم في بلاد الشام فقلت له يا إبراهيم

ترك خراسان فقال ما تهنأت بالعيش إلا هاهنا أفر بديني من شاهق إلى شاهق فمن رأي قال
موسوس أو حمال. و قيل للحسن يا أبا سعيد هاهنا رجل لم نره قط جالسا إلا وحده خلف سارية
فقال الحسن إذا رأيتموه فأخبروني فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن و أشاروا إليه فمضى نحوه و
قال له يا عبد الله لقد حبيت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس قال أمر شغلي عنهم قال
فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه قال أمر شغلي عن الناس و عن
الحسن قال و ما ذلك الشغل يرحمك الله قال إني أمسي و أصبح بين نعمة و ذنب فأشغل نفسي
بشكر الله على نعمه و الاستغفار من الذنب فقال الحسن أنت أفقه عندي يا عبد الله من الحسن
فالزم ما أنت عليه. و جاء هرم بن حيان إلى أويس فقال له ما حاجتك قال جئت لأنس بك قال
ما كنت أعرف أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره. و قال الفضيل إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به و
قلت أخلو بري و إذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس و أن يجيء إلي من
يشغلني عن ربي. و قال مالك بن دينار من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه
و عمي قلبه و ضاع عمره. و قال بعض الصالحين بينا أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعباد
خارج من بعض تلك الجبال فلما نظر إلي تنحى إلى أصل شجرة و تستر بها فقلت سبحان الله أ
تبخل علي بالنظر إليك فقال يا هذا إني أقمت في هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبي في الصبر عن
الدنيا و أهلها فطال في ذلك تعبي و فني عمري ثم سألت الله تعالى

ألا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي فقط فسكنه الله عن الاضطراب و آلفه الوحدة و
الانفراد فلما نظرت إليك و تريدني خفت أن أقع في الأمر الأول فأعود إلى ألف المخلوقين فأليك
عني فياني أعوذ من شرك رب العارفين و حبيب التائبين ثم صاح وا غماه من طول المكث في
الدنيا ثم حول وجهه عني ثم نفض يده و قال إليك عني يا دنيا لغيري فتزيني و أهلك فغري ثم قال
سبحان من أذاق العارفين من لذة الخدمة و حلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان و
الحور الحسان فياني في الخلوة آنس بذكر الله و أستلذ بالانقطاع إلى الله ثم أنشد:

و إني لأستغشي و ما بي نعسة لعل خيالا منك يلقى خيالها
و أخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس في السر خاليا
و قال بعض العلماء إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فيتكثر حينئذ
بملاقاة الناس و يطرد الوحشة عن نفسه بهم فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على
الفكرة و يستخرج العلم و الحكمة و كان يقال الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس. و منها
التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبا بالمخالطة و هي الغيبة و الرياء و ترك
الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و سرقة الطبع بعض الأخلاق الرديئة و الأعمال الخبيثة من
الغير. أما الغيبة فإن التحرز منها مع مخالطة الناس صعب شديد لا ينجو من ذلك إلا الصديقون
فإن عادة أكثر الناس التمضمض بأعراض من يعرفونه و التنقل بلذة

ذلك فهي أنسهم الذي يستريحون إليه في الجلوة و المفاوضة فإن خالطتهم و وافقت أثمت و إن سكت كنت شريكا فالمستمع أحد المغتابين و إن أنكرت تركوا ذلك المغتاب و اغتابوك فازدادوا إثما على إثمهم. فأما الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فإن من خالط الناس لا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكت عصي الله و إن أنكرت تعرض بأنواع من الضرر و في العزلة خلاص عن ذلك و في الأمر بالمعروف إثارة للخصام و تحريك لكوامن ما في الصدور و قال الشاعر:

و كم سقت في آثارك من نصيحة و قد يستفيد الظنة المنتصح
و من تجرد للأمر بالمعروف ندم عليه في الأكثر كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه وحده
فيوشك أن يقع عليه فإذا سقط قال يا ليتني تركته مائلا نعم لو وجد الأعوان حتى يحكم ذلك
الحائط و يدعمه استقام و لكنك لا تجد القوم أعوانا على الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فدع
الناس و انج بنفسك. و أما الرياء فلا شبهة أن من خالط الناس داراهم و من داراهم راءاهم و من
راءاهم كان منافقا و أنت تعلم أنك إذا خالطت متعاضدين و لم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه
صرت بغیضا إليهما جميعا و إن جاملتهم كنت من شرار الناس و صرت ذا وجهين و أقل ما
يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق و المبالغة فيه و ليس يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل و
إما في الزيادة بإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال فقولك كيف أنت و كيف أهلك و أنت في
الباطن فارغ القلب عن همومه نفاق محض. قال السري السقطي لو دخل علي أخ فسويت لحيتي
بيدي لدخوله خشيت أن أكتب في جريدة المنافقين.

كان الفضيل جالسا وحده في المسجد فجاء إليه أخ له فقال ما جاء بك قال المؤانسة قال هي و الله بالمواحشة أشبه هل تريد إلا أن تتزين لي و أتزين لك و تكذب لي و أكذب لك إما أن تقوم عني و إما أن أقوم عنك. و قال بعض العلماء ما أحب الله عبدا إلا أحب ألا يشعر به خلقه. و دخل طاوس على هشام بن عبد الملك فقال كيف أنت يا هشام فغضب و قال لم لم تخاطبني بإمرة المؤمنين قال لأن جميع الناس ما اتفقوا على خلافتك فخشيت أن أكون كاذبا. فمن أمكنه أن يحتز هذا الاحتراز فليخالط الناس و إلا فليرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين إن خالطهم و لا نجاة من ذلك إلا بالعزلة. و أما سرقة الطبع من الغير فالتجربة تشهد بذلك لأن من خالط الأشرار اكتسب من شرهم و كلما طالت صحبة الإنسان لأصحاب الكبائر هانت الكبائر عنده و في المثل فإن القرين بالمقارن يقتدي. و منها الخلاص من الفتن و الحروب بين الملوك و الأمراء على الدنيا.

روى أبو سعيد الخدري عن النبي ص أنه قال يوشك أن يكون خير مال المسلم غنيمة يتبع بها شعاف الجبال و مواضع القطر يفر بدينه من الفتن و روى عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ص ذكر الفتن فقال إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم و خفت أمانتهم و كانوا هكذا و شبك

بأصابعه فقلت ما تأمرني فقال الزم بيتك و املك عليك لسانك و خذ ما تعرف و دع ما تنكر و عليك بأمر الخاصة و دع عنك أمر العامة و روى ابن مسعود عنه ص أنه قال سيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر من قرية إلى قرية و من شاهر إلى شاهر كالثعلب الرواغ قيل و متى ذلك يا رسول الله قال إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصي الله سبحانه فإذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته و ولده و إن لم يكن فعلى يد قرابته قالوا كيف ذلك يا رسول الله قال يعيرونه بالفقر و ضيق اليد فيكلفونه ما لا يطيقه حتى يورده ذلك موارد الهلكة و روى ابن مسعود أيضا أنه ص ذكر الفتنة فقال المهرج فقلت و ما المهرج يا رسول الله قال حين لا يأمن المرء جلسه قلت فبم تأمرني يا رسول الله إن أدركت ذلك الزمان قال كف نفسك و يدك و ادخل دارك قلت أ رأيت إن دخل علي داري قال ادخل بيتك قلت إن دخل علي البيت قال ادخل مسجدك و اصنع هكذا و قبض على الكوع و قل ربي الله حتى تموت. و منها الخلاص من شر الناس فإنهم يؤذونك تارة بالغيبة و تارة بسوء الظن و التهمة و تارة بالافتراءات و الأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها و تارة بالنميمة و الكذب مما يروونه منك من الأعمال و الأقوال مما لا تبلغ عقولهم كنهه فيدخلون ذلك في نفوسهم عدة لوقت ينتهزون فيه فرصة الشر و من يعتزلهم يستغن عن التحفظ لذلك. و قال بعض الحكماء لصاحبه أعلمك شعرا هو خير لك من عشرة آلاف درهم و هو

اخفض الصوت إن نطقت بليل و التفت بالنار قبل المقال
ليس للقول رجعة حين يبدو بقبيح يكون أو بجمال
و من خالط الناس لا ينفك من حاسد و طاعن و من جرب ذلك عرف. و من الكلام المأثور
عن علي ع اخبر تقله قال الشاعر:

من حمد الناس و لم يبلهم ثم بلاهم ذم من يحمد
و صار بالوحدة مستأنسا يوحشه الأقرب و الأبعد
و قيل لسعد بن أبي وقاص أ لا تأتي المدينة قال ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة. و
قال ابن السماك كتب إلينا صاحب لنا أما بعد فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لا
دواء لهم ففر منهم فرارك من الأسد. و كان بعض الأعراب يلازم شجرة و يقول هذه نديمي و هو
نديم فيه ثلاث خصال إن سمع لم ينم علي و إن تفلت في وجهه احتمل و إن عريدت عليه لم
يغضب فسمع الرشيد هذا الخبر فقال قد زهدني سماعه في الندماء. و كان بعضهم يلازم الدفاتر و
المقابر فقليل له في ذلك قال لم أر أسلم من الوحدة و لا أوعظ من قبر و لا أمتع من دفتر. و قال
الحسن مرة إني أريد الحج فجاء إلي ثابت البناني و قال بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن
نصطحب فقال الحسن دعنا نتعاشر بستر الله إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما
نتماقت عليه. و قال بعض الصالحين كان الناس ورقا لا شوك فيه فالناس اليوم شوك لا ورق فيه. و
قال سفيان بن عيينة قال لي سفيان الثوري في اليقظة في حياته و في المنام بعد

وفاته أقلل معرفة الناس فإن التخلص منهم شديد و لا أحسبني رأيت ما أكره إلا ممن عرفت. و قال بعضهم جئت إلى مالك بن دينار و هو قاعد وحده و عنده كلب رابض قريباً منه فذهبت أطرده فقال دعه فإنه لا يضر و لا يؤذي و هو خير من المجلس السوء. و قال أبو الدرداء اتقوا الله و احذروا الناس فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه و لا ظهر جواد إلا عقروه و لا قلب مؤمن إلا أخبوه. و قال بعضهم أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك و قلبك و أخف لظهرك و أدعى إلى سقوط الحقوق عنك لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق و عسر القيام بالجميع. و قال بعضهم إذا أردت النجاة فأنكر من تعرف و لا تتعرف إلى من لا تعرف. و منها أن في العزلة بقاء الستر على المروءة و الخلق و الفقر و سائر العورات و قد مدح الله تعالى المستترين فقال (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ). و قال الشاعر:

و لا عار أن زالت عن الحر نعمة و لكن عارا أن يزول التجميل
و ليس يخلو الإنسان في دينه و دنياه و أفعاله عن عورات يتقين و يجب سترها و لا تبقى
السلامة مع انكشافها و لا سبيل إلى ذلك إلا بترك المخالطة. و منها أن ينقطع طمع الناس عنك
و ينقطع طمعك عن الناس أما انقطاع طمع الناس عنك ففيه نفع عظيم فإن رضا الخلق غاية لا
تدرك لأن أهون حقوق الناس

و أيسرها حضور الجنائز و عيادة المريض و حضور الولائم و الإملاكات و في ذلك تضييع الأوقات و التعرض للآفات ثم يعوق عن بعضها العوائق و تستثقل فيها المعاذير و لا يمكن إظهار كل الأعذار فيقول لك قائل إنك قمت بحق فلان و قصرت في حقّي و يصير ذلك سبب عداوة فقد قيل إن من لم يعد مريضاً في وقت العيادة يشتهي موته خيفة من تخجيله إياه إذا برأ من تقصيره فأما من يعم الناس كلهم بالحرمان فإنهم يرضون كلهم عنه و متى خصص وقع الاستيحاش و العتاب و تعميمهم بالقيام بجميع الحقوق مما لا قدرة عليه للمتجرد ليله و نهاره فكيف من له مهم يشغله ديني أو دنيوي. و من كلام بعضهم كثرة الأصدقاء زيادة الغرماء. و قال الشاعر:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثر من أصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

و أما انقطاع طمعك عنهم ففيه أيضاً فائدة جزيلة فإن من نظر إلى زهرة الدنيا و زخرفها تحرك حرصه و انبعث بقوة الحرص طمعه و أكثر الأطماع يتعقبها الخيبة فيتأذى الإنسان بذلك و إذا اعتزل لم يشاهد و إذا لم يشاهد لم يشته و لم يطمع و لذلك قال الله تعالى لنبيه ص (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) و قال ع انظروا إلى من دونكم و لا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم.

و قال عون بن عبد الله كنت أجالس الأغنياء فلا أزال مغموما أرى ثوبا أحسن من ثوبي و دابة أفره من دابتي فجالست الفقراء فاسترحت. و خرج المزني صاحب الشافعي من باب جامع الفسطاط بمصر و كان فقيرا مقلا فصادف ابن عبد الحكم قد أقبل في موكبه فبهره ما رأى من حاله و حسن هيأته فتلا قوله تعالى (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) ثم قال نعم أصبر و أَرْضَى. فالمعتزل عن الناس في بيته لا يتلى بمثل هذه الفتن فإن من شاهد زينة الدنيا إما أن يقوى دينه و يقينه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرع مرارة الصبر و هو أمر من الصبر أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا فيهلك دنيا و آخرة أما في الدنيا فبالطمع الذي في أكثر الأوقات يتضمن الذل المعجل و أما في الآخرة فلا يشاره متاع الدنيا على ذكر الله و التقرب إليه و لذلك قال الشاعر:

إذا كان باب الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر
أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلا. و منها الخلاص من مشاهدة الثقلاء و الحمقى و معاناة أخلاقهم فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر قيل للأعمش بم عمشت عيناك قال بالنظر إلى الثقلاء. و دخل على أبي حنيفة رحمته الله فقال له رويانا في الخبر أن من سلب كرميته عوضه الله ما هو خير منهما فما الذي عوضك قال كفاني رؤية ثقل مثلك يمازحه. و قال الشافعي رحمته الله ما جالست ثقيلا إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل علي من الجانب الآخر. و هذه المقاصد و إن كان بعضها دنيويا إلا أنها تضرب في الدين بنصيب و ذلك لأن

من تأذى برؤية ثقيل لم يلبث أن يغتابه و يثلبه و ذلك فساد في الدين و في العزلة السلامة عن جميع ذلك. و اعلم أن كلام أمير المؤمنين ع تختلف مناهجه فقد رجح العزلة في هذا الفصل على المخالطة و نحى عن العزلة في موضع آخر سيأتي ذكره في الفصل الذي أوله أنه دخل على العلاء بن زياد الحارثي عائدا و يجب أن يحمل ذلك على أن من الناس من العزلة خير له من المخالطة و منهم من هو بالضد من ذلك و قد قال الشافعي قريبا من ذلك قال ليونس بن عبد الأعلى صاحبه يا يونس الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة و الانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض و المنبسط. فإذا أردت العزلة فينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس أولا ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيا ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ثم التجرد بكنه الهمة بعبادة الله تعالى رابعا فهذه آداب نيته ثم ليكن في خلوته مواظبا على العلم و العمل و الذكر و الفكر ليجتني ثمرة العزلة و يجب أن يمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه و زيارته فيتشوش وقته و أن يكف نفسه عن السؤال عن أخبارهم و أحوالهم و عن الإصغاء إلى أراجيف الناس و ما الناس مشغولون به فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث على الخاطر و البال وقت الصلاة و وقت الحاجة إلى إحضار القلب فإن وقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض لا بد أن ينبت و تتفرع عروقه و أغصانه و إحدى مهمات المعتزل قطع الوسوس الصارفة عن ذكر الله و لا ريب أن الأخبار ينايع الوسوس و أصولها. و يجب أن يقنع باليسير من المعيشة و إلا اضطره التوسع إلى الناس و احتاج إلى مخالطتهم.

و ليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الجيران إذ يسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقول فيه من أثنى عليه بالعزلة و قدح فيه بترك المخالطة فإن ذلك لا بد أن يؤثر في القلب و لو مدة يسيرة و حال اشتغال القلب به لا بد أن يكون واقفاً عن سيره في طريق الآخرة فإن السير فيها إما يكون بالمواظبة على ورد أو ذكر مع حضور قلب و إما بالفكر في جلال الله و صفاته و أفعاله و ملكوت سماواته و إما بالتأمل في دقائق الأعمال و مفسدات القلب و طلب طرق التخلص منها و كل ذلك يستدعي الفراغ و لا ريب أن الإصغاء إلى ما ذكرناه يشوش القلب. و يجب أن يكون للمعتزل أهل صالح أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه ساعة عن كد المواظبة ففي ذلك عون له على بقية الساعات و ليس يتم للإنسان الصبر على العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا و ما الناس منهمكون فيه و لا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل و ألا يقدر لنفسه عمراً طويلاً بل يصبح على أنه لا يمسي و يمسي على أنه لا يصبح فيسهل عليه صبر يوم و لا يسهل عليه العزم على صبر عشرين سنة لو قدر تراخي أجله و ليكن كثير الذكر للموت و وحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة و ليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله و معرفته ما يأنس به فإنه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت و أن من أنس بذكر الله و معرفته فإن الموت لا يزيل أنسه لأن الموت ليس يهدم محل الأنس و المعرفة بل يبقى حياً بمعرفته و أنسه فرحاً بفضل الله عليه قال سبحانه (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ). و كل من يجرد نفسه في ذات الله فهو شهيد مهما أدركه الموت فالمجاهد من

جاهد نفسه و هوأه كما صرح به ع و قال لأصحابه رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد
الأكبر فالجهاد الأصغر محاربة المشركين و الجهاد الأكبر جهاد النفس. و هذا الفصل في العزلة
نقلناه على طوله من كلام أبي حامد الغزالي في إحياء علوم الدين و هذبنا منه ما اقتضت الحال
تهذيبه

١٧٨ و من كلام له ع في معنى الحكمين

فَأَجْمَعَ رَأْيِي مَلِكُكُمْ عَلَى أَنْ إِخْتَارُوا رَجُلَيْنِ فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعِلَا عِنْدَ الْقُرْآنِ وَ لَا يُجَاوِزَاهُ
وَ تَكُونُ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَ قُلُوبُهُمَا تَبَعُهُ فَتَاهَا عَنْهُ وَ تَرَكَ الْحَقَّ وَ هُمَا يُبْصِرَانِهِ وَ كَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا
وَ الْإِعْوَاجُ دَابَّهُمَا رَأَيْتُهُمَا وَ قَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَ الْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ
رَأْيِهِمَا وَ جَوْرَ حُكْمِهِمَا وَ الثِّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنفُسِنَا حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ وَ أَتَيَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ
مَعْكَوسِ الْحُكْمِ الْمَلَأَ الْجَمَاعَةَ وَ يَجْعِلَا يَجْبَسَا نفوسهما و آراءهما عند القرآن جعجعت أي
حبست أخذت عليهما العهد و الميثاق أن يعملوا بما في القرآن و لا يتجاوزاه. فتأها عنه أي عدلا
و تركا الحق على علم منهما به. و الدأب العادة و سوء رأيهما منصوب لأنه مفعول سبق و
الفاعل استثنأونا. ثم قال و الثقة في أيدينا أي نحن على برهان و ثقة من أمرنا و ليس بضائر لنا ما
فعلاه لأنهما خالفا الحق و عدلا عن الشرط و عكسا الحكم.

و روى الثوري عن أبي عبيدة قال أمر بلال بن أبي بردة و كان قاضيا بتفريق بين رجل و امرأته فقال الرجل يا آل أبي موسى إنما خلقكم الله للتفريق بين المسلمين

كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص و هو على مصر

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص و هو على مصر قد قبضها بالشرط الذي اشترط على معاوية أما بعد فإن سؤال أهل الحجاز و زوار أهل العراق كثروا علي و ليس عندي فضل عن أعطيات الحجاز فأعني بخراج مصر هذه السنة فكتب عمرو إليه:

معاوي إن تدركك نفس شحيحة فما مصر إلا كالهباءة في الترب
و ما نلتها عفوا و لكن شرطتها و قد دارت الحرب العوان على قطب
و لو لا دفاعي الأشعري و رهطه لألفيتها ترغو كراغية السقب
ثم كتب في ظاهر الكتاب و رأيت أنا هذه الأبيات بخط أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب
التبريزي رحمته الله

معاوي حظي لا تغفل	و عن سنن الحق لا تعدل
أتنسى مخادعتي الأشعري	و ما كان في دومة الجندل
ألين فيطمع في غرتي	و سهمي قد خاض في المقتل
فألمظ به عسلا باردا	و أخبأ من تحته حنظلي
و أعليته المنبر المشمخر	كرجع الحسام إلى المفصل

فأضحى لصاحبه خالعا كخلع النعال من الأرجل
وأثبتها فيك موروثا ثبوت الخواتم في الأثمل
وهبت لغيري وزن الجبال وأعطيني زنة الخردل
وإن عليا غدا خصمنا سيحتج بالله والمرسل
وما دم عثمان منج لنا فليس عن الحق من مزحل
فلما بلغ الجواب إلى معاوية لم يعاوده في شيء من أمر مصر بعدها. بعث عبد الملك روح بن
زنباع و بلال بن أبي بردة بن أبي موسى إلى زفر بن الحارث الكلابي بكلام و حذرهما من كيده و
خص بالتحذير روحا فقال يا أمير المؤمنين إن أباه كان المخدوع يوم دومة الجندل لا أبي فعلام
تخوفني الخداع و الكيد فغضب بلال و ضحك عبد الملك

١٧٩ و من خطبة له ع

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ وَلَا يُعَيِّرُهُ زَمَانٌ وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ لَا يَعُزُّبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ
الْمَاءِ وَلَا تُجُومُ السَّمَاءُ وَلَا سَوَاقِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ وَلَا دَيْبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ
فِي اللَّيْلَةِ الظَّلَمَاءِ يَعْلَمُ مَسَافِطَ الْأُزَاقِ وَ حَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ
مَعْدُولٍ بِهِ وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ شَهَادَةٌ مِنْ صَدَقَتْ نَيْتُهُ وَ
صَفَتْ دِخْلَتُهُ وَ خَلَصَ يَقِينُهُ وَ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ الْمُنْجَنِّي مِنْ
خَلَائِقِهِ وَ الْمُعْتَمَأ لِسِرِّ حَقَائِقِهِ وَ الْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ وَ الْمُصْطَفَى لِكِرَائِمِ رِسَالَاتِهِ وَ
الْمُوضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى وَ الْمَجْلُوءُ بِهِ غَرْيِبُ الْعَمَى لَا يَشْغَلُهُ أَمْرٌ لَأَنَّ الْحَيَّ الَّذِي تَشْغَلُهُ
الْأَشْيَاءُ هُوَ الْحَيُّ الْعَالَمُ بِالْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ وَ الْقَادِرُ عَلَى الْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ فَأَمَّا مَنْ لَا يَغِيبُ
عَنْهُ شَيْءٌ أَصْلًا وَ لَا يَعْجِزُ عَنْ شَيْءٍ أَصْلًا وَ لَا يَمْنَعُهُ مِنْ إِيجَادِ مَقْدُورِهِ إِذَا أَرَادَ مَانِعٌ أَصْلًا
فَكَيْفَ يَشْغَلُهُ شَأْنٌ. وَ كَذَلِكَ لَا يَغْيِرُهُ زَمَانٌ لِأَنَّهُ وَاجِبُ الْوُجُودِ وَ لَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ

و لا يصفه لسان لأن كنه ذاته غير معلوم و إنما المعلوم منه إضافات أو سلوب. و لا يعزب عنه أمر من الأمور أي لا يفوته علم شيء أصلاً. و السواقي التي تسفي التراب أي تذروه. و الصفا مقصور الصخر الأملس و لا وقف عليها هاهنا لأن المقصور لا يكون في مقابلة الممدود و إنما الفقرة المقابلة للهواء هي الظلماء و يكون الصفا في أدراج الكلام أسوة بكلمة من الكلمات و الذر صغار النمل. و يعلم مساقط الأوراق من قوله تعالى (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا). و طرف الأحداق مصدر طرف البصر يطرف طرفاً إذا انطبق أحد الجفنين على الآخر و لكونه مصدراً وقع على الجماعة كما وقع على الواحد فقال ع طرف الأحداق كما قال سبحانه (لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ). و غير معدول به غير مسوى بينه و بين أحد. و الدخلة بكسر الدال باطن الأمر و يجوز الدخلة بالضم. و المعتام المختار و العيمة بالكسر خيار المال اعتام الرجل إذا أخذ العيمة. فإن قلت لفظة معتام و مختار تصلح للفاعل و المفعول فما ذا يفصل بينهما. قلت بما يقترن باللفظ من الكلام قبله و بعده. فإن قلت فهل يختلفان في التقدير في صناعة النحو و إن اتفقا في اللفظ. قلت نعم فإن عين الكلمة ياء مفتوح ما قبلها فإن أردت الفاعل فهي مكسورة و تقديره مختير مثل مخترع و إن كان مفعولاً فهي مفتوحة

و تقديره مختير مثل مخترع و على كلا التقديرين لا بد من انقلاب الياء ألفا و اللفظ واحد و لكن يقدر على الألف كسرة للفاعل و فتحة للمفعول و كذلك القول في معتام و مضطر و نحوهما. و حكي أن بعض المتكلمين من المجبرة قال أسمى العبد مضطرا إلى الفعل إذا فعله و لا أسمى الله تعالى مضطرا إليه. قيل فكيف تقول قال مضطر بكسر الطاء فضحك أهل المجلس منه. و العقائل جمع عقيلة و هي كريمة كل شيء من الناس و الإبل و غير ذلك و يقال للذرة عقيلة البحر. و أشراط الهدى علاماته و منه أشراط الساعة قال تعالى (فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا). و الغريب الأسود الشديد السواد و يجلى به غريب العمى تكشف به ظلم الضلال و تستنير بهدايته و قوله تعالى (وَعَرَايِبُ سُودٌ) ليس على أن الصفة قد تقدمت على الموصوف بل يجعل السود بدلا من الغرايب. فإن قلت الهاء في حقائقه إلى ما ذا ترجع. قلت إلى البارئ سبحانه و حقائقه حقائق توحيده و عدله فالمضاف محذوف و معنى حقائق توحيده الأمور المحققة اليقينية التي لا تعثرها الشكوك و لا تتخالجها الشبه و هي أدلة أصحابنا المعتزلة التي استنبطوها بعقولهم بعد أن دلهم إليها و نبههم على طرق استنباطها رسول الله ص بواسطة أمير المؤمنين ع لأنه إمام المتكلمين الذي لم يعرف علم الكلام من أحد قبله

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الدُّنْيَا تَعُرُّ الْمُؤْمِلَ هَا وَ الْمُخْلِدَ إِلَيْهَا وَ لَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا وَ تَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا وَ أَيُّمُ اللَّهِ مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضٍّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَرَّالٍ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ وَ لَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ وَ تَرْوُلُ عَنْهُمْ النِّعَمُ فَرَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَ وَلَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ وَ أَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ وَ إِنِّي لَأَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرَةٍ وَ قَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلَّتُمْ فِيهَا مِيلَةً كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ وَ لَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسَعْدَاءُ وَ مَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ وَ لَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ الْمُخْلِدِ الْمَائِلِ إِلَيْهَا قَالَ تَعَالَى (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) .و لا تنفس بمن نافس فيها لا تضن به أي من نافس في الدنيا فإن الدنيا تهينه و لا تضن به كما يضن بالعلق النفيس. ثم قال و تغلب من غلب عليها أي من غلب على الدنيا مقاهرة فسوف تغلبه الدنيا و تهلكه. ثم أقسم أنه ما كان قوم في غض نعمة أي في نعمة غضة أي طرية ناضرة فزالت عنهم

إلا بذنوب اجتريها أي اكتسبها وهذا يكاد يشعر بمذهب أهل التناسخ و من قال إن الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه و تعالى بالحيوانات إلا مستحقا فأما مذهب أصحابنا فلا يخرج هذا الكلام عليه لأنه يجوز عندهم أن تزول النعم عن الناس لضرب من اللطف مضاف إلى عوض يعوضهم الله تعالى به في الآخرة فيجب أن يحمل هذا الكلام لا على عمومته بل على الأكثر و الأغلب. ثم قال ع لو أن الناس عند حلول النقم بهم و زوال النعم عنهم يلتجئون إلى الله تعالى تائبين من ذنوبهم لرفع عنهم النعمة و أعاد إليهم النعمة. و الوله كالتحجير يحدث عند الخوف أو الوجد و الشارد الذاهب. قوله و إني لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة أي في أمر جاهلية لغلبة الضلال و الجهل على الأكثرين منهم. و هذه خطبة خطب بها ع بعد قتل عثمان في أول خلافته ع و قد تقدم ذكر بعضها و الأمور التي مالوا فيها عليه اختيارهم عثمان و عدولهم عنه يوم الشورى. و قال لئن رد عليكم أمركم أي أحوالكم التي كانت أيام رسول الله ص من صلاح القلوب و النيات إنكم سعداء. و الجهد بالضم الطاقة. ثم قال لو أشاء أن أقول لقلت أي لو شئت لذكرت سبب التحامل علي وتأخري عن غيري ولكني لا أشاء ذلك و لا أستصلح ذكره.

ثم قال عفا الله عما سلف لفظ مأخوذ من الكتاب العزيز (عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ
فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ). و هذا الكلام يدل على مذهب أصحابنا في أن ما
جرى من عبد الرحمن و غيره في يوم الشورى و إن كان لم يقع على الوجه الأفضل فإنه معفو عنه
مغفور لفاعله لأنه لو كان فسقا غير مغفور لم يقل أمير المؤمنين ع عفا الله عما سلف

١٨٠ و من كلام له ع

وَ قَدْ سَأَلَهُ ذِغْلِبُ الْيَمَانِيِّ فَقَالَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ ع أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى
فَقَالَ وَ كَيْفَ تَرَاهُ قَالَ لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيْنَانِ وَ لَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ قَرِيبٌ
مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مُلَامِسٍ مُلَابِسٍ بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرٌ مُبَايِنٍ مُتَكَلِّمٌ بِلَا رَوِيَّةٍ لَا بِرَوِيَّةٍ مَرِيدٌ لَا بِهَمَّةٍ صَانِعٌ
لَا بِجَارِحَةٍ لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَاسَةِ رَحِيمٌ لَا
يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ تَعْنُو الْوُجُوهَ لِعَظَمَتِهِ وَ تَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ الذَّعْلَبُ فِي الْأَصْلِ النَّاظِقَةُ السَّرِيعَةُ وَ
كَذَلِكَ الذَّعْلَبَةُ ثُمَّ نَقَلَ فَسَمِيَ بِهِ إِنْسَانٌ وَ صَارَ عُلَمَاءُ كَمَا نَقَلُوا بَكَرًا عَنْ فَتَى الْإِبِلِ إِلَى بَكَرِ بْنِ
وَائِلٍ. وَ الْيَمَانِيُّ مُخَفَّفُ الْبَاءِ وَ لَا يَجُوزُ تَشْدِيدُهَا جَعَلُوا الْأَلْفَ عَوْضًا عَنِ الْبَاءِ الثَّانِيَةِ وَ كَذَلِكَ فَعَلُوا
فِي الشَّامِيِّ وَ الْأَصْلُ يَمْنِي وَ شَامِي. وَ قَوْلُهُ ع أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى مَقَامٌ رَفِيعٌ جَدًّا لَا يَصْلَحُ أَنْ يَقُولَهُ
غَيْرُهُ ع.

ثم ذكر ماهية هذه الرؤية قال إنها رؤية البصيرة لا رؤية البصر. ثم شرح ذلك فقال إنه تعالى قريب من الأشياء غير ملامس لها لأنه ليس بجسم و إنما قربه منها علمه بها كما قال تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ) . قوله بعيد منها غير مبين لأنه أيضا ليس بجسم فلا يطلق عليه البينونة و بعده منها هو عبارة عن انتفاء اجتماعه معها و ذلك كما يصدق على البعيد بالوضع يصدق أفضل الصدق على البعيد بالذات الذي لا يصح الوضع و الأين أصلا عليه. قوله متكلم بلا رؤية الروية الفكرة يرتئي الإنسان بها ليصدر عنه ألفاظ سديدة دالة على مقصده و البارئ تعالى متكلم لا بهذا الاعتبار بل لأنه إذا أراد تعريف خلقه من جهة الحروف و الأصوات و كان في ذلك مصلحة و لطف لهم خلق الأصوات و الحروف في جسم جهادي فيسمعها من يسمعها و يكون ذلك كلامه لأن المتكلم في اللغة العربية فاعل الكلام لا من حله الكلام و قد شرحنا هذا في كتبنا الكلامية. قوله يريد بلا همة أي بلا عزم فالعزم عبارة عن إرادة متقدمة للفعل تفعل توطينا للنفس على الفعل و تمهيدا للإرادة المقارنة له و إنما يصح ذلك على الجسم الذي يتردد فيها تدعوه إليه الدواعي فأما العالم لذاته فلا يصح ذلك فيه. قوله صانع لا بجارحة أي لا بعضو لأنه ليس بجسم. قوله لطيف لا يوصف بالخفاء لأن العرب إذا قالوا لشيء إنه لطيف أرادوا أنه صغير الحجم و البارئ تعالى لطيف لا بهذا الاعتبار بل يطلق باعتبارين

أحدهما أنه لا يرى لعدم صحة رؤية ذاته فلما شابه اللطيف من الأجسام في استحالة رؤيته أطلق عليه لفظ اللطيف إطلاقاً للفظ السبب على المسبب. و ثانيهما أنه لطيف بعباده كما قال في الكتاب العزيز أي يفعل الألفاظ المقربة لهم من الطاعة المبعدة لهم من القبيح أو لطيف بهم بمعنى أنه يرحمهم و يرفق بهم. قوله كبير لا يوصف بالجفاء لما كان لفظ كبير إذا استعمل في الجسم أفاد تباعد أقطاره ثم لما وصف البارئ بأنه كبير أراد أن ينزهه عما يدل لفظ كبير عليه إذا استعمل في الأجسام و المراد من وصفه تعالى بأنه كبير عظمة شأنه و جلالة سلطانه. قوله بصير لا يوصف بالحاسة لأنه تعالى يدرك إما لأنه حي لذاته أو أن يكون إدراكه هو علمه و لا جراحة له و لا حاسة على كل واحد من القولين. قوله رحيم لا يوصف بالركة لأن لفظة الرحمة في صفاته تعالى تطلق مجازاً على إنعامه على عباده لأن الملك إذا رق على رعيته و عطف أصابهم بإنعامه و معروفه. قوله تعنو الوجوه أي تخضع قال تعالى: (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ). قوله و تجب القلوب أي تخفق و أصله من وجب الحائط سقط و يروى توجل القلوب أي تخاف و جل خاف. و روي صانع لا بحاسة و روي لا تراه العيون بمشاهدة العيان عوضاً عن لا تدركه

١٨١ و من كلام له ع في ذم أصحابه

أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ وَ قَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ وَ عَلَى إِيْتِلَائِي بِكُمْ أَيُّهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ
لَمْ تُطِيعْ وَ إِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ إِنْ أَهْلَيْتُمْ أَهْلَيْتُمْ خُضْتُمْ وَ إِنْ حُورَيْتُمْ خُرْتُمْ وَ إِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى
إِمَامٍ طَعَنْتُمْ وَ إِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ. لَا أَبَا لِعَيْرِكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَ الْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ
الْمَوْتُ أَوْ الدُّلَّ لَكُمْ فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي وَ لِيَأْتِيَنِي لِيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أَنَا لَصُحْبَتِكُمْ قَالِ وَ
بِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ لِلَّهِ أَنْتُمْ أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ وَ لَا حِمِيَّةَ تَشْحَدُكُمْ أَوْ لَيْسَ عَجَباً أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو
الْجُفَاءَ الطَّعَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَ لَا عَطَاءٍ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ وَ أَنْتُمْ تَرِيكُهُ الْإِسْلَامَ وَ بَقِيَّةُ
النَّاسِ إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ فَتَتَفَرَّقُونَ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَ تَحْتَلِفُونَ عَلَيَّ إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ
مِنْ أَمْرِي رِضًا رِضَى فَتَرْضَوْنَهُ وَ لَا سُحْطًا فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ وَ إِنْ أَحَبَّ مَا أَنَا لِأَقِ إِلَى الْمَوْتِ قَدْ
دَارَسْتُكُمْ الْكِتَابَ وَ فَاتَّخَذْتُكُمْ الْحِجَاجَ وَ عَرَفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ وَ سَوَّغْتُكُمْ مَا مَحَجَّجْتُمْ لَوْ كَانَ الْأَعْمَى
يَلْحَظُ أَوْ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ

وَ أَقْرَبُ بِقَوْمٍ مِّنَ الْجَاهِلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ وَ مُؤَدِّبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ قُضِيَ وَ قَدَرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ
وَاحِدٌ. وَ يَرُوى عَلَى مَا ابْتَلَانِي. وَ أَهْمَلْتُمْ خَلِيَّتِي وَ تَرَكْتُمْ وَ يَرُوى أَهْمَلْتُمْ أَي أَخْرَجْتُمْ. وَ خَرَجْتُمْ ضَعَفْتُمْ وَ
الْخَوَرُ الضَّعْفُ رَجُلٌ خَوَارٌ وَ رَمَحَ خَوَارٌ وَ أَرْضُ خَوَارَةٍ وَ الْجَمْعُ خَوَرٌ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَرَجْتُمْ أَي
صَحَّحْتُمْ كَمَا يَخُورُ الثَّوْرُ وَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ) وَ يَرُوى جَرَجْتُمْ أَي عَدَلْتُمْ عَنْ
الْحَرْبِ فَرَارًا. وَ أَجِئْتُمْ أَجِئْتُمْ قَالَ تَعَالَى (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ). وَ الْمَشَاقَّةُ الْمَقَاتَلَةُ
وَ الْمَصَارِمَةُ. وَ نَكَصْتُمْ أَهْجَمْتُمْ قَالَ تَعَالَى (فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ) أَي رَجَعَ
مَحْجَمًا أَي دَعَيْتُمْ إِلَى كَشْفِ الْقِنَاعِ مَعَ الْعَدُوِّ وَ جَبْنْتُمْ وَ هَبْتُمُوهُ. قَوْلُهُ لَا أَبَا لَغَيْرِكُمْ الْأَفْصَحُ لَا أَبَ
بِحَذْفِ الْأَلْفِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَبِي الْإِسْلَامِ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ
وَ أَمَا قَوْلُهُمْ لَا أَبَا لَكَ بِإِثْبَاتِهِ فَدُونَ الْأَوَّلِ فِي الْفَصَاحَةِ كَأَنَّهُمْ قَصَدُوا الْإِضَافَةَ وَ أَقْحَمُوا الْإِسْلَامَ
مَزِيدَةً مُؤَكَّدَةً كَمَا قَالُوا يَا تَيْمٌ تَيْمٌ عَدِيٌّ وَ هُوَ غَرِيبٌ لِأَنَّ حَكَمَ

لا أن تعمل في النكرة فقط و حكم الألف أن تثبت مع الإضافة و الإضافة تعرف فاجتمع فيها حكمان متنافيان فصار من الشواذ كالملاح و المذاكير و لدن غدوة. و قال الشيخ أبو البقاء رحمته الله يجوز فيها وجهان آخران. أحدهما أنه أشبع فتحة الباء فنشأت الألف و الاسم باق على تنكيره و الثاني أن يكون استعمل أبا على لغة من قالها أبا في جميع أحوالها مثل عصا و منه:
إن أباه و أبا أباه

قوله الموت أو الذل لكم دعاء عليهم بأن يصيبهم أحد الأمرين كأنه شرع داعيا عليهم بالفناء الكلي و هو الموت ثم استدرك فقال أو الذل لأنه نظير الموت في المعنى و لكنه في الصورة دونه و لقد أجيب دعاؤه ع بالدعوة الثانية فإن شيعته ذلوا بعد في الأيام الأموية حتى كانوا كفقع قرقر. ثم أقسم أنه إذا جاء يومه لتكونن مفارقتهم لهم عن قلى و هو البغض و أدخل حشوة بين أثناء الكلام و هي ليأتيني و هي حشوة لطيفة لأن لفظة إن أكثر ما تستعمل لما لا يعلم حصوله و لفظة إذا لما يعلم أو يغلب على الظن حصوله تقول إذا طلعت الشمس جئت إليك و لا تقول إن طلعت الشمس جئت إليك و تقول إذا احمر البسر جئتك و لا تقول إن احمر البسر جئتك فلما قال لعن جاء يومي أتى بلفظة دالة على أن الموضع موضع إذا لا موضع إن فقال و ليأتيني.

و الواو في قوله و أنا لصحبتيكم واو الحال و كذلك الواو في قوله و بكم غير كثير و قوله غير كثير لفظ فصيح و قال الشاعر:

لي خمســــــــون صــــــــديقا بــــــــين قــــــــاض و أــــــــمــــــــير
لبســــــــوا الــــــــوفــــــــر فــــــــلــــــــم أــــــــخــــــــلــــــــع بــــــــهــــــــم ثــــــــوب النــــــــفــــــــير
لكثــــــــير هــــــــم و لكــــــــني بــــــــهــــــــم غــــــــير كثــــــــير

قوله لله أنتم لله في موضع رفع لأنه خبر عن المبتدأ الذي هو أنتم و مثله لله در فلان و لله بلاد فلان و لله أبوك و اللام هاهنا فيها معنى التعجب و المراد بقوله لله أنتم لله سعيكم أو لله عملكم كما قالوا لله درك أي عملك فحذف المضاف و أقيم الضمير المنفصل المضاف إليه مقامه. فإن قلت أ فجاءت هذه اللام بمعنى التعجب في غير لفظ لله قلت لا كما أن تاء القسم لم تأت إلا في اسم الله تعالى. قوله ع أ ما دين يجمعكم ارتفاع دين على أنه فاعل فعل مقدر له أي أ ما يجمعكم دين يجمعكم اللفظ الثاني مفسر للأول كما قدرناه بعد إذا في قوله سبحانه (إِذَا السَّمَاءُ **إِنْشَقَّتْ**) و يجوز أن يكون حمية مبتدأ و الخبر محذوف تقديره أ ما لكم حمية و الحمية الأنفة. و شحذت النصل أحددته. فإن قلت كيف قال إن معاوية لم يكن يعطي جنده و إنه هو ع كان يعطيهم و المشهور أن معاوية كان يمد أصحابه بالأموال و الرغائب قلت إن معاوية لم يكن يعطي جنده على وجه المعونة و العطاء و إنما كان يعطي رؤساء القبائل من اليمن و ساكني الشام الأموال الجليلة يستعبدهم بها و يدعو أولئك

الرؤساء أتباعهم من العرب فيطيعونهم فمنهم من يطيعهم حمية و منهم من يطيعهم لأياد و عوارف من أولئك الرؤساء عندهم و منهم من يطيعهم دينا زعموا للطلب بدم عثمان و لم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل و لا كثير. و أما أمير المؤمنين ع فإنه كان يقسم بين الرؤساء و الأتباع على وجه العطاء و الرزق و لا يرى لشريف على مشروف فضلا فكان من يقعد عنه بهذا الطريق أكثر ممن ينصره و يقوم بأمره و ذلك لأن الرؤساء من أصحابه كانوا يجدون في أنفسهم من ذلك أعني المساواة بينهم و بين الأتباع فيخذلونه ع باطنا و إن أظهروا له النصر و إذا أحس أتباعهم بتخاذلهم و تواكلهم تخاذلوا أيضا و تواكلوا أيضا و لم يجد عليه ص ما أعطى الأتباع من الرزق لأن انتصار الأتباع له و قتالهم دونه لا يتصور وقوعه و الرؤساء متخاذلون فكان يذهب ما يرزقهم ضياعا. فإن قلت فأأي فرق بين المعونة و العطاء. قلت المعونة إلى الجند شيء يسير من المال برسم ترميم أسلحتهم و إصلاح دوابهم و يكون ذلك خارجا عن العطاء المفروض شهرا فشهر و العطاء المفروض شهرا فشهر يكون شيئا له مقدار يصرف في أثمان الأقوات و مئونة العيال و قضاء الديون. و التريكة بيضة النعام تتركها في مجثمها يقول أنتم خلف الإسلام و بقيته كالبيضة التي تتركها النعامة. فإن قلت ما معنى قوله لا يخرج إليكم من أمري رضا فترضونه و لا سخط فتجتمعون عليه قلت معناه أنكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئا سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم بل لا بد لكم من المخالفة و الافتراق عنه

ثم ذكر أن أحب الأشياء إليه أن يلقي الموت و هذه الحال التي ذكرها أبو الطيب فقال:
كفى بك داء أن ترى الموت شافيا و حسب المنايا أن تكن أمانيا
تمنيها لما تمنيت أن ترى صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا
قوله قد دارستكم الكتاب أي درسته عليكم دارست الكتب و تدارستها و أدرستها و درستها
بمعنى و هي من الألفاظ القرآنية. و فاتحتكم الحجاج أي حاكمتمكم بالحاجة و المجادلة و قوله تعالى
(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا) أي احكم و الفتح الحاكم. و عرفتكم ما أنكرتم بصرتكم ما عمي عنكم. و
سوغتكم ما مجتكم يقال مججت الشراب من فمي أي رميت به و شيخ ماج يمج ريقه و لا
يستطيع حبسه من كبره و أحمق ماج أي يسيل لعابه يقول ما كانت عقولكم و أذهانكم تنفر عنه
من الأمور الدينية أوضحته لكم حتى عرفتموه و اعتقدتموه و انطوت قلوبكم عليه و لم يجزم ع
بحصول ذلك لهم لأنه قال لو كان الأعمى يلحظ و النائم يستيقظ أي إني قد فعلت معكم ما
يقتضي حصول الاعتقادات الحقيقية في أذهانكم لو أزلتم عن قلوبكم ما يمنع من حصولها لكم و
المانع المشار إليه هو الهوى و العصبية و الإصرار على اللجاج و محبة نصره عقيدة قد سبقت إلى
القلب و زرعها التعصب

و مشقة مفارقة الأسلاف الذين قد انغرس في النفس تعظيمهم و مالت القلوب إلى تقليدهم
لحسن الظن بهم. ثم قال أقرب يقوم أي ما أقربهم من الجهل كما قال تعالى أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ أَي ما
أسمعهم و أبصرهم. فإن قلت قد كان يجب أن يقول و أقرب يقوم قائدهم معاوية و مؤدبهم ابن
النابة من الجهل فلا يحول بين النكرة الموصوفة و صفتها بفاصل غريب و لم يقل ذلك بل فصل
بين الصفة و الموصوف بأجنبي منهما. قلت قد جاء كثير من ذلك نحو قوله تعالى (وَمِمَّنْ
حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ) في قول من لم يجعل مردوا
صفة أقيمت مقام الموصوف لأنه يجعل مردوا صفة القوم المحذوفين المقدرين بعد الأعراب و قد
حال بين ذلك و بين مردوا قوله وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ. و نحوه قوله (أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ
يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا). فإن قيما حال من الكتاب و قد توسط بين الحال و ذي الحال و لم يجعل
لَهُ عِوَجًا و الحال كالصفة و لأنهم قد أجازوا مررت برجل أيها الناس طويل و النداء أجنبي على أنا
لا نسلم أن قوله من الجهل أجنبي لأنه متعلق بأقرب و الأجنبي ما لا تعلق له بالكلام

١٨٢ و من كلام له ع

وَ قَدْ أَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أَحْوَالِ قَوْمٍ مِنْ جُنْدِ الْكُوفَةِ قَدْ هُمُوا بِاللِّحَاقِ
بِالْخَوَارِجِ وَ كَانُوا عَلَى خَوْفٍ مِنْهُ ع فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ قَالَ لَهُ أَأَمِنُوا فَقَطَّنُوا أَمْ جَبَنُوا فَطَعَنُوا
فَقَالَ الرَّجُلُ بَلْ طَعَنُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ ع بُعْدًا لَهُمْ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الْأَسِنَّةُ
إِلَيْهِمْ وَ صُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَفْلَلَهُمْ
وَ هُوَ عَدَا مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ وَ مُتَخَلِّ عَنْهُمْ فَحَسَبُهُمْ مِنْ أَهْلَدَى وَ ارْتِكَاسُهُمْ فِي الضَّلَالِ وَ الْعَمَى وَ
صَدَّيْهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَ جَمَاحِهِمْ فِي الْبَيِّنَةِ قَدْ ذَكَرْنَا قِصَّةَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِيمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ شَرْحِنَا قِصَّةَ
مِصْقَلَةَ بَنِ هُبَيْرَةَ الشَّيْبَانِي وَ قَطْنِ الرَّجُلِ بِالْمَكَانِ يَقْتَنُ بِالضَّمِّ أَقَامَ بِهِ وَ تَوَطَّنَهُ فَهُوَ قَاطِنٌ وَ الْجَمْعُ
قَطَانٌ وَ قَاطِنَةٌ وَ قَطِينٌ أَيْضًا مِثْلُ غَازٍ وَ غَزِيٍّ وَ عَازِبٌ لِلْكَأَلِ الْبَعِيدِ وَ عَزِيبٌ. وَ طَعَنَ صَارَ الرَّجُلُ
طَعْنًا وَ طَعْنًا وَ قَرِئَ بِهِمَا (يَوْمَ طَعَنَكُمْ) وَ أَطْعَنَهُ سِيرَهُ وَ انْتَصَبَ بَعْدًا عَلَى الْمَصْدَرِ.

و ثمود إذا أردت القبيلة غير مصروف و إذا أردت الحي أو اسم الأب مصروف و يقال إنه
ثمود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح قيل سميت ثمود لقلة مائها من الثمد و هو الماء القليل و
كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز و الشام إلى وادي القرى. و أشرعت الرمح إلى زيد أي سدده
نحوه و شرع الرمح نفسه و صبت السيوف على هاماتهم استعارة من صببت الماء شبه وقع
السيوف و سرعة اعتوارها الرؤوس بصب الماء. و استفلهم الشيطان وجدهم مفلولين فاستزلهم
هكذا فسروه. و يمكن عندي أن يريد أنه وجدهم فلا لا خير فيهم و الفل في الأصل الأرض لا
نبات بها لأنها لم تمطر قال حسان يصف العزى:

و إن التي بالجذع من بطن نخلة و من داتها فل من الخير معزل
أي خال من الخير. و يروى استفزهم أي استخفهم. و الارتكاس في الضلال الرجوع كأنه
جعلهم في تردددهم في طبقات الضلال كالمرتكس الراجع إلى أمر قد كان تخلص منه. و الجماع في
التيه الغلو و الإفراط مستعار من جماع الفرس و هو أن يعتز صاحبه و يغلبه جمح فهو جموح

١٨٣ و من خطبة له ع

رُوي عَنْ نَوْفِ الْبَكَايِيِّ قَالَ خَطَبْنَا بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ ع بِالْكُوفَةِ وَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى
حِجَارَةٍ نَصَبَهَا لَهُ جَعْدَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْمَحْزُومِيَّةُ وَ عَلَيْهِ مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ وَ حِمَائِلُ سَيْفِهِ لَيْفٌ وَ فِي
رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ لَيْفٍ وَ كَانَ جَبِينُهُ تَفْنَهُ بَعِيرٌ فَقَالَ ع الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ وَ عَوَاقِبُ
الْأَمْرِ نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ وَ نَيِّرْ بُرْهَانِهِ وَ نَوَامِي فَضْلِهِ وَ اِمْتِنَانِهِ حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً وَ
لِشُكْرِهِ أَدَاءً وَ إِلَى ثَوَابِهِ مُقَرَّبًا وَ لِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا وَ نَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ
وَائِقٍ بِدَفْعِهِ مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَ الْقَوْلِ وَ نُؤْمِنُ بِهِ إِيْمَانًا مَنْ رَجَاهُ مُوقِنًا وَ أَنَابَ
إِلَيْهِ مُؤْمِنًا وَ خَنَعَ لَهُ مُذْعِنًا وَ أَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّدًا وَ عَظَّمَهُ مُمَجِّدًا وَ لَادَ بِهِ رَاغِبًا مُجْتَهِدًا

نوف البكالي

قال الجوهرى في الصحاح نوف البكالي بفتح الباء كان حاجب علي ع ثم قال و قال ثعلب
هو منسوب إلى بكالة قبيلة.

و قال القطب الراوندي في شرح نهج البلاغة بكال و بكيل شيء واحد و هو اسم حي من همدان و بكيل أكثر قال الكميت
فقد شركت فيه بكيل و أرحب

و الصواب غير ما قالاه و إنما بنو بكال بكسر الباء حي من حمير منهم هذا الشخص هو
نوف بن فضالة صاحب علي ع و الرواية الصحيحة الكسر لأن نوف بن فضالة بكالي بالكسر
من حمير و قد ذكر ابن الكلبي نسب بني بكال الحميريين فقال هو بكال بن دهمي بن غوث بن
سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن
عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير

نسب جعدة بن هبيرة

و أما جعدة بن هبيرة فهو ابن أخت أمير المؤمنين ع أمه أم هانئ بنت أبي طالب بن عبد
المطلب بن هاشم و أبوه هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن
مرة بن كعب بن لؤي بن غالب و كان جعدة فارساً شجاعاً فقيهاً و ولي خراسان لأمر المؤمنين
ع و هو من الصحابة الذين أدركوا رسول الله ص يوم الفتح مع أمه أم هانئ بنت أبي طالب و
هرب أبو هبيرة بن أبي وهب ذلك اليوم هو و عبد الله بن الزبير إلى نجران.

و روى أهل الحديث أن أم هانئ كانت يوم الفتح في بيتها فدخل عليها هبيرة بن أبي وهب بعلمها و رجل من بني عمه هاربن من علي ع و هو يتبعهما و بيده السيف فقامت أم هانئ في وجهه دونهما و قالت ما تريده منهما و لم تكن رأيته من ثماني سنين فدفع في صدرها فلم تنزل عن موضعها و قالت أ تدخل يا علي بيتي و تهتك حرمتي و تقتل بعلي و لا تستحيي مني بعد ثماني سنين فقال إن رسول الله ص أهدر دمهما فلا بد أن أقتلهما فقبضت على يده التي فيها السيف فدخلا بيتا ثم خرجا منه إلى غيره ففاته

و جاءت أم هانئ إلى رسول الله ص فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين و فاطمة ابنته تستره بثوبها فوقف حتى أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ثم انصرف فقال مرحبا و أهلا بأم هانئ ما جاء بك فأخبرته خبر بعلمها و ابن عمه و دخول علي ع بيتها بالسيف فجاء علي ع و رسول الله ص يضحك فقال له ما صنعت بأم هانئ فقال سلها يا رسول الله ما صنعت بي و الذي بعثك بالحق لقد قبضت على يدي و فيها السيف فما استطعت أن أخلصها إلا بعد لأي و فاتني الرجلان فقال ص لو ولد أبو طالب الناس كلهم لكانوا شجعانا قد أجزنا من أجارت أم هانئ و أمنا من أمنت فلا سبيل لك عليهما. فأما هبيرة فلم يرجع و أما الرجل الآخر فرجع فلم يعرض له. قالوا و أقام هبيرة بن أبي وهب بنجران حتى مات بها كافرا و روى له محمد بن إسحاق في كتاب المغازي شعرا أوله:

أ شأقتك هند أم أذاك سؤلها كذاك النوى أسبابها و انفتالها

يذكر فيه أم هانئ و إسلامها و أنه مهاجر لها إذ صبت إلى الإسلام و من جملته

فإن كنت قد تابعت دين مُحَمَّدٍ و قطعت الأرحام منك حبالها
فكوني على أعلى سحوق بهضبة ململمة غبراء يبس قلالها
و قال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب ولدت أم هانئ لهيرة بن أبي وهب بنين أربعة جعدة
و عمرا و هانئا و يوسف و قال و جعدة الذي يقول:
أي من بني مخزوم إن كنت سائلا و من هاشم أمي خير قبيل
فمن ذا الذي ينأى علي بخاله كخالي علي ذي الندى و عقيل
المدرعة الجبة و تدرع لبسها و ربما قالوا تدرع. و ثفنة البعير واحدة ثفنته و هو ما يقع على
الأرض من أعضائه إذا استناخ فيغلظ و يكتنف كالركبتين و غيرها و يقال ذو الثفنت الثلاث لعلي
بن الحسين و علي بن عبد الله بن العباس ع و لعبد الله بن وهب الراسي رئيس الخوارج لأن طول
السجود كان قد أثر في ثفنتهم قال دعبل

ديار علي و الحسين و جعفر و حمزة و السجاد ذي الثفنيات
و مصائر الأمور جمع مصير و هو مصدر صار إلى كذا و معناه المرجع قال تعالى (وَإِلَى اللَّهِ
الْمَصِيرُ) فأما المصدر من صار الشيء كذا فمصير و صيرورة و القياس في مصدر صار إليه أي
رجع مصاراً كمعاش و إنما جمع المصدر هاهنا لأن الخلائق يرجعون إلى الله تعالى في أحوال مختلفة
في الدنيا و في الدار الآخرة فجمع المصدر و إن كان يقع بلفظه على القليل و الكثير لاختلاف
وجوهه كقوله تعالى (وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا). و عواقب الأمر جمع عاقبة و هي آخر الشيء. ثم
قسم الحمد فجعله على ثلاثة أقسام أحدها الحمد على عظيم إحسانه و هو أصول نعمه تعالى
كالحياة و القدرة و الشهوة و غيرها مما لا يدخل جنسه تحت مقدور القادر. و ثانيها الحمد على
نير برهانه و هو ما نصبه في العقول من العلوم البديهة المفضية إلى العلوم النظرية بتوحيده و
عدله. و ثالثها الحمد على أرزاقه النامية أي الزائدة و ما يجري مجراها من إطالة الأعمار و كثرة
الأرزاق و سائر ضروب الإحسان الداخلة في هذا القسم. ثم بالغ في الحمد حمداً يكون لحقه قضاء
و لشكره أداء و ذلك لأن الحمد و الشكر و لو بلغ

أقصى غاياته لم يصل إلى أن يكون قاضيا لحق الله تعالى و لا مؤديا لشكره و لكنه قال ذلك على سبيل المبالغة. ثم قال و إلى ثوابه مقربا و لحسن مزيده موجبا و ذلك لأن الشكر يوجب الثواب و المزيّد قال الله تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) أي أثبتكم و قال (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ). ثم شرع في الاستعانة بالله ففصلها أحسن تفصيل فذكر أنه يستعين به استعانة راج لفضله في الآخرة مؤمل لنفعه في الدنيا واثق بدفعه المضار عنه و ذلك لأنه أراد أن يحتوي على وجوه ما يستعان به تعالى لأجله فذكر الأمور الإيجابية و أعقبها بالأمور السلبية فالأولى جلب المنافع و الثانية دفع المضار. و الطول الإفضال و الإذعان الانقياد و الطاعة. و أناب إليه أقبل و تاب و خنع خضع و المصدر الخنوع و لازم له لجأ إليه : لَمْ يُولَدْ سُبحَانَهُ فَيَكُونُ فِي الْعِزِّ مُشَارِكاً وَ لَمْ يَلِدْ فَيَكُونْ مَوْزُوناً هَالِكاً وَ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَ لَمْ يَزَلْ وَ لَمْ يَتَعَاوَزْهُ زِيَادَةٌ وَ لَمْ يَنْقُصْ بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عِلْمَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَقِنِ وَ الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوْطَدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُدْعِنَاتٍ غَيْرِ مُتَلَكِّمَاتٍ وَ لَمْ يَبْطُطْنَ وَ لَوْ لَا إِقْرَاهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَ إِدْعَانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ

وَ لَا مَسْكَنًا لِمَلَأْتَكْتِهْ وَ لَا مَصْعَدًا لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ نَفَى عَ أَنْ يَكُونَ
البارئ سبحانه مولودا فيكون له شريك في العز و الإلهية و هو أبوه الذي ولده و إنما قال ذلك
جريا على عادة ملوك البشر فإن الأكثر أن الملك يكون ابن ملك قبله و نفى أن يكون له ولد
جريا أيضا على عادة البشر في أن كل والد في الأكثر فإنه يهلك قبل هلاك الولد و يرثه الولد و
هذا النمط من الاحتجاج يسمى خطابة و هو نافع في مواجهة العرب به و أراد من الاحتجاج
إثبات العقيدة فتارة تثبت في نفوس العلماء بالبرهان و تارة تثبت في نفوس العوام بالخطابة و
الجدل. ثم نفى أن يتقدمه وقت أو زمان و الوقت هو الزمان و إنما خالف بين اللفظين و أتى
بحرف العطف كقوله تعالى (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجًا). و نفى أن يتعاوره أي تختلف
عليه زيادة أو نقصان يقال عاورت زيدا الضرب أي فعلت به من الضرب مثل ما فعل بي و
اعتوروا الشيء أي تداولوه فيما بينهم و كذلك تعوروه و تعاوروه و إنما ظهرت الواو في اعتوروا لأنه
في معنى تعاوروا فبني عليه و لو لم يكن في معناه لاعتلت كما قالوا اجتوروا لما كان في معنى تجاوروا
التي لا بد من صحة الواو فيها لسكون الألف قبلها و اعتورت الرياح رسم الدار اختلفت
عليه. فإن قلت هذا يقتضي أن يقول و لم يتعاوره زيادة و نقصان لأن التعاور يستدعي الضدين
معا و لا ينبغي أن يقول و لا نقصان كما لا يجوز أن تقول لم يختلف زيد و لا عمرو

قلت لما كانت مراتب الزيادة مختلفة جاز أن يقال لا يعتوره الزيادة فكذلك القول في جانب النقصان و جرى كل واحد من النوعين مجرى أشياء متنافية تختلف على الموضع الموصوف بها. قوله ع موطدات أي م مهدات مثبتات. و العمد جمع عماد نحو إهاب و أهب و إدام و آدم و هو على خلاف القياس و منه قوله تعالى (فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) و قوله تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) و السند ما يستند إليه. ثم قال دعاهن فأجبن طائعات هذا من باب المجاز و التوسع لأن الجماد لا يدعى و أما من قال إن السماوات أحياء ناطقة فإنه لم يجعلهن مكلفات ليقال و لو لا إقرارهن له بالربوبية لما فعل كذا بل يقول ذلك على وجه آخر و لكن لغة العرب تنطق بمثل هذا المجاز نحو قول الراجز:

امتألاً الحوض و قال قطني مهلاً رويدا قد ملأت بطني
و منه قوله تعالى (إِنِّي طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ). و منه قول مكاتب لبني منقر التميميين كان قد ظلع بمكاتبته فأتى قبر غالب بن صعصعة فاستجار به و أخذ منه حصيات فشدهن في عمامته ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره و قال إني قد قلت شعرا قال هاته فأنشده

بقبر ابن ليلى غالب عذت بعد ما خشيت الردى أو أن أرد على قسر
بقبر امرئ يقري المئين عظامه و لم يك إلا غالباً ميت يقري
فقال لي استقدم أمامك إنما فكاكك أن تلقى الفرزدق بالمصر
فقال ما اسمك فقال لهذم قال يا لهذم حكمتك مسمطاً قال ناقة كوماً سوداء الحدقة قال يا
جارية اطرحي لنا حبلاً ثم قال يا لهذم اخرج بنا إلى المرید فألقه في عنق ما شئت من إبل الناس
فتخير لهذم على عينه ناقة و رمى بالحبل في عنقها و جاء صاحبها فقال له الفرزدق اغد علي
أوفك ثمنا فجعل لهذم يقودها و الفرزدق يسوقها حتى أخرجها من البيوت إلى الصحراء فصاح به
الفرزدق يا لهذم قبح الله أخسرنا فخير الشاعر عن القبر بقوله فقال لي استقدم أمامك و القبر و
الميت الذي فيه لا يخبران و لكن العرب و أهل الحكمة من العجم يجعلون كل دليل قولاً و جواباً
لا ترى إلى قول زهير

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

و إنما كلامها عنده أن تبين ما يرى من الآثار فيها عن قدم العهد بأهلها. و من كلام بعض
الحكماء هلاً و قفت على تلك الجنان و الحيطان فقلت أيتها الجنان أين من شق أنهارك و غرس
أشجارك و جنى ثمارك فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً. و قال النعمان بن المنذر و معه عدي
بن زيد في ظل شجرات مونقات يشرب

فقال عدي أبيت اللعن و أراد أن يعظه أ تدري ما تقول هذه الشجرات قال ما تقول قال:
رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
ثم أضحوا عصف الدهر بهم و كذلك الدهر يودي بالرجال
فتنغص النعمان يومه ذلك.و المذعن المنقاد المطيع و المتلكئ المتوقف و الكلم الطيب شهادة
أن لا إله إلا الله و أن محمدًا ص رسوله و العمل الصالح أداء الواجبات و النوافل و اللفظات من
القرآن العزيز.و المصعد موضع الصعود و لا شبهة أن السماء أشرف من الأرض على رأي المليون
و على رأي الحكماء أما أهل الملة فالأن السماء مصعد الأعمال الصالحة و محل الأنوار و مكان
الملائكة و فيها العرش و الكرسي و الكواكب المدبرات أمرا و أما الحكماء فلاأمور أخرى تقتضيها
أصولهم : جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْخَيْرَانِ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءُ نُورِهَا
إِذْهُمَا سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَ لَا اسْتَطَاعَتْ جَلَايِبُ سَوَادِ الْخَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي
السَّمَاوَاتِ مِنْ تَأَلُّلِ نُورِ الْقَمَرِ فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ

عَسَقٍ دَاجٍ وَ لَا لَيْلٍ سَاجٍ فِي بَقَاعِ الْأَرْضَيْنِ الْمُتَطَاطَاتِ وَ لَا فِي يَفَاعِ السُّفَعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ وَ مَا يَتَجَلَّجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ وَ مَا تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْعَمَامِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَاطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَ إِنْ حِطَّ السَّمَاءُ وَ يَعْلَمُ مَسْقَاطُ الْقَطَرِ وَ مَقَرُّهَا وَ مَسْحَبُ الذَّرَّةِ وَ مَجَرُّهَا وَ مَا يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا وَ مَا تَحْمِلُ مِنَ الْأُنْثَى فِي بَطْنِهَا أَعْلَامًا أَيْ يَسْتَدِلُّ بِهَا وَ الْفَجَاجُ جَمْعُ فَجٍ وَ هُوَ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ. ثُمَّ قَالَ إِنَّ ادْهَمَامَ سَوَادِ اللَّيْلِ أَيْ شِدَّةَ ظُلُمَتِهِ لَمْ يَمْنَعِ الْكَوَاكِبَ مِنَ الْإِضَاءَةِ وَ كَذَلِكَ أَيْضًا لَمْ يَمْنَعِ ظِلَامُ اللَّيْلِ الْقَمَرَ مِنْ تَلَأُلُؤِ نَوْرِهِ وَ إِنَّمَا خَصَّ الْقَمَرَ بِالذِّكْرِ وَ إِنْ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ الْكَوَاكِبِ لَشَرْفِهِ بِمَا يَظْهَرُ لِلْأَبْصَارِ مِنْ عَظَمِ حَجْمِهِ وَ شِدَّةِ إِضَاءَتِهِ فَصَارَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَ تَخْلٌ وَ رُمَانٌ) وَ قَدْ رَوَى بَعْضُ الرُّوَاةِ ادْهَمَامًا بِالنَّصْبِ وَ جَعَلَهُ مَفْعُولًا وَ ضَوْءَ نَوْرِهَا بِالرَّفْعِ وَ جَعَلَهُ فَاعِلًا وَ هَذِهِ الرُّوَايَةُ أَحْسَنُ فِي صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ لِمَكَانِ الْإِزْدَوَاجِ أَيْ لَا الْقَمَرَ وَ لَا الْكَوَاكِبَ تَمْنَعُ اللَّيْلُ مِنَ الظُّلْمَةِ وَ لَا اللَّيْلُ يَمْنَعُ الْكَوَاكِبَ وَ الْقَمَرَ مِنَ الْإِضَاءَةِ. وَ السَّجْفُ جَمْعُ سَجْفٍ وَ هُوَ السِّتْرُ وَ يَجُوزُ فَتَحُ السِّينِ. وَ شَاعَ تَفَرُّقُ وَ التَّلَأْلُؤُ اللَّمْعَانِ وَ الْجَلَايِبُ الثِّيَابِ وَ الْغَسَقُ الظُّلْمَةُ وَ السَّاجِي السَّاكِنُ وَ الدَّاجِي الْمَظْلَمُ وَ الْمُتَطَاطَى الْمُنْخَفِضُ وَ السُّفَعُ الْمُتَجَاوِرَاتُ هَاهُنَا الْجِبَالُ وَ سَمَاهَا سَفْعًا لِأَنَّ السَّفْعَةَ سَوَادٌ مُشْرَبٌ بِحُمْرَةٍ وَ كَذَلِكَ لَوْهَا فِي الْأَكْثَرِ.

و اليفاع الأرض المرتفعة و التجلجل صوت الرعد و ما تلاشت عنه بروق الغمام هذه الكلمة أهمل بناءها كثير من أئمة اللغة و هي صحيحة و قد جاءت و وردت قال ابن الأعرابي لشا الرجل إذا اتضع و خس بعد رفعة و إذا صح أصلها صح استعمال الناس تلاشى الشيء بمعنى اضمحل. و قال القطب الراوندي تلاشى مركب من لا شيء و لم يقف على أصل الكلمة و قد ظهر الآن أن معنى كلامه ع أنه سبحانه يعلم ما يصوت به الرعد و يعلم ما يضمحل عنه البرق. فإن قلت و هل يقصد الرعد بجلجلته معنى معقولا ليقال إن البارئ يعلمه ثم ما المراد بكونه عالما بما يضمحل البرق عنه. قلت قد يكون تعالى يحدث في الرعد جلجلة أي صوتا ليهلك به قوما أو لينفع به قوما فعلمه بما تتضمنه تلك الجلجلة هو معنى قولنا يعلم ما يصوت به الرعد و لا ريب أن البرق يلمع فيضيء أقطارا مخصوصة ثم يتلاشى عنها فالبارئ سبحانه عالم بتلك الأقطار التي يتلاشى البرق عنها. فإن قلت هو سبحانه عالم بما يضيئه البرق و بما لا يضيئه فلما ذا خص بالعالمية ما يتلاشى عنه البرق. قلت لأن علمه بما ليس بمضيء بالبرق أعجب و أغرب لأن ما يضيئه البرق يمكن أن يعلمه أولو الأبصار الصحيحة فأراد ع أن يشرح من صفاته سبحانه ما هو بخلاف المعتاد بين البشر ليكون إعظام السامعين له سبحانه أتم و أكمل. و العواصف الرياح الشديدة و أضافها إلى الأنواء لأن أكثر ما يكون عصفانها في الأنواء و هي جمع نوء و هو سقوط النجم من منازل القمر الثمانية و العشرين في المغرب

مع الفجر و طلوع رقبه من المشرق مقابلا له من ساعته و مدة النوء ثلاثة عشر يوما إلا الجبهة
فإن لها أربعة عشر يوما. قال أبو عبيد و لم يسمع في النوء أنه المسقوط إلا في هذا الموضع و كانت
العرب تضيف الرياح و الأمطار و الحر و البرد إلى الساقط منها. و قال الأصمعي بل إلى الطالع
في سلطانه فتقول مطرنا بنوء كذا و كذا و نهي النبي ص عن ذلك و الجمع أنواء و نوءان أيضا
مثل بطن و بطنان و عبد و عبدان قال حسان بن ثابت:

و يشرب تعلم أنا بـها إذا قحط القطر نوءانها

و الانهطال الانصباب و مسقط القطرة من المطر موضع سقوطها و مقرها موضع قرارها و
مسحب الذرة الصغيرة من النمل و مجرها موضع سحبها و جرها. و هذا الفصل من فصيح الكلام
و نادره و يتضمن من توحيد الله تعالى و تمجيده و الثناء عليه ما يشهد لنفسه : وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الْكَاثِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشٌ أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ لَا يُدْرِكُ بِهِمْ وَ لَا يُقَدَّرُ
بِقَهْمٍ وَ لَا يَشْعَلُهُ سَائِلٌ وَ لَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ وَ لَا يَنْظُرُ بَعَيْنٌ وَ لَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ وَ لَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ وَ
لَا يُخْلَقُ بِعِلَاجٍ وَ لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ وَ لَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا وَ أَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ
عَظِيمًا بِلَا جَوَارِحٍ وَ لَا أَدْوَاتٍ وَ لَا نُطْقٍ وَ لَا لَهَوَاتٍ بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لَوْصِفَ
رَبَّكَ فَصِفْ

جَبْرِيلَ وَ مِيكَائِيلَ وَ جُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي حُجَرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجَجِينَ مُتَوَهِّةً عُقُولُهُمْ أَنْ
يَحْدُوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ وَ إِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ دُؤُوْهُ أَهْيَاتِ وَ الْأَدْوَاتِ وَ مَنْ يَنْقُضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ
حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ وَ أَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ لَيْسَ يَعْنِي بِالْكَائِنِ هَاهُنَا
مَا يَعْنِيهِ الْحُكَمَاءُ وَ الْمُتَكَلِّمُونَ بَلْ مُرَادُهُ الْمَوْجُودُ أَيُّ هُوَ الْمَوْجُودُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الْكَرْسِيُّ وَ الْعَرْشُ وَ
غَيْرُهُمَا وَ الْأَوَائِلُ يَزْعُمُونَ أَنْ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ سَمَاءٌ ثَامِنَةٌ وَ سَمَاءٌ تَاسِعَةٌ وَ يَقُولُونَ إِنَّ الثَّامِنَةَ
هِيَ الْكَرْسِيُّ وَ إِنَّ التَّاسِعَةَ هِيَ الْعَرْشُ. قَوْلُهُ ع لَا يَدْرِكُ بَوْهَمُ الْوَهْمِ هَاهُنَا الْفِكْرَةُ وَ التَّوْهَمُ. وَ لَا
يَقْدِرُ بِفَهْمِ أَيُّ لَا تَسْتَطِيعُ الْأَفْهَامُ أَنْ تَقْدِرَهُ وَ تَحْدَهُ. وَ لَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ كَمَا يَشْغُلُ السُّؤَالُ مَنْ مِنْ
يَسْأَلُونَهُ. وَ لَا يَنْقُصُهُ الْعَطَاءُ كَمَا يَنْقُصُ الْعَطَاءُ خَزَائِنَ الْمُلُوكِ. وَ لَا يَبْصُرُ بِجَارِحَةٍ وَ لَا يَحْدُ بِأَيْنٍ وَ
لَفْظَةُ أَيْنَ فِي الْأَصْلِ مَبْنِيَةٌ عَلَى الْفَتْحِ فَإِذَا نَكَرَتْهَا صَارَتْ اسْمًا مَتَمَكَّنًا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

لَيْتَ شَعْرِي وَ أَيْنَ مَنِي لَيْتَ إِنَّ لَيْتَا وَ إِنَّ لَوَا عَنَاءَ
وَ إِنَّ شَيْءَ قُلْتُ إِنَّهُ تَكَلَّمَ بِالْأَصْطِلَاحِ الْحَكْمِيِّ وَ الْأَيْنَ عِنْدَهُمْ حَصُولُ الْجِسْمِ فِي الْمَكَانِ وَ
هُوَ أَحَدُ الْمَقُولَاتِ الْعَشْرِ.

قوله ع و لا يوصف بالأزواج أي صفات الأزواج و هي الأصناف قال سبحانه (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ). قوله و لا يخلق بعلاج أي لا يحتاج في إيجاد المخلوقات إلى معالجة و مزاوله. قوله و كلم موسى تكليما من الألفاظ القرآنية و المراد هاهنا من ذكر المصدر تأكيد الأمر و إزالة لبس عساه يصلح للسامع فيعتقد أنه أراد المجاز و أنه لم يكن كلام على الحقيقة. قوله و أراه من آياته عظيما ليس يريد به الآيات الخارجة عن التكليم كانشقاق البحر و قلب العصا لأنه يكون بإدخال ذلك بين قوله تكليما و قوله بلا جوارح و لا أدوات و لا نطق و لا لهوات مستهجننا و إنما يريد أنه أراد بتكليمه إياه عظيما من آياته و ذلك أنه كان يسمع الصوت من جهاته الست ليس على حد سماع كلام البشر من جهة مخصوصة و له دوي و صلصلة كوقع السلاسل العظيمة على الحصى الأصم. فإن قلت أ تقول إن الكلام حل أجساما مختلفة من الجهات الست. قلت لا و إنما حل الشجرة فقط و كان يسمع من كل جهة و الدليل على حلوله في الشجرة قوله تعالى (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى) فلا يخلو إما أن يكون النداء حل الشجرة أو المنادي حلها و الثاني باطل فثبت الأول. ثم قال ع لمن يتكلف أن يصف ربه إن كنت صادقا أنك قد وصلت إلى

معرفة صفته فصف لنا الملائكة فإن معرفة ذات الملك أهون من معرفة ذات الأول سبحانه. و
حجرات القدس جمع حجرة و مرجحين مائلين إلى جهة تحت خضوعا لجلال الباري سبحانه
ارجحن الحجر إذا مال هاويا متولئة عقولهم أي حائرة ثم قال إنما يدرك بالصفات و يعرف كنه ما
كان ذا هيئة و أداة و جارحة و ما ينقضي و يفنى و يتطرق إليه العدم و واجب الوجود سبحانه
بخلاف ذلك. و تحت قوله أضاء بنوره كل ظلام إلى آخر الفصل معنى دقيق و سر خفي و هو أن
كل رذيلة في الخلق البشري مع معرفته بالأدلة البرهانية غير مؤثرة و لا قاذحة في جلالة المقام الذي
قد بلغ إليه و ذلك نحو أن يكون العارف بخيلا أو جباناً أو حريصاً أو نحو ذلك و كل فضيلة في
الخلق البشري مع الجهل به سبحانه فليست بفضيلة في الحقيقة و لا معتد بها لأن نقيصة الجهل
به تكسف تلك الأنوار و تحقق فضلها و ذلك نحو أن يكون الجاهل به سبحانه جواداً أو شجاعاً
أو عفيفاً أو نحو ذلك و هذا يطابق ما يقوله الأوائل من أن العارف المذنب يشقى بعد الموت
قليلاً ثم يعود إلى النعيم السرمدى و أن الجاهل ذا العبادة و الإحسان يشقى بعد الموت شقاء
مؤبداً و مذهب الخلف من مرجئة الإسلام يناقض هذه اللفظات و يقال إنه مذهب أبي حنيفة
رحمته الله و يمكن تأويلها على مذهب أصحابنا بأن يقال كل ظلام من المعاصي الصغائر فإنه ينجلي
بضياء معرفته و طاعته و كل طاعة يفعلها المكلف مع الكفر به سبحانه فإنها غير نافعة و لا
موجبة ثواباً و يكون هذا التأويل من باب صرف اللفظ عن عمومته إلى خصوصه

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمْ الرِّيشَ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ الْمَعَاشَ فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلْمًا أَوْ لِدْفَعِ الْمَوْتَ سَبِيلًا لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ ع الَّذِي سُحِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ التُّبُوءَةِ وَ عَظِيمِ الزُّلْفَةِ فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ وَ اسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ رَمَتْهُ قَيْسِي الْفَنَاءِ بِنَبَالِ الْمَوْتِ وَ أَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً وَ الْمَسَاكِينُ مُعْطَلَّةٌ وَ وَرَثَتُهَا قَوْمٌ آخَرُونَ وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَ أبنَاءُ الْعَمَالِقَةِ أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَ أبنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرِّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيَّيْنَ وَ أَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ وَ أَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجِيُوشِ وَ هَزَمُوا الْأَلُوفَ بِالْأَلُوفِ وَ عَسَكُرُوا الْعَسَاكِرَ وَ مَدَّنُوا الْمَدَائِنَ الرِّيشَ اللِّبَاسَ وَ أَسْبَغَ أَوْسَعَ وَ إِنَّمَا ضَرَبَ الْمِثْلَ بِسُلَيْمَانَ ع لِأَنَّهُ كَانَ مَلِكُ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ وَ لَمْ يَحْصِلْ لغيره ذَلِكَ وَ مِنْ النَّاسِ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا لِأَنَّهُ الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمْ يَتَعَدَّ مَلِكُهُ حَدُودَ الشَّامِ بَلْ بَعْضُ الشَّامِ وَ يَنْكُرُونَ حَدِيثَ الْجِنِّ وَ الطَّيْرِ وَ الرِّيحِ وَ يَحْمِلُونَ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ وَ تَأْوِيلَاتٍ عَقْلِيَّةٍ مَعْنَوِيَّةٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهَا. وَ الزُّلْفَةُ الْقَرَبُ وَ الطَّعْمَةُ بَضْمُ الطَّاءِ الْمَأْكَلَةُ يَقَالُ قَدْ جَعَلْتَ هَذِهِ الضَّيْعَةَ طَعْمَةً لَزَيْدٍ. وَ الْقَيْسِي جَمْعُ قَوْسٍ وَ أَصْلُهَا قَوْوسٌ عَلَى فَعُولٍ كَضَرَبَ وَ ضَرُوبٍ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدَّمُوا

اللام فقالوا قسو على فلوع ثم قلبت الواو ياء و كسروا القاف كما كسروا عين عصي فصارت قسي

نسب العمالقة

و العمالقة أولاد لاوذ إرم بن سام بن نوح كان الملك باليمن و الحجاز و ما تاخم ذلك من الأقاليم فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام و منهم طسم بن لاوذ أخوه. و منهم جديس بن لاوذ أخوها و كان العز و الملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم فلما ملكهم عملاق بن طسم بغى و أكثر الفساد في الأرض حتى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بعلها و إن كانت بكرًا افتضها قبل وصولها إلى البعل ففعل ذلك بامرأة من جديس يقال لها غفيرة بنت غفار فخرجت إلى قومها و هي تقول:

لا أحد أذل من جديس أ هكذا يفعل بالعروس
فغضب لها أخوها الأسود بن غفار و تابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم و أهل بيته فصنع الأسود طعاما و دعا عملاق الملك إليه ثم وثب به و بطسم فأتى على رؤسائهم و نجا منهم رياح بن مر فصار إلى ذي جيشان بن تبع الحميري ملك اليمن فاستغاث به و استنجده على جديس فسار ذو جيشان في حمير فأتى بلاد جو و هي قصبة اليمامة فاستأصل جديسا كلها و أخرج اليمامة فلم يبق لجديس باقية و لا لطسم إلا اليسير منهم. ثم ملك بعد طسم و جديس وبار بن أميم بن لاوذ بن إرم فسار بولده و أهله فنزل بأرض وبار و هي المعروفة الآن برمل عاجل فبغوا في الأرض حيناً حتى أفناهم الله

ثم ملك الأرض بعد وبار عبد ضخم بن أثيف بن لاوذ فنزلوا بالطائف حينئذ ثم بادوا

نسب عاد و ثمود

و ممن يعد مع العمالة عاد و ثمود فأما عاد فهو عاد بن عويس بن إرم بن سام بن نوح كان يعبد القمر و يقال إنه رأى من صلبه أولاد أولاد أولاده أربعة آلاف و إنه نكح ألف جارية و كانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن و هي من شحر عمان إلى حضرموت و من أولاده شداد بن عاد صاحب المدينة المذكورة. و أما ثمود فهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح و كانت دياره بين الشام و الحجاز إلى ساحل نهر الحبشة

نسب الفراعنة

قوله ع أين الفراعنة و أبناء الفراعنة جمع فرعون و هم ملوك مصر فمنهم الوليد بن الريان فرعون يوسف و منهم الوليد بن مصعب فرعون موسى و منهم فرعون بن الأعرج الذي غزا بني إسرائيل و أخرج بيت المقدس

نسب أصحاب الرس

قوله ع أين أصحاب مدائن الرس قيل إنهم أصحاب شعيب

النبي ص و كانوا عبدة أصنام و لهم مواش و آبار يسقون منها. و الرس بئر عظيمة جدا انخسفت بهم و هم حولها فهلكوا و خسفت بأرضهم كلها و ديارهم و قيل الرس قرية بفلج اليمامة كان بها قوم من بقايا ثمود بغوا فأهلكوا. و قيل قوم من العرب القديمة بين الشام و الحجاز و كانت العنقاء تحتطف صبيانهم فتقتلهم فدعوا الله أن ينقذهم منها فبعث إليهم حنظلة بن صفوان فدعاهم إلى الدين على أن يقتل العنقاء فشارطوه على ذلك فدعا عليها فأصابتها الصاعقة فلم يفوا له و قتلوه فأهلكوا. و قيل هم أصحاب الأخدود و الرس هو الأخدود و قيل الرس أرض بأنطاكية قتل فيها حبيب النجار. و قيل بل كذب أهلها نبينهم و رسوه في بئر أي رموه فيها. و قيل إن الرس نهر في إقليم الباب و الأبواب مبدؤه من مدينة طراز و ينتهي إلى نهر الكر فيختلط به حتى يصب في بحر الخزر كان هناك ملوك أولو بأس و قدرة فأهلكهم الله ببيغهم : مِنْهَا قَدْ لَبَسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا وَ أَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبَارِهَا مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَ الْمَعْرِفَةِ بِهَا وَ التَّفَرُّغِ لَهَا فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّةٌ الَّتِي يَطْلُبُهَا وَ حَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ وَ ضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنْبِهِ وَ أَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجَزَائِهِ بَقِيَّةً مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ خَلِيفَةً مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ

هذا الكلام فسرهُ كل طائفة على حسب اعتقادها فالشيعة الإمامية تزعم أن المراد به المهدي المنتظر عندهم و الصوفية يزعمون أنه يعني به ولي الله في الأرض و عندهم أن الدنيا لا تخلو عن الأبدال و هم الأربعون و عن الأوتاد و هم سبعة و عن القطب و هو واحد فإذا مات القطب صار أحد السبعة قطبا عوضه و صار أحد الأربعين وتدا عوض الوتد و صار بعض الأولياء الذين يصطفاهم الله تعالى أبدالاً عوض ذلك البدل. و أصحابنا يزعمون أن الله تعالى لا يخلّي الأمة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدل و التوحيد و أن الإجماع إنما يكون حجة باعتبار أقوال أولئك العلماء لكنه لما تعذرت معرفتهم بأعيانهم اعتبر إجماع سائر العلماء و إنما الأصل قول أولئك. قالوا و كلام أمير المؤمنين ع ليس يشير فيه إلى جماعة أولئك العلماء من حيث هم جماعة و لكنه يصف حال كل واحد منهم فيقول من صفته كذا و من صفته كذا. و الفلاسفة يزعمون أن مراده ع بهذا الكلام العارف و لهم في العرفان و صفات أربابه كلام يعرفه من له أنس بأقوالهم و ليس يبعد عندي أن يريد به القائم من آل مُحمَّد ص في آخر الوقت إذا خلقه الله تعالى و إن لم يكن الآن موجودا فليس في الكلام ما يدل على وجوده الآن و قد وقع اتفاق الفرق من المسلمين أجمعين على أن الدنيا و التكليف لا ينقضي إلا عليه. قوله ع قد لبس للحكمة جنتها الجنة ما يستتر به من السلاح كالدرع و نحوها و لبس جنة الحكمة قمع النفس عن المشتبهات و قطع علائق النفس عن

المحسوسات فإن ذلك مانع للنفس عن أن يصيبها سهام الهوى كما تمنع الدرع الدارع عن أن يصيبه سهام الرماية. ثم عاد إلى صفة هذا الشخص فقال و أخذ بجميع أدبها من الإقبال عليها أي شدة الحرص و الهمة. ثم قال و المعرفة بما أي و المعرفة بشرفها و نفاستها. ثم قال و التفرغ لها لأن الذهن متى وجهته نحو معلومين تخط و فسد و إنما يدرك الحكمة بتخلية السر من كل ما مر سواها. قال فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها هذا مثل قوله ع الحكمة ضالة المؤمن و من كلام الحكماء لا يمنعك من الانتفاع بالحكمة حقارة من وجدتها عنده كما لا يمنعك خبث تراب المعدن من التقاط الذهب. و وجدت بخط أبي مُحمَّد عبد الله بن أحمد الخشاب رحمته الله في تعاليق مسودة أبياتا للعطوي و هي:

قد رأينا الغزال و الغصن و النجمين	شمس الضحى و بدر التمام
فو حق البيان يعضده البرهان	في مآقط شديد الخصام
ما رأينا سوى المليحة شيئا	جمع الحسن كله في نظام
هي تجري مجرى الأصالة في الرأي	و مجرى الأرواح في الأجسام

و قد كتب ابن الخشاب بخطه تحت المليحة ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة قوله ع و حاجته التي يسأل عنها هو مثل قوله ضالته التي يطلبها. ثم قال هو مغترب إذا اغترب الإسلام يقول هذا الشخص يخفي نفسه و يحملها

إذا اغترب الإسلام و اغتراب الإسلام أن يظهر الفسق و الجور على الصلاح و العدل قال ع
بدأ الإسلام غريبا و سيعود كما بدأ. قال و ضرب بعسيب ذنبه و ألصق الأرض بجرائنه هذا من
تمام قوله إذا اغترب الإسلام أي إذا صار الإسلام غريبا مقهورا و صار الإسلام كالبعير البارک
يضرب الأرض بعسيبه و هو أصل الذنب و يلصق جرائنه و هو صدره في الأرض فلا يكون له
تصرف و لا نهوض. ثم عاد إلى صفة الشخص المذكور. و قال بقية من بقايا حججه خليفة من
خلائف أنبيائه الضمير هاهنا يرجع إلى الله سبحانه و إن لم يجز ذكره للعلم به كما قال (حَقَّ
تَوَارَثَ بِالْحِجَابِ) و يمكن أن يقال إن الضمير راجع إلى مذكور و هو الإسلام أي من بقايا
حجج الإسلام و خليفة من خلائف أنبياء الإسلام. فإن قلت ليس للإسلام إلا نبي واحد. قلت
بل له أنبياء كثير قال تعالى (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) و قال
سبحانه (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً) و كل الأنبياء دعوا إلى ما دعا إليه مُحَمَّد ص
من التوحيد و العدل فكلهم أنبياء للإسلام. فإن قلت أ ليس لفظ الحجة و لفظ الخليفة مشعرا بما
تقوله الإمامية. قلت لا فإن أهل التصوف يسمون صاحبهم حجة و خليفة و كذلك الفلاسفة

و أصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كل عصر لأنهم حجج الله أي إجماعهم حجة و قد استخلفهم الله في أرضه ليحكموا بحكمه. و على ما اخترناه نحن فالجواب ظاهر : أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ بَشَّتُ لَكُمْ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ الْأَنْبِيَاءُ بِهِمْ أُمَمُهُمْ وَ أَذِيتُ إِلَيْكُمْ مَا أَذَتْ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ وَ أَذَبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا وَ حَدَوْتُكُمْ بِالزَّوْاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِفُوا لِلَّهِ أَنْتُمْ أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَامًا غَيْرِي يَطَّأُ بِكُمْ الطَّرِيقَ وَ يُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَذْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا وَ أَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا وَ أَرْمَعَ التَّرَحَالَ عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ وَ بَاغُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْقَى مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَ هُمْ بِصَفِينٍ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ يُسَيِّعُونَ الْعُصَصَ وَ يَشْرَبُونَ الرُّنْقَ قَدْ وَ اللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوْقَاهُمْ أَجُورُهُمْ وَ أَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكَبُوا الطَّرِيقَ وَ مَضَوْا عَلَى الْحَقِّ أَيْنَ عَمَّارٌ وَ أَيْنَ ابْنُ التَّيَّهَانِ وَ أَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ وَ أَيْنَ نُظْرَاؤُهُمْ مِنَ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ وَ أُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الْفَجْرَةِ قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ عَ بِيَدِهِ إِلَى عَلَى لِجَنَّتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ فَأَطَالَ الْبُكَاءَ ثُمَّ قَالَ عَ أَوْهَ أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكُمُوهُ وَ تَدَبَّرُوا الْفُرْضَ فَأَقَامُوهُ

أَحْيُوا السُّنَّةَ وَ أَمَاتُوا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلجِهَادِ فَأَجَابُوا وَ وَثَقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ
الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ أَلَا وَ إِلَيَّ مُعْسِكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا فَمَنْ أَرَادَ الرِّوَا حَ إِلَى اللَّهِ فَلْيُخْرِجْ قَالَ نَوَفٌ
وَ عَقْدَ لِلْحُسَيْنِ ع فِي عَشْرَةِ آلَافٍ وَ لَقَيْسِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه فِي عَشْرَةِ آلَافٍ وَ لِأَيِّ أُيُوبَ الْأَنْصَارِيِّ
فِي عَشْرَةِ آلَافٍ وَ لِعِزِّهِمْ عَلَى أَعْدَادٍ أُخَرَ وَ هُوَ يُرِيدُ الرِّجْعَةَ إِلَى صِفِّينَ فَمَا دَارَتْ الْجُمُعَةُ حَتَّى
ضَرَبَهُ الْمُلُغُونَ ابْنَ الْمُلْجَمِ لَعَنَهُ اللَّهُ فَتَرَا جَعَتِ الْعَسَاكِرُ فَكُنَّا كَأَغْنَامٍ فَقَدَتْ رَاعِيَهَا تَحْتَطِفُهَا الذِّئَابُ
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ بَشَتَ لَكُمْ الموَاعِظَ فِرْقَتَهَا وَ نَشَرَتْهَا وَ الْأَوْصِيَاءَ الَّذِينَ يَأْتُمُّهُمْ الْأَنْبِيَاءُ عَلَى الْأَسْرَارِ
الْإِلَهِيَّةِ وَ قَدْ يُمْكِنُ أَلَا يَكُونُوا خُلَفَاءَ بِمَعْنَى الْإِمْرَةِ وَ الْوَلَايَةِ فَإِنْ مَرَّتَبَتُهُمْ أَعْلَى مِنْ مَرَاتِبِ الْخُلَفَاءِ. وَ
حَدُوتَكُمْ سَقْتَكُمْ كَمَا تَحْدَى الْإِبِلَ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا أَيَّ لَمْ تَجْتَمِعُوا قَالَ:

مستوسقات لم يجدن سائقا

قوله يظاً بكم الطريق أي يحملكم على المنهاج الشرعي و يسلك بكم مسلك الحق كأنه
جعلهم ضالين عن الطريق التي يطلبونها.

و قال أ تريدون إماما غيري يوقفكم على الطريق التي تطلبونها حتى تطئوها و تسلكوها. ثم ذكر أنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا و هو الهدى و الرشاد فإنه كان في أيام رسول الله ص و خلفائه مقبلا ثم أدبر عند استيلاء معاوية و أتباعه و أقبل منها ما كان مدبرا و هو الضلال و الفساد و معاوية عند أصحابنا مطعون في دينه منسوب إلى الإلحاد قد طعن فيه ص و روى فيه شيخنا أبو عبد الله البصري في كتاب نقض السفينانية على الجاحظ و روى عنه أخبارا كثيرة تدل على ذلك و قد ذكرناها في كتابنا في مناقضة السفينانية. و روى أحمد بن أبي طاهر في كتاب أخبار الملوك أن معاوية سمع المؤذن يقول أشهد أن لا إله إلا الله فقالها ثلاثا فقال أشهد أن مُحَمَّدًا رسول الله فقال لله أبوك يا ابن عبد الله لقد كنت عالي الهمة ما رضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين. قوله ع و أزمع الترحال أي ثبت عزمهم عليه يقال أزمعت الأمر و لا يقال أزمعت على الأمر هكذا يقول الكسائي و أجازة الخليل و الفراء. ثم قال ع إنه لم يضر إخواننا القتلى بصفين كونهم اليوم ليسوا بأحياء حياتنا المشوبة بالنغص و الغصص. و يقال ماء رنق بالتسكين أي كدر رنق الماء بالكسر يرنق رنقا فهو رنق و أرنقته أي كدرته و عيش رنق بالكسر أي كدر. ثم أقسم أنهم لقوا الله فوفاهم أجورهم و هذا يدل على ما يذهب إليه جمهور أصحابنا من نعيم القبر و عذابه. ثم قال ع أين إخواني ثم عددهم فقال أين عمار

عمار بن ياسر و نسبه و نبذ من أخباره

و هو عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسي بالنون المذحجي يكنى أبا اليقظان حليف بني مخزوم. و نحن نذكر طرفا من أمره من كتاب الإستيعاب لأبي عمر بن عبد البر المحدث قال أبو عمر كان ياسر والد عمار عربيا قحطانيا من عنس في مذحج إلا أن ابنه عمارا كان مولى لبني مخزوم لأن أباه ياسرا قدم مكة مع أخوين له يقال لهما مالك و الحارث في طلب أخ لهم رابع فرجع الحارث و مالك إلى اليمن و أقام ياسر بمكة فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فزوجه أبو حذيفة أمة يقال لها سمية فأولدها عمارا فأعتقه أبو حذيفة فمن هاهنا كان عمار مولى بني مخزوم و أبوه عربي لا يختلفون في ذلك و للحلف و الولاء الذي بين بني مخزوم و عمار و أبيه ياسر كان احتمال بني مخزوم على عثمان حين نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب حتى انفتق له فتق في بطنه زعموا و كسروا ضلعا من أضلاعه فاجتمعت بنو مخزوم فقالوا و الله لئن مات لا قتلنا به أحدا غير عثمان. قال أبو عمر كان عمار بن ياسر ممن عذب في الله ثم أعطاهم عمار ما أرادوا بلسانه و اطمأن الإيمان بقلبه فنزل فيه **(إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)** و هذا مما أجمع عليه أهل التفسير.

و هاجر إلى أرض الحبشة و صلى إلى القبلتين و هو من المهاجرين الأولين ثم شهد بدرا و المشاهد كلها و أبلى بلاء حسنا ثم شهد الإمامة فأبلى فيها أيضا يومئذ و قطعت أذنه. قال أبو عمر و قد روى الواقدي عن عبد الله بن نافع عن أبيه عن عبد الله بن عمر قال رأيت عمارا يوم الإمامة على صخرة و قد أشرف عليها يصيح يا معشر المسلمين أ من الجنة تفرون أنا عمار بن ياسر هلموا إلي و أنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهي تذبذب و هو يقاتل أشد القتال. قال أبو عمر و كان عمار آدم طوالا مضطربا أشهل العينين بعيد ما بين المنكبين لا يغير شيبة. قال و بلغنا أن عمارا قال كنت ترابا لرسول الله ص في سنه لم يكن أحد أقرب إليه مني سنا. وقال ابن عباس في قوله تعالى (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) إنه عمار بن ياسر (كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) إنه أبو جهل بن هشام قال و قال رسول الله ص إن عمارا ملئ إيمانا إلى مشاشه و يروى إلى أخمص قدميه و روى أبو عمر عن عائشة أنها قالت ما من أحد من أصحاب رسول الله ص

أشياء أن أقول فيه إلا قلت إلا عمار بن ياسر فإني سمعت رسول الله ص يقول إنه ملئ إيماننا إلى أخص قدميه. قال أبو عمر و قال عبد الرحمن بن أبزى شهدنا مع علي ع صفين ثمانمائة ممن بايع بيعة الرضوان قتل منا ثلاثة و ستون منهم عمار بن ياسر.

قال أبو عمر و من حديث خالد بن الوليد أن رسول الله ص قال من أبغض عمارا أبغضه الله فما زلت أحبه من يومئذ.

قال أبو عمر و من حديث علي بن أبي طالب ع أن عمارا جاء يستأذن على رسول الله ص يوما فعرف صوته فقال مرحبا بالطيب المطيب يعني عمارا ائذنا له

قال أبو عمر و من حديث أنس عن النبي ص اشتاقت الجنة إلى أربعة علي و عمار و سلمان و بلال. قال أبو عمر و فضائل عمار كثيرة جدا يطول ذكرها. قال و روى الأعمش عن أبي عبد الرحمن السلمي قال شهدنا مع علي ع صفين فرأيت عمار بن ياسر لا يأخذ في ناحية و لا واد من أودية صفين إلا رأيت أصحاب محمد ص يتبعونه كأنه علم لهم و سمعته يقول يومئذ لهاشم بن عتبة يا لهاشم تقدم الجنة تحت البارقة

اليوم ألقى الأحبة محمدًا و حزبه

و الله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعات هجر لعلمنا أنا على الحق و أنهم على الباطل ثم قال نحن ضربناكم على تنزيله فالיום نضربكم على تأويله

ضربا يزيل الهام عن مقيله و يذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق على سبيله

فلم أر أصحاب مُجْد ص قتلوا في موطن ما قتلوا يومئذ. قال و قد قال أبو مسعود البدي و
طائفة لحذيفة حين احتضر و قد ذكر الفتنة إذا اختلف الناس فبمن تأمرنا قال عليكم بـابن سمية
فإنه لن يفارق الحق حتى يموت أو قال فإنه يزول مع الحق حيث زال. قال أبو عمر و بعضهم يجعل
هذا الحديث عن حذيفة مرفوعا. قال أبو عمر و روى الشعبي عن الأحنف أن عمارا حمل يوم
صفين فحمل عليه ابن جزء السكسكي و أبو الغادية الفزاري فأما أبو الغادية فطعنه و أما ابن
جزء فاحتز رأسه. قلت هذا الموضع مما اختلف فيه قول أبي عمر رحمه الله فإنه ذكر في كتاب الكنى من
الإستيعاب أبا الغادية بالغين المعجمة و قال إنه جهني من جهينة و جهينة من قضاة و قد نسبه
هاهنا فزاري. و قال في كتاب الكنى إن اسم أبي الغادية يسار و قيل مسلم. و قد ذكر ابن قتيبة في
كتاب المعارف عن أبي الغادية أنه كان يحدث عن نفسه بقتل عمار و يقول إن رجلا طعنه
فانكشف المغفر عن رأسه فضربت رأسه فإذا رأس عمار قد ندر. و كيفية هذا القتل تخالف الكيفية
التي رواها ابن عبد البر. قال أبو عمر و قد روى وكيع عن شعبة عن عبد بن مرة عن عبد الله بن
سلمة

قال لكأني أنظر إلى عمار يوم صفين و هو صريع فاستسقى فأتي بشربة من لبن فشرب فقال
اليوم ألقى الأحبة

إن رسول الله ص عهد إلي أن آخر شربة أشربها في الدنيا شربة من لبن ثم استسقى ثانية فأنته
امرأة طويلة اليدين بإناء فيه ضياع من لبن فقال حين شربه الحمد لله الجنة تحت الأسنة و الله لو
ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق و أنهم على الباطل ثم قاتل حتى قتل. قال
أبو عمر و قد روى حارثة بن المضارب قرأت كتاب عمر إلى أهل الكوفة أما بعد فإني بعثت
إليكم عمارا أميرا و عبد الله بن مسعود معلما و وزيرا و هما من النجباء من أصحاب مُجَد فاسمعوا
لهما و اقتدوا بهما فإني قد آثرتكم بعبد الله على نفسي أثرة. قال أبو عمر و إنما قال عمر هما من
النجباء

لقول رسول الله ص إنه لم يكن نبي إلا أعطي سبعة من أصحابه نجباء وزراء فقهاء و إني قد
أعطيت أربعة عشر حمزة و جعفرا و عليا و حسنا و حسينا و أبا بكر و عمر و عبد الله بن
مسعود و سلمان و عمارا و أبا ذر و حذيفة و المقداد و بلالا
قال أبو عمر و تواترت الأخبار عن رسول الله ص أنه قال تقتل عمارا الفئة الباغية و هذا من
إخباره بالغيب و أعلام نبوته ص و هو من أصح الأحاديث. و كانت صفين في ربيع الآخر سنة
سبع و ثلاثين و دفنه علي ع في ثيابه و لم يغسله.

و روى أهل الكوفة أنه صلى عليه و هو مذهبهم في الشهداء أنهم لا يغسلون و لكن يصلون عليهم. قال أبو عمر و كانت سن عمار يوم قتل نيفا و تسعين سنة و قيل إحدى و تسعين و قيل اثنتين و تسعين و قيل ثلاثا و تسعين

ذكر أبي الهيثم بن التيهان و طرف من أخباره

ثم قال ع و أين ابن التيهان هو أبو الهيثم بن التيهان بالياء المنقوطة باثنتين تحتها المشددة المكسورة و قبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها و اسمه مالك و اسم أبيه مالك أيضا ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصاري أحد النقباء ليلة العقبة و قيل إنه لم يكن من أنفسهم و إنه من بلي بن أبي الحارث بن قضاة و إنه حليف لبني عبد الأشهل كان أحد النقباء ليلة العقبة و شهد بدرا. قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الإستيعاب اختلف في وقت وفاته فذكر خليفة عن الأصمعي قال سألت قومه فقالوا مات في حياة رسول الله ص. قال أبو عمر و هذا لم يتابع عليه قائله. و قيل إنه توفي سنة عشرين أو إحدى و عشرين. و قيل إنه أدرك صفين و شهدها مع علي ع و هو الأكثر. و قيل إنه قتل بها. ثم قال أبو عمر حدثنا خلف بن قاسم قال حدثنا الحسن بن رشيق قال

حدثنا الدولابي قال حدثنا أبو بكر الوجيهي عن أبيه عن صالح بن الوجيه قال و ممن قتل بصفين عمار و أبو الهيثم بن التيهان و عبد الله بن بديل و جماعة من البدرين رحمهم الله. ثم روى أبو عمر رواية أخرى فقال حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن قال حدثنا عثمان بن أحمد بن السماك قال حدثنا حنبل بن إسحاق بن علي قال قال أبو نعيم أبو الهيثم بن التيهان اسمه مالك و اسم التيهان عمرو بن الحارث أصيب أبو الهيثم مع علي يوم صفين. قال أبو عمر هذا قول أبي نعيم و غيره. قلت و هذه الرواية أصح من قول ابن قتيبة في كتاب المعارف و ذكر قوم أن أبا الهيثم شهد صفين مع علي ع و لا يعرف ذلك أهل العلم و لا يثبتونه فإن تعصب ابن قتيبة معلوم و كيف يقول لا يعرفه أهل العلم و قد قاله أبو نعيم و قاله صالح بن الوجيه و رواه ابن عبد البر و هؤلاء شيوخ المحدثين

ذكر ذي الشهادتين خزيمة بن ثابت و طرف من أخباره

ثم قال ع و أين ذو الشهادتين هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطمي الأنصاري من بني خطمة من الأوس جعل رسول الله ص

شهادته كشهادة رجلين لقصة مشهورة يكنى أبا عمارة شهد بدرا و ما بعدها من المشاهد و كانت راية بني خطمة بيده يوم الفتح. قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الإستيعاب و شهد صفين مع علي بن أبي طالب ع فلما قتل عمار قاتل حتى قتل. قال أبو عمر و قد روي حديث مقتله بصفين من وجوه كثيرة ذكرناها في كتاب الإستيعاب عن ولد ولده و هو مُجَّد بن عمارة بن خزيمه ذي الشهادة و أنه كان يقول في صفين

سمعت رسول الله ص يقول تقتل عمارا الفئة الباغية ثم قاتل حتى قتل. قلت و من غريب ما وقعت عليه من العصبية القبيحة أن أبا حيان التوحيدي قال في كتاب البصائر إن خزيمه بن ثابت المقتول مع علي ع بصفين ليس هو خزيمه بن ثابت ذا الشهادتين بل آخر من الأنصار صحابي اسمه خزيمه بن ثابت و هذا خطأ لأن كتب الحديث و النسب تنطق بأنه لم يكن في الصحابة من الأنصار و لا من غير الأنصار خزيمه بن ثابت إلا ذو الشهادتين و إنما الهوى لا دواء له على أن الطبري صاحب التاريخ قد سبق أبا حيان بهذا القول و من كتابه نقل أبو حيان و الكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكره ثم أي حاجة لناصري أمير المؤمنين أن يتكثروا بخزيمه و أبي الهيثم و عمار و غيرهم لو أنصف

الناس هذا الرجل و رأوه بالعين الصحيحة لعلموا أنه لو كان وحده و حاربه الناس كلهم
أجمعون لكان على الحق و كانوا على الباطل. ثم قال ع و أين نظراؤهم من إخوانهم يعني الذين
قتلوا بصفين معه من الصحابة كابن بديل و هاشم بن عتبة و غيرها ممن ذكرناه في أخبار
صفين. و تعاقدوا على المنية جعلوا بينهم عقدا و روي تعاقدوا. و أبرد برءوسهم إلى الفجرة حملت
رءوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها و الفجرة هاهنا أمراء عسكر الشام تقول قد أبردت إلى
الأمير فأنا مبرد و الرسول بريد و يقال للفرانق البريد لأنه ينذر قدام الأسد. قوله أوه على إخواني
ساكنة الواو مكسورة الهاء كلمة شكوى و توجع و قال الشاعر:

فأوه لذكرها إذا ما ذكرتها و من بعد أرض دونها و سماء
و ربما قلبوا الواو ألفا فقالوا آه من كذا آه على كذا و ربما شددوا الواو و كسروها و سكنوا
الهاء فقالوا أوه من كذا و ربما حذفوا الهاء مع التشديد و كسروا الواو فقالوا أو من كذا بلا مد و
قد يقولون آوه بالمد و التشديد و فتح الألف و سكون الهاء لتطويل الصوت بالشكاية و ربما
أدخلوا فيه الياء تارة يمدونه و تارة لا يمدونه فيقولون أوياء و آوياء و قد أوه الرجل تأويها و تأوه
تأوها إذا قال أوه و الاسم منه الآهة بالمد قال المثلث العبدى

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

قوله ع و وثقوا بالقائد فاتبعوه يعني نفسه أي وثقوا بأني على الحق و تيقنوا ذلك فاتبعوني في حرب من حاربت و سلم من سلمت. قوله الجهاد الجهاد منصوب بفعل مقدر. و إني معسكر في يومي أي خارج بالعسكر إلى منزل يكون لهم معسكرا

ذكر سعد بن عباد و نسبه

و قيس بن سعد بن عباد بن دليم الخزرجي صحابي يكنى أبا عبد الملك روى عن رسول الله ص أحاديث و كان طوالا جدا سبطا شجاعا جوادا و أبوه سعد رئيس الخزرج و هو الذي حاولت الأنصار إقامته في الخلافة بعد رسول الله ص و لم يبايع أبا بكر حين بويع و خرج إلى حوران فمات بها قيل قتلته الجن لأنه بال قائما في الصحراء ليلا و رووا بيتين من شعر قيل إنهما سمعا ليلة قتله و لم ير قائلهما

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباد
و رميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده
و يقول قوم إن أمير الشام يومئذ كمن له من رماه ليلا و هو خارج إلى الصحراء بسهمين
فقتله لخروجه عن طاعة الإمام و قد قال بعض المتأخرين في ذلك:

يقولون سعد شكت الجن قلبه ألا ربما صحت دينك بالغدر
و ما ذنب سعد أنه بال قائما و لكن سعدا لم يبايع أبا بكر
و قد صبرت من لذة العيش أنفس و ما صبرت عن لذة النهي و الأمر

وكان قيس بن سعد من كبار شيعة أمير المؤمنين ع و قائل بمحبته و ولائه و شهد معه حروبه كلها و كان مع الحسن ع و نقم عليه صلحه معاوية و كان طالبي الرأي مخلصا في اعتقاده و وده و أكد ذلك عنده فوات الأمر أباه و ما نيل يوم السقيفة و بعده منه فوجد من ذلك في نفسه و أضمره حتى تمكن من إظهاره في خلافة أمير المؤمنين و كما قيل عدو عدوك صديق لك

ذكر أبي أيوب الأنصاري و نسبه

و أما أبو أيوب الأنصاري فهو خالد بن يزيد بن كعب بن ثعلبة الخزرجي من بني النجار شهد العقبة و بدرا و سائر المشاهد و عليه نزل رسول الله ص لما خرج عن بني عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجرا من مكة فلم يزل عنده حتى بنى مسجده و مساكنه ثم انتقل إليها و يوم المؤاخاة آخى رسول الله ص بينه و بين مصعب بن عمير. و قال أبو عمر في كتاب الاستيعاب إن أبا أيوب شهد مع علي ع مشاهدته كلها و روي ذلك عن الكلبي و ابن إسحاق قال شهد معه يوم الجمل و صفين و كان مقدمته يوم النهروان. قوله تحتطفها الذئاب الاختطاف أخذك الشيء بسرعة و يروى تحتطفها قال تعالى تَخَافُونَ أَنَّ (يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ). و يقال إن هذه الخطبة آخر خطبة أمير المؤمنين ع قائما

١٨٤ من خطبة له ع

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ
بِعِزَّتِهِ وَ سَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ وَ هُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ وَ بَعَثَ إِلَى الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ رُسُلَهُ
لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غَطَائِهَا وَ لِيَحْدِثُوهُمْ مِنْ ضَرَائِهَا وَ لِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا وَ لِيُبَصِّرُوهُمْ غُيُوبَهَا وَ
لِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِبِهَا وَ أَسْقَامِهَا وَ خَلَالِهَا وَ حَرَامِهَا وَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَ الْعَصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَ نَارٍ وَ كَرَامَةٍ وَ هَوَانٍ أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحَمَدَ إِلَى خَلْقِهِ
جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَ لِكُلِّ قَدَرٍ أَجَلًا وَ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا الْمُنْصَبَةُ بِالْفَتْحِ وَ النِّصْبُ بِالتَّعْبِ وَ
الْمَاضِي نَصَبٌ بِالْكَسْرِ وَ هُم نَاصِبٌ فِي قَوْلِ النَّابِغَةِ

كليني لهم يا أميمة ناصب

ذو نصب مثل رجل تامر و لابن و يقال هو فاعل بمعنى مفعول فيه لأنه ينصب

فيه و يتعب كقولهم ليل نائم أي ينام فيه و يوم عاصف أي تعصف فيه الريح و استعبدت فلانا اتخذته عبدا و الضراء الشدة. و معتبر مصدر بمعنى الاعتبار و مصاحها جمع مصحة مفعلة من الصحة كمضار جمع مضرة وصفه سبحانه بأنه معروف بالأدلة لا من طريق الرؤية كما تعرف المړثبات و بأنه يخلق الأشياء و لا يتعب كما يتعب الواحد منا فيما يزاوله و يباشر من أفعاله خلق الخلائق بقدرته على خلقهم لا بحركة و اعتماد و أسبغ النعمة عليهم أوسعها و استعبد الذين يدعون في الدنيا أربابا بعزه و قهره. و ساد كل عظيم بسعة جوده و أسكن الدنيا خلقه كما ورد في الكتاب العزيز (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً). و بعث رسله إلى الجن و الإنس كما ورد في الكتاب العزيز (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا). قال ليكشفوا لهم عن غطاء الدنيا أي عن عوراتها و عيوبها المستورة و ليخوفوهم من مضرّتها و غرورها المفضي إلى عذاب الأبد. و ليضربوا لهم أمثالها كالأمثال الواردة في الكتاب العزيز نحو قوله تعالى (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ...) الآية. قوله و ليهجموا عليهم هجمت على الرجل دخلت عليه بغنة يقول ليدخلوا عليهم بما في تصارييف الدنيا من الصحة و السقم و ما أحل و ما حرم على طريق الابتلاء.

ثم قال و ما أعد الله سبحانه للمطيعين منهم و العصاة يجوز أن تكون ما معطوفة على عيوبها فيكون موضعها نصبا و يجوز أن يكون موضعها جرا و يكون من تنمة أقسام ما يعتبر به و الأول أحسن. ثم قال ع إني أحمد الله كما استحمد إلى خلقه استحمد إليهم فعل ما يوجب عليهم حمده. ثم قال إنه سبحانه جعل لكل شيء من أفعاله قدرا أي فعله مقدرا محدود الغرض اقتضى ذلك القدر و تلك الكيفية كما قال سبحانه (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) . و جعل لكل شيء مقدر وقتا ينتهي إليه و ينقطع عنده و هو الأجل. و لكل أجل كتابا أي رقوما تعرفها الملائكة فتعلم انقضاء عمر من ينقضي عمره و عدم ما ألطافهم في معرفة عدمه : مِنْهَا فِي ذِكْرِ الْقُرْآنِ فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ وَ صَامِتٌ نَاطِقٌ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ وَ ارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ أَتَمَّ نُورَهُ وَ أَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ وَ قَبَضَ نَبِيَّهُ ص وَ قَدْ فَرَعَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يُخَفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ وَ لَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَ جَعَلَ لَهُ عِلْماً بَادِئاً وَ آيَةً مُحْكَمَةً تَزْجُرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ وَ سَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بَشِيءٌ سَخِطَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَ لَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشْيٌ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَ إِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي آثَرِ بَيْنٍ وَ تَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ قَدْ كَفَاكُمْ مَثُونَةَ دُنْيَاكُمْ وَ حَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ وَ افْتَرَضَ مِنَ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ وَ أَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى وَ جَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ وَ حَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بَعِينُهُ وَ نَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ وَ تَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ إِنْ أَسْرَرْتُمْ عِلْمَهُ وَ إِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةَ كِرَاماً لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً وَ لَا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ وَ نُوراً مِنَ الظُّلُمِ وَ يُخَلِّدْهُ فِيهَا إِشْتَهَتْ نَفْسُهُ وَ يُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ ظِلُّهَا عَرْشُهُ وَ نُورُهَا بَهْجَتُهُ وَ رُؤَاؤُهَا مَلَائِكَتُهُ وَ رُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ فَبَادِرُوا الْمَعَادَ وَ سَابِقُوا الْأَجَالَ فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ وَ يَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ وَ يُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَ أَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَ قَدْ أُودِنْتُمْ مِنْهَا بِالْإِرْتِحَالِ وَ أُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ جَعَلَ الْقُرْآنَ آمراً وَ زَاجِراً لِمَا كَانَ خَالِقُهُ وَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ آمراً زَاجِراً بِهِ فَاسْتَدِ الْأَمْرَ وَ الزَّجْرَ إِلَيْهِ كَمَا تَقُولُ سَيْفٌ قَاتِلٌ وَ إِنَّمَا الْقَاتِلُ الضَّارِبُ بِهِ وَ جَعَلَهُ صَامِئاً نَاطِقاً لِأَنَّهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ حُرُوفٌ وَ أَصْوَاتٌ صَامَتْ إِذْ كَانَ الْعَرَضُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ نَاطِقاً

لأن النطق حركة الأداة بالكلام و الكلام يستحيل أن يكون ذا أداة ينطق بالكلام بها و هو من حيث يتضمن الإخبار و الأمر و النهي و النداء و غير ذلك من أقسام الكلام كالناطق لأن الفهم يقع عنده و هذا من باب المجاز كما تقول هذه الربوع الناطقة و أخبرني الديار بعد رحيلهم بكذا. ثم وصفه بأنه حجة الله على خلقه لأنه المعجزة الأصلية. أخذ سبحانه على الخلائق ميثاقه و ارتحن عليه أنفسهم لما كان سبحانه قد قرر في عقول المكلفين أدلة التوحيد و العدل و من جملة مسائل العدل النبوة و ثبت نبوة مُحَمَّد ص عقلا كان سبحانه بذلك كالآخذ ميثاق المكلفين بتصديق دعوته و قبول القرآن الذي جاء و جعل به أنفسهم رهنا على الوفاء بذلك فمن خالف خسر نفسه و هلك هلاك الأبد. هذا تفسير المحققين و من الناس من يقول المراد بذلك قصة الذرية قبل خلق آدم ع كما ورد في الأخبار و كما فسر قوم عليه الآية. ثم ذكر ع أن الله تعالى قبض رسوله ص و قد فرغ إلى الخلق بالقرآن من الإكمال و الإتمام كقوله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) و إذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه. قال فعظموا من الله ما عظم من نفسه لأنه سبحانه وصف نفسه بالعظمة و الجلال في أكثر القرآن فالواجب علينا أن نعظمه على حسب ما عظم نفسه سبحانه. ثم علل وجوب تعظيمه و حسن أمره لنا بتعظيمه سبحانه بكونه لم يخف عنا شيئا من أمر ديننا و ذلك لأن الشرعيات مصالح المكلفين و إذا فعل الحكيم سبحانه بنا

ما فيه صلاحنا فقد أحسن إلينا و من جملة صلاحنا تعريفنا من الشرعيات ما فعله لطف و مفضل بنا إلى الثواب و هذا أبلغ ما يكون من الإحسان و المحسن يجب تعظيمه و شكره. قال لم يترك شيئا إلا و جعل له نصا ظاهرا يدل عليه أو علما يستدل به عليه أي إما منصوص عليه صريحا أو يمكن أن يستنبط حكمه من القرآن إما بذكره أو بتركه فيبقى على البراءة الأصلية و حكم العقل. قوله فرضاه فيما بقي واحد معناه أن ما لم ينص عليه صريحا بل هو في محل النظر ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه فيحله بعضهم و يجرمه بعضهم بل رضا الله سبحانه أمر واحد و كذلك سخطه فليس يجوز أن يكون شيء من الأشياء يفتي فيه قوم بالحل و قوم بالحرمة و هذا قول منه ع بتحريم الاجتهاد و قد سبق منه ع مثل هذا الكلام مرارا. قوله و اعلّموا أنه ليس يرضى عنكم الكلام إلى منتهاه معناه أنه ليس يرضى عنكم بالاختلاف في الفتاوي و الأحكام كما اختلف الأمم من قبلكم فسخط اختلافهم قال سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) .و كذلك ليس يسخط عليكم بالاتفاق و الاجتماع الذي رضى به ممن كان قبلكم من القرون. و يجوز أن يفسر هذا الكلام بأنه لا يرضى عنكم بما سخطه على الذين من قبلكم من الاعتقادات الفاسدة في التوحيد و العدل و لا يسخط عليكم بما تعتقدونه من الاعتقادات الصحيحة التي رضى بها ممن كان قبلكم في التوحيد و العدل فيكون الكلام مصروفا إلى الأصول لا إلى الفروع.

قال و إنما تسيرون في أثر بين أي إن الأدلة واضحة و ليس مراده الأمر بالتقليد و كذلك قوله و تتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم يعني كلمة التوحيد لا إله إلا الله قد قالها الموحدون من قبل هذه الملة لا تقليدا بل بالنظر و الدليل فقولوها أنتم كذلك. ثم ذكر أنه سبحانه قد كفى الخلق معونة دنياهم قال الحسن البصري إن الله تعالى كفانا معونة دنيانا و حثنا على القيام بوظائف ديننا فليته كفانا معونة ديننا و حثنا على القيام بوظائف دنيانا. قوله و افترض من ألسنتكم الذكر افترض عليكم أن تذكروه و تشكروه بألسنتكم و من متعلقة بمحذوف دل عليه المصدر المتأخر تقديره و افترض عليكم الذكر من ألسنتكم الذكر. ثم ذكر أن التقوى المفترضة هي رضا الله و حاجته من خلقه لفظة حاجته مجاز لأن الله تعالى غني غير محتاج و لكنه لما بالغ في الحث و الحض عليها و توعده على تركها جعله كالمحتاج إلى الشيء و وجه المشاركة أن المحتاج يحث و يحض على حاجته و كذلك الأمر المكلف إذا أكد الأمر. قوله أنتم بعينه أي يعلم أحوالكم و نواصيكم بيده الناصية مقدم شعر الرأس أي هو قادر عليكم قاهر لكم متمكن من التصرف فيكم كالإنسان القابض على ناصية غيره. و تقلبكم في قبضته أي تصرفكم تحت حكمه لو شاء أن يمنعكم منعكم فهو كالشيء في قبضة الإنسان إن شاء استدام القبض عليه و إن شاء تركه. ثم قال إن أسرتم أمرا علمه و إن أظهرتموه كتبه ليس على أن الكتابة غير العلم بل هما شيء واحد و لكن اللفظ مختلف.

ثم ذكر أن الملائكة موكلة بالكلف و هذا هو نص الكتاب العزيز و قد تقدم القول في ذلك. ثم انتقل إلى ذكر الجنة و الكلام يدل على أنها في السماء و أن العرش فوقها. و معنى قوله اصطنعها لنفسه إعظامها و إجلالها كما قال لموسى (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي-) و لأنه لما تعارف الناس في تعظيم ما يصنعونه أن يقول الواحد منهم لصاحبه قد وهبتك هذه الدار التي اصطنعتها لنفسي أي أحكمتها و لم أكن في بنائها متكلفا بأن أبنيتها لغيري صح و حسن من البليغ الفصيح أن يستعير مثل ذلك فيما لم يصطنعه في الحقيقة لنفسه و إنما هو عظيم جليل عنده. قوله و نورها بهجته هذا أيضا مستعار كأنه لما كان إشراق نورها عظيما جدا نسبه إلى بهجة الباري و ليس هناك بهجة على الحقيقة لأن البهجة حسن الخلقة قال تعالى (وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) أي من كل صنف حسن. قوله و زوارها ملائكته قد ورد في هذا من الأخبار كثير جدا و رفاقؤها رسله من قوله تعالى (وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا). و يوشك بكسر الشين فعل مستقبل ماضيه أوشك أي أسرع. و رهقه الأمر بالكسر فاجأه. و يسد عنهم باب التوبة لأنه لا تقبل عند نزول الموت بالإنسان من حيث كان يفعلها خوفا فقط لا لقبح القبيح قال تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ).

و إنما قال في مثل ما سأل إليه الرجعة من كان قبلكم كقوله سبحانه (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ). و بنو سبيل أرباب طريق مسافرون. و أوزن فلان بكذا أعلم و آذنته أعلمته. و قد تقدم لنا كلام بالغ في التقوى و ماهيتها و تأكيد وصاة الخالق سبحانه و الرسول ع بها

نبد و أقاويل في التقوى

روى المبرد في الكامل أن رجلا قال لعمر بن الخطاب اتق الله يا أمير المؤمنين فقال له رجل أ تألت على أمير المؤمنين أي أ تنتقصه فقال عمر دعه فلا خير فيهم إذا لم يقولوها و لا خير فينا إذا لم تقل لنا. و كتب أبو العتاهية إلى سهل بن صالح و كان مقيما بمكة أما بعد فأنا أوصيك بتقوى الله الذي لا غناء بك عن تقاته و أتقدم إليك عن الله و نذكرك مكر الله فيما دبت به إليك ساعات الليل و النهار فلا تخدعن عن دينك فإن ساعاتك أوقاتك إن ظفرت بذلك منك وجدت الله فيك أسرع مكرًا و أنفذ فيك أمرا و وجدت ما مكرت به في غير ذات الله غير راد عنك يد الله و لا مانع لك من أمر الله و لعمرى لقد ملأت عينك الفكر و اضطربت في سمعك أصوات العبر و رأيت آثار نعم الله نسختها آثار نقمه حين استهزئ بأمره و جوهر بمعاندته ألا إن في حكم الله

أنه من أكرمه الله فاستهان بأمره أهانه الله السعيد من وعظ بغيره لا وعظك الله في نفسك و
 جعل عظتك في غيرك و لا جعل الدنيا عليك حسرة و ندامة برحمته.و
 من كلام رسول الله ص لا كرم كالتقوى و لا مال أعود من العقل و لا وحدة أوحش من
 العجب و لا عقل كالتدبير و لا قرين كحسن الخلق و لا ميراث كالأدب و لا فائدة كالتوفيق و
 لا تجارة كالعمل الصالح و لا ربح كثواب الله و لا ورع كالوقوف عند الشبهة و لا زهد كالزهد في
 الحرام و لا علم كالتفكر و لا عبادة كأداء الفرائض و لا إيمان كالحياء و الصبر و لا حسب
 كالتواضع و لا شرف كالعلم و لا مظاهرة أوفق من المشورة فاحفظ الرأس و ما حوى و البطن و
 ما وعى و اذكر الموت و طول البلى : وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّفِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ فَارْجِعُوا
 أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ نُصَيْبُهُ وَ الْعُتْرَةِ
 تُدْمِيهِ وَ الرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مِنْ نَارٍ ضَجِيعٍ حَجَرٍ وَ قَرِينٍ شَيْطَانٍ أَعْلَمْتُمْ
 أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِعَظْمِهِ وَ إِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً
 مِنْ زَجَرَتِهِ أَيُّهَا الْيَقِينُ الْكَبِيرُ الَّذِي قَدْ هَزَهُ الْفَتِيرُ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا التَّحَمَّتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ
 الْأَعْنَاقِ وَ نَشَبَتِ الْجَوَامِغُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ فَاللَّهُ اللَّهُ مَعَشَرَ الْعِبَادِ وَ أَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي
 الصَّبْحَةِ قَبْلَ السُّمَمِ وَ فِي الْمُسْحَةِ قَبْلَ الصَّبِيقِ فَاسْعَوْا فِي فَكَائِكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِبُهَا

أَسْهَرُوا عُيُونَكُمْ وَ أَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ وَ اسْتَغْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ وَ أَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ وَ خُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَ لَا تَبْخُلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) وَ قَالَ تَعَالَى (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ دُلٍّ وَ لَمْ يَسْتَفْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ اسْتَنْصَرَكُمْ وَ لَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَ اسْتَفَرَضَكُمْ وَ لَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فَبَادَرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ حَيْرَانَ اللَّهِ فِي دَارِهِ رَافِقَ بِهِمْ رُسُلَهُ وَ أَرَارَهُمْ مَلَائِكَتُهُ وَ أَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَدًا وَ صَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا وَ نَصَبًا (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَ أَنْفُسِكُمْ وَ هُوَ حَسْبُنَا وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ الرمضاء الأرض الشديدة الحرارة و الرمض بالتحريك شدة وقع الشمس على الرمل و غيره و قد رمض يومنا بالكسر يرمض رمضا اشتد حره و أرض رمضة الحجارة و رمضت قدمه من الرمضاء احترقت.

و الطابق بالفتح الآجرة الكبيرة و هو فارسي معرب. و ضجيع حجر يومئ فيه إلى قوله تعالى (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) قيل إنها حجارة الكبريت. و قرين شيطان يومئ فيه إلى قوله تعالى (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ). و حطم بعضها بعضا كسره أو أكله و الحطمة من أسماء النار لأنها تحطم ما تلقى و منه سمي الرجل الكثير الأكل حطمة. و اليفن الشيخ الكبير و لهزه خالطه و يقال له حينئذ ملهوز ثم أشمط ثم أشيب و لهزت القوم خالطتهم و دخلت بينهم. و القثير الشيب و أصله رءوس المسامير في الدروع تسمى قتيرا. و التحمت أطواق النار بالعظام التفت عليها و انضمت إليها و التصقت بها. و الجوامع جمع جامعة و هي الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق. و نشبت علق و السواعد جمع ساعد و هو الذراع. و في من قوله في الصحة قبل السقم متعلقة بالمحذوف الناصب لله و هو اتقوا أي اتقوه سبحانه في زمان صحتكم قبل أن ينزل بكم السقم و في فسحة أعماركم قبل أن تبدل بالضيق. و فكاك الرقاب بفتح الفاء عتقها قبل أن تغلق رهائنها يقال غلق الرهن بالكسر إذا استحققه المرتهن بألا يفكه الراهن في الوقت المشروط و كان ذلك من شرع الجاهلية فنهى عنه النبي ص و قال لا يغلق الرهن.

و خذوا من أجسادكم أي أتعبوها بالعبادة حتى تنحل. و القل القلة و الذل الذلة. و حسيس النار صوتها و اللغوب النصب

طرف و أخبار

و نظير قوله ع استقرضكم و له خزائن السماوات و الأرض ما رواه المبرد في الكامل عن أبي عثمان المازني عن أبي زيد الأنصاري قال وقف علينا أعرابي في حلقة يونس النحوي فقال الحمد لله كما هو أهله و أعوذ بالله أن أذكر به و أنساه خرجنا من المدينة مدينة الرسول ص ثلاثين رجلا ممن أخرجته الحاجة و حمل على المكروه و لا يمرضون مرضاهم و لا يدفنون ميتهم و لا ينتقلون من منزل إلى منزل و إن كرهوه و الله يا قوم لقد جعلت حتى أكلت النوى المحرق و لقد مشيت حتى انتعلت الدم و حتى خرج من قدمي بخص و لحم كثير أ فلا رجل يرحم ابن سبيل و فل طريق و نضو سفر فإنه لا قليل من الأجر و لا غنى عن ثواب الله و لا عمل بعد الموت و هو سبحانه يقول (مَنْ ذَا الَّذِي

يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا) ملي وفي ماجد واجد جواد لا يستقرض من عوز و لكنه يبلو
الأخير. قال المازني فبلغني أنه لم يبرح حتى أخذ ستين ديناراً. و من كلام علي بن عبيدة الرحاني
الأيام مستودعات الأعمال و نعم الأرضون هي لمن بذر فيها الخير و العمل الصالح. و خطب
الحجاج فقال أيها الناس إنكم أغراض حمام و فرص هلكة قد أنذركم القرآن و نادى برحيلكم
الجديدان ها إن لكم موعداً لا تؤخر ساعته و لا تدفع هجمته و كان قد دلفت إليكم نازلته
فتعلق بكم ريب المنون و علقت بكم أم اللهيم الحيزيون فما ذا هيأتم للرحيل و ما ذا أعددتُم للنزِيل
من لم يأخذ أهبة الحذر نزل به مرهوب القدر

خطبة لأبي الشخباء العسقلاني

قلت و قد شغف الناس في المواعظ بكلام كاتب محدث يعرف بابن أبي الشخباء

العسقلاني و أنا أورد هاهنا خطبة من مواعظه هي أحسن ما وجدته له ليعلم الفرق بين الكلام الأصيل و المولد.أيها الناس فكوا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة و خففوا ظهوركم من الآصار المستحقة و لا تسيموا أطماعكم في رياض الأمانى المتشعبة و لا تميلوا صغواكم إلى زبارج الدنيا المحبة فتظل أجسامكم في هشائمه عاملة نضبة أ ما علمتم أن طباعها على الغدر مركبة و أنها لأعمار أهلها منتبهة و لما ساءهم منتطرة مرتقبة في هبتها راجعة متعقة فانضوا رحمكم الله ركائب الاعتبار مشرقة و مغربة و أجروا خيول التفكير مصعدة و مصوبة هل تجدون إلا قصورا على عروشها خربة و ديارا معطشة من أهلها مجدبة أين الأمم السالفة المتشعبة و الجبابرة الماضية المتغلبة و الملوك المعظمة المرجبة أولو الحفدة و الحجة و الزخارف المعجبة و الجيوش الحارة اللجة و الخيام الفضفاضة المطببة و الجياد الأعوجية المجنبة و المصاعب الشدقمية المصحبة و اللدان المتقفية المدربة و الماذية الحصينة المنتخبة طرقت و الله خيامهم غير منتبهة و أزارتهم من الأسقام سيوفا معطبة و سيرت إليهم الأيام من نوبها كئيب مكتبة فأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية محتضبة و غدت أصوات الناديات عليهم مجلبة و أكلت لحومهم هوام الأرض السغبة ثم إنهم مجموعون ليوم لا يقبل فيه عذر و لا معتبة و تجازى كل نفس بما كانت مكتسبة فسعيدة مقربة تجري من تحتها الأنهار ماثوبة و شقية معذبة في النار مكبكية.هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب و هي كما تراها ظاهرة التكلف بينة التوليد تخطب على نفسها و إنما ذكرت هذا لأن كثيرا من أرباب الهوى يقولون إن كثيرا من نخب البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة و ربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن و غيره و هؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم فضلوا عن النهج الواضح

و ركبوا بنيات الطريق ضلالا و قلة معرفة بأساليب الكلام و أنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول

رأي للمؤلف في كتاب نهج البلاغة

لا يخلو إما أن يكون كل نهج البلاغة مصنوعا منحولا أو بعضه و الأول باطل بالضرورة لأننا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين ع و قد نقل المحدثون كلهم أو جلهم و المؤرخون كثيرا منه و ليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك و الثاني يدل على ما قلناه لأن من قد أنس بالكلام و الخطابة و شدا طرفا من علم البيان و صار له ذوق في هذا الباب لا بد أن يفرق بين الكلام الركيك و الفصيح و بين الفصيح و الأفصح و بين الأصيل و المولد و إذا وقف على كراس واحد يتضمن كلاما لجماعة من الخطباء أو لاثنتين منهم فقط فلا بد أن يفرق بين الكلامين و يميز بين الطريقتين أ لا ترى أنا مع معرفتنا بالشعر و نقده لو تصفحنا ديوان أبي تمام فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام و نفسه و طريقتة و مذهبه في القريض أ لا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه لمباينتها لمذهبه في الشعر و كذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئا كثيرا لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه و لا من شعره و كذلك غيرهما من الشعراء و لم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصة. و أنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحدا و نفسا واحدا و أسلوبا واحدا كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفا لباقي الأبعاض في الماهية و كالقرآن العزيز أوله كأوسطه و أوسطه كآخره و كل سورة منه و كل آية مماثلة في

المأخذ و المذهب و الفن و الطريق و النظم لباقي الآيات و السور و لو كان بعض نهج البلاغة منحولا و بعضه صحيحا لم يكن ذلك كذلك فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين ع. و اعلم أن قائل هذا القول يطرق على نفسه ما لا قبل له به لأننا متى فتحنا هذا الباب و سلطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو لم نشق بصحة كلام منقول عن رسول الله ص أبدا و ساغ لطاعن أن يطعن و يقول هذا الخبر منحول و هذا الكلام مصنوع و كذلك ما نقل عن أبي بكر و عمر من الكلام و الخطب و المواعظ و الأدب و غير ذلك و كل أمر جعله هذا الطاعن مستندا له فيما يروييه عن النبي ص و الأئمة الراشدين و الصحابة و التابعين و الشعراء و المترسلين و الخطباء فلناصري أمير المؤمنين ع أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة و غيره و هذا واضح

١٨٥ و من كلام له ع قاله للبرج بن مسهر الطائي

و قد قال له بحيث يسمعه لا حكم إلا الله و كان من الخوارج : أَسْكُتْ قَبْحَكَ اللَّهُ يَا أَثَرُ
قَوْلِ اللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتُ فِيهِ ضَعِيفًا شَخْصًا خَفِيًّا صَوْتُكَ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمَتْ نُجُومُ
قَرْنِ الْمَاعِزِ الْبَرَجِ بِنِ مَسْهَرِ بَضْمِ الْمِيمِ وَ كَسْرِ الْهَاءِ بِنِ الْجَلَّاسِ بِنِ وَهْبِ بِنِ قَيْسِ بِنِ عُبَيْدِ بِنِ
طَرِيفِ بِنِ مَالِكِ بِنِ جَدْعَاءِ بِنِ ذَهْلِ بِنِ رُومَانَ بِنِ جَنْدَبِ بِنِ خَارِجَةَ بِنِ سَعْدِ بِنِ قَطْرَةَ بِنِ طِي
بِنِ دَاوُدَ بِنِ زَيْدِ بِنِ يَشْجَبِ بِنِ عَرِيبِ بِنِ زَيْدِ بِنِ كِهْلَانَ بِنِ سَبَأَ بِنِ يَشْجَبِ بِنِ يَعْزَبِ بِنِ
قَحْطَانَ شَاعِرِ مَشْهُورٍ مِنْ شِعْرَاءِ الْخَوَارِجِ نَادَى بِشِعَارِهِمْ بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ع فزجره. و
قبحك الله لفظة معناها كسرك يقال قبحت الجوزة أي كسرتها و قيل قبحه نحاه عن الخير و كان
البرج ساقط الثنية فأهانته بأن دعاه به كما يهان الأعور بأن يقال له يا أعور. و الضئيل الدقيق
الخفي ضؤل الرجل بالضم ضآلة نحف و ضؤل رأيه صغر و رجل متضائل أي شخت و كذلك
ضؤلة.

و نعر الباطل صاح و المراد أهل الباطل و نعر فلان في الفتنة نهض فيها. و نجم طلع أي طلع
بلا شرف و لا شجاعة و لا قدم بل على غفلة كما يثبت قرن الماعز و هذا من باب البديع و هو
أن يشبه الأمر يراد إهانتته بالمهين و يشبه الأمر يراد إعظامه بالعظيم و لو كان قد تكلم في شأن
ناجم يريد تعظيمه لقال نجم نجوم الكوكب من تحت الغمام نجوم نور الربيع من الأكمام و نحو
ذلك

رُوي أَنَّ صَاحِباً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع يُقَالُ لَهُ هَمَامٌ كَانَ رَجُلًا عَابِداً فَقَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
صِفْ لِي الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ فَتَنَاقَلَ ع عَنْ جَوَابِهِ ثُمَّ قَالَ يَا هَمَامُ اتَّقِ اللَّهَ وَ أَحْسِنْ فَ
(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) فَلَمْ يَقْنَعْ هَمَامٌ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْهِ فَحَمِدَ
اللَّهُ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ وَ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ص ثُمَّ قَالَ ع أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى خَلَقَ الْخُلُقَ
حَيْثُ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ وَ لَا تَنْفَعُهُ
طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَاشَهُمْ وَ وَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ
الْفَضَائِلِ مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ وَ مَلْبَسُهُمُ الْإِفْتِصَادُ وَ مَشْيُهُمُ التَّوَاضُّعُ غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَ وَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ نُزِلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّذِي نُزِلَتْ فِي الرِّحَاءِ
وَ لَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقَرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرَفَةً عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى
التَّوَابِ وَ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ فَهُمْ وَ الْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ
وَهُمْ وَ النَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وَ شُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ وَ أَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ
وَ حَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ وَ أَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً بِحَارَةِ مُرِجَةٍ يَسَرَّهَا
هُمْ رَبُّهُمْ أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا وَ أَسَرَّتْهُمْ فَقَدُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ
تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يَرْتَلُونَهَا تَرْتِيلاً يُحْزِنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَ يَسْتَبِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا
تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وَ تَطَلَّعَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وَ ظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنُهُمْ وَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ
فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَ ظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَ شَهيقَهَا فِي أَصُولِ آدَامِهِمْ فَهُمْ
حَائُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ مُفْتَرِشُونَ لِحَبَاهِهِمْ وَ أَكْفِهِمْ وَ رَكْبِهِمْ وَ أَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَائِهِمْ وَ أَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَهْبَارُ أَتَقِيَاءُ قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بِرِي الْقِدَاحِ يَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ التَّنَازُّرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرْضَى وَ مَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ وَ يَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا وَ لَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ
عَظِيمٌ لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ الْكَثِيرَ فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ
مُشْفِقُونَ إِذَا رَكِّي أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي وَ رَيِّ أَعْلَمُ بِي
مِنِّي بِنَفْسِي اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ وَ اجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ وَ اغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ

همام المذكور في هذه الخطبة هو همام بن شريح بن يزيد بن مرة بن عمرو بن جابر بن يحيى بن الأصهب بن كعب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذهل بن مران بن صيفي بن سعد العشيرة. و كان همام هذا من شيعة أمير المؤمنين ع و أوليائه و كان ناسكا عابدا قال له يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى أصير بوصفك إياهم كالناظر إليهم. فتناقل عن جوابه أي أبطأ. فعزم عليه أي أقسم عليه و تقول لمن يكرر عليك الطلب و السؤال قد عزم علي أي أصر و قطع و كذلك تقول في الأمر تريد فعله و تقطع عليه عزمت عزمًا و عزمًا و عزيمة و عزيمة. فإن قلت كيف جاز له ع أن يتناقل عن جواب المسترشد. قلت يجوز أن يكون تناقل عن جوابه لأنه علم أن المصلحة في تأخير الجواب و لعله كان حاضر المجلس من لا يجب أن يجيب و هو حاضر فلما انصرف أجاب و لعله رأى أن تناقله عن الجواب يشد تشوق همام إلى سماعه فيكون أنجع في موعظته و لعله كان من باب تأخير البيان إلى وقت الحاجة لا من باب تأخير البيان عن وقت الحاجة و لعله تناقل عن الجواب ليرتب المعاني التي خطرت له في ألفاظ مناسبة لها ثم ينطق بها كما يفعله المتروي في الخطبة و القريض. فإن قلت فما معنى إجابته له أولا بقوله يا همام اتق الله و أحسن ف (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) و أي جواب في هذا عن سؤال همام.

قلت كأنه لم ير في بادئ الحال شرح صفات المتقين على التفصيل فقال لهما ما هي التقوى معلومة في الجملة فاتق الله و أحسن فإن الله قد وعد في كتابه أن يكون وليا و ناصرا لأهل التقوى و الإحسان و هذا كما يقول لك قائل ما صفات الله الذي أعبدته أنا و الناس فتقول له لا عليك ألا تعرف صفاته مفصلة بعد أن تعلم أنه خالق العالم و أنه واحد لا شريك له فلما أبى همام إلا الخوض فيما سأله على وجه التفصيل قال له إن الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم و يروى حيث خلقهم و هو غني عن طاعتهم لأنه ليس بجسم فيستضر بأمر أو ينتفع به. و قسم بين الخلق معاشهم كما قال سبحانه (**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**). و في قوله وضعهم مواضعهم معنى قوله (**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**) فكأنه ع أخذ الألفاظ فألغاها و أتى بمعناها. فلما فرغ من هذه المقدمة شرع في ذكر صفات المتقين فقال إنهم أهل الفضائل ثم بين ما هذه الفضائل فقال منطقهم الصواب. فإن قلت أي فائدة في تقديم تلك المقدمة و هي كون الباري سبحانه غنيا لا تضره المعصية و لا تنفعه الطاعة. قلت لأنه لما تضمنت الخطبة مدح الله تعالى للمتقين و ما أعده لهم من الثواب و ذمه للعاصين و ما أعده لهم من العقاب العظيم فرما يتوهم متوهم أن الله تعالى ما رغب في الطاعة

هذا الترغيب البالغ و خوف من المعصية هذا التخويف البالغ إلا و هو منتفع بالأولى مستضر
بالثانية فقدم ع تلك المقدمة نفيا لهذا الوهم

فصل في فضل الصمت و الاقتصاد في المنطق

و اعلم أن القول في خطر الكلام و فضل الصمت و فضل الاقتصار في المنطق وسيع جدا و
قد ذكرنا منه طرفا فيما تقدم و نذكر الآن منه طرفا آخر.
قال النبي ص من صمت نجا و قال أيضا الصمت حكم و قليل فاعله و قال له ص بعض
أصحابه أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك فقال قل آمنت بالله ثم استقم قال فما
أتقي فأومأ بيده إلى لسانه و قال له ع عقبة بن عامر يا رسول الله ما النجاة قال املك عليك
لسانك و ابك على خطيئتك و ليسعك بيتك و روى سهل بن سعد الساعدي عنه ص من
يتوكل لي بما بين لحييه و رجليه أتوكل له بالجنة و قال من وقي شر قببه و ذبذبه و لقلقه فقد
وقي و روى سعيد بن جبير مرفوعا إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تشكو

اللسان تقول أي بني آدم اتق الله فينا فإنك إن استقممت استقمنا و إن اعوججت اعوججنا. و قد روي أن عمر رأى أبا بكر و هو يمد لسانه فقال ما تصنع قال هذا الذي أوردني الموارد

إن رسول الله ص قال ليس شيء في الجسد إلا يشكو إلى الله تعالى اللسان على حدته و سمع ابن مسعود يلي على الصفا و يقول يا لسان قل خيرا تغنم أو اصمتت تسلم من قبل أن تندم فقل له يا أبا عبد الرحمن أ هذا شيء سمعته أم تقوله من تلقاء نفسك قال بل سمعت رسول الله ص يقول أكثر خطايا ابن آدم من لسانه و روى الحسن مرفوعا رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم و قالت التلامذة لعيسى ع دلنا على عمل ندخل به الجنة قال لا تنطقوا أبدا قالوا لا نستطيع ذلك قال فلا تنطقوا إلا بخير و قال النبي ص إن الله عند لسان كل قائل فاتقى الله امرؤ علم ما يقول و كان يقول لا شيء أحق بطول سجن من لسان و كان يقال لسانك سبع إن أطلقته أكلك. في حكمة آل داود حقيق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه حافظا للسانه مقبلا على شأنه. و كان يقال من علم أن كلامه من عمله أقل كلامه فيما لا ينفعه. و قال محمد بن واسع حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار و الدرهم.

اجتمع أربعة حكماء من الروم و الفرس و الهند و الصين فقال أحدهم أنا أندم على ما قلت و لا أندم على ما لم أقل و قال الآخر إذا تكلمت بالكلمة ملكتني و لم أملكها و إذا لم أتكلم ملكتها و لم تملكني و قال الآخر عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته و إن لم ترجع لم تنفعه و قال الرابع أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت.

ذكر الآثار الواردة في آفات اللسان

و اعلم أن آفات اللسان كثيرة فمنها الكلام فيما لا يعينك و هو أهون آفات اللسان و مع ذلك فهو عيب

قال النبي ص من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه و روي أنه ع مر بشهيد يوم أحد فقال أصحابه هنيئا له الجنة قال و ما يدريكم لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه و قال ابن عباس خمس هي أحسن و أنفع من حمر النعم لا تتكلم فيما لا يعينك فإنه فضل لا آمن عليه الوزر و لا تتكلم فيما يعينك حتى تجد له موضعا فرب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فأساء و لا تمار حلما و لا سفيها فإن الحلیم يقلبك و السفیه يؤذيك و اذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به و أعفه عما تحب أن يعفبك عنه و اعمل عمل رجل يرى أنه مجازي بالإحسان مأخوذ بالجرائم. و منها فضول الكلام و كثرتة و ترك الاقتصار و كان يقال فضول المنطق و زيادته نقص في العقل و هما ضدان متنافيان كلما زاد أحدهما نقص الآخر.

و قال عبد الله بن مسعود إياكم و فضول الكلام حسب امرئ ما بلغ به حاجته و كان يقال
من كثر كلامه كثر سقطه. و قال الحسن فضول الكلام كفضول المال كلاهما مهلك. و منها
الخوض في الباطل و الحديث فيما لا يحل كحديث النساء و مجالس الخمر و مقامات الفساق و
إليه الإشارة بقوله تعالى (وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) . و منها المرء و الجدال
قال ع دع المرء و إن كنت محقا و قال مالك بن أنس المرء يقسي القلب و يورث الضغائن. و
قال سفيان الثوري لو خالفت أخي في رمانة فقل حلوة و قلت حامضة لسعي بي إلى السلطان. و
كان يقال صاف من شئت ثم أغضبه بالجدال و المرء فليرمينك بداهية تمنعك العيش. و قيل
لميمون بن مهران ما لك لا تفارق أخا لك عن قلى قال لأنني لا أشاريه و لا أماريه. و منها التقعر
في الكلام بالتشدد و التكلف في الألفاظ
قال النبي ص

أبغضكم إلي و أبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون المتشدقون و قال ع هلك
المتنطعون... ثلاث مرات و التنطع هو التعمق و الاستقصاء و قال عمر إن شقاشق الكلام من
شقاشق الشيطان. و منها الفحش و السب و البذاء
قال النبي ص إياكم و الفحش فإن الله لا يحب الفحش و لا يرضى الفحش و قال ع ليس
المؤمن بالطعان و لا باللعان و لا بالسباب و لا بالبذء و قال ع لو كان الفحش رجلا لكان
رجل سوء و منها المزاح الخارج عن قانون الشريعة و كان يقال من مزح استخف به و كان يقال
المزاح فحل لا ينتج إلا الشر. و منها الوعد الكاذب و قد قال النبي ص العدة دين و قد أثنى الله
سبحانه على إسماعيل فقال (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) و قال سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا
بِالْعُقُودِ).

و منها الكذب في القول و اليمين و الأمر فيهما مشهور. و منها الغيبة و قد تقدم القول فيها. قوله ع و ملبسهم الاقتصاد أي ليس بالثمين جدا و لا بالحقير جدا كالخرق التي تؤخذ من على المزابل و لكنه أمر بين أمرين و كان ع يلبس الكرايس و هو الخام الغليظ و كذلك كان عمر رضي الله عنه و كان رسول الله ص يلبس اللين تارة و الخشن أخرى. قوله ع و مشيهم التواضع تقديره و صفة مشيهم التواضع فحذف المضاف و هذا مأخوذ من قوله تعالى (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْصُصْ مِنْ صَوْتِكَ). رأى محمد بن واسع ابنا له يمشي و هو يتبختر و يمس في مشيته فصاح به فأقبل فقال له و بلك لو عرفت نفسك لقصدت في مشيك أما أمك فأمة ابتعتها بمائة درهم و أما أبوك فلا أكثر الله في الناس من أمثاله. و الأصل في هذا الباب قوله تعالى (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا). و قوله غصوا أبصارهم أي خفضوها و غمضوها و غمضت طرقي عن كذا احتملت مكروهه. و قوله وقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم أي لم يشغلوا سمعهم بشيء غير العلوم النافعة أي لم يشتغلوا بسماع شعر و لا غناء و لا أحاديث أهل الدنيا.

قوله نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت في الرخاء يعني أنهم قد طابوا نفسا في البلاء و الشدة كطيب أنفسهم بأحوالهم في الرخاء و النعمة و ذلك لقلّة مبالاتهم بشدائد الدنيا و مصائبها و تقدير الكلام من جهة الإعراب نزلت أنفسهم منهم في حال البلاء نزولا كالنزول الذي نزلته منهم في حال الرخاء فموضع كالذي نصب لأنه صفة مصدر محذوف و الموصول قد حذف العائد إليه و هو الهاء في نزلته كقولك ضربت الذي ضربت أي ضربت الذي ضربته. ثم قال ع إنهم من شدة شوقهم إلى الجنة و من شدة خوفهم من النار تكاد أرواحهم أن تفارق أجسادهم لو لا أن الله تعالى ضرب لهم آجالا ينتهون إليها. ثم ذكر أن الخالق لما عظم في أعينهم استصغروا كل شيء دونه و صاروا لشدة يقينهم و مكاشفتهم كمن رأى الجنة فهو يتنعم فيها و كمن رأى النار و هو يعذب فيها و لا ريب أن من يشاهد هاتين الحالتين يكون على قدم عظيمة من العبادة و الخوف و الرجاء و هذا مقام جليل و مثله

قوله ع في حق نفسه لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا و الواو في و الجنة واو مع و قد روي بالعطف بالرفع على أنه معطوف على هم و الأول أحسن. ثم وصفهم بحزن القلوب و نخافة الأجسام و عفة الأنفس و خفة الحوائج و أن شرورهم مأمونة على الناس و أنهم صبروا صبرا يسيرا أعقبهم نعيما طويلا. ثم ابتدأهم فقال تجارة مربحة أي تجارتهم تجارة مربحة فحذف المبتدأ و روي تجارة مربحة بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل. قوله أما الليل بالنصب على الظرفية و روي أما الليل على الابتداء. قوله تالين منصوب على أنه حال إما من الضمير المرفوع بالفاعلية في صافون أو من الضمير المجرور بالإضافة في أقدامهم.

و الترتيل التبيين و الإيضاح و هو ضد الإسراع و العجل و يروى يترلونه على أن الضمير يعود إلى القرآن و الرواية الأولى يعود الضمير فيها إلى أجزاء القرآن. قوله يجزنون به أنفسهم أي يستجلبون لها الحزن به و يستشيرون به دواء دائهم إشارة إلى البكاء فإنه دواء داء الحزين قال الشاعر:

فقلت لها إن البكاء لراحة به يشتفي من ظن أن لا تلاقيا
و قال آخر:

شجاك من ليلتك الطول فالدمع من عينيك مسدول
و هو إذا أنت تأملتته حزن على الخدين محلول
ثم ذكر أنهم إذا مروا بآية فيها ذكر الثواب مالوا إليها و اطمأنوا بها طمعا في نيله و تطلعت أنفسهم إليها شوقا أي اشترأت. و نصب أعينهم منصوب على الظرفية و روي بالرفع على أنه خبر أن و الظن هاهنا يمكن أن يكون على حقيقته و يمكن أن يكون بمعنى العلم كقوله تعالى (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ) و أصغى إلى الكلام مال إليه بسمعه و زفير النار صوتها. و قد جاء في فضل قراءة القرآن شيء كثير

روي عن النبي ص أنه قال من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله و قال ص لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار و قال أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن

وقال أهل القرآن أهل الله و خاصته و قال إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل فما جلاؤها قال تلاوة القرآن و ذكر الموت و قال ع إن الله سبحانه لأشد أذنا إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قيئته و قال الحسن عليه السلام ما دون القرآن من غنى و لا بعد القرآن من فاقة. ثم ذكر ع صورة صلاتهم و ركوعهم فقال حانون على أوساطهم حنيت العود عطفته يصف هيئة ركوعهم و انحنائهم في الصلاة. مفترشون لجباههم باسطون لها على الأرض. ثم ذكر الأعضاء السبعة التي مباشرتها بالأرض فروض في الصلاة و هي الجبهة و الكفان و الركبتان و القدمان. قوله ع يطلبون إلى الله أي يسألونه يقال طلبت إليك في كذا أي سألتك و الكلام على الحقيقة مقدر فيه حال محذوفة يتعلق بها حرف الجر أي يطلبون سائلين إلى الله في فكأك رقابهم لأن طلب لا يتعدى بحرف الجر. ثم لما فرغ من ذكر الليل قال و أما النهار فحلمااء علماء أبرار أتقياء هذه الصفات هي التي يطلع عليها الناظرون لهم نهارا و تلك الصفات المتقدمة من وظائف الليل. ثم ذكر ما هم عليه من الخوف فقال ع إن خوفهم قد براهم بري

القداح و هي السهام واحدها قدح فينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى و ما بهم من مرض
نظير هذا قول الشاعر:

و محرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رفع اللواء رأيتاه تحت اللواء على الخميس زعيما
و يقال للمتقين لشدة خوفهم كأنهم مرضى و لا مرض بهم و تقول العرب للكرام من الناس
القليلي المأكول و المشرب رافضي اللباس الرفيع ذوي الأجسام النحيطة مراض من غير مرض و
يقولون أيضا للمرأة ذات الطرف الغضيب الفاتر ذات الكسل مريضة من غير مرض قال الشاعر:
ضعيفة كر الطرف تحسب أنها حديثه عهد بالإفاقة من سقم

ذكر الخوف و ما ورد فيه من الآثار

و اعلم أن الخوف مقام جليل من مقامات العارفين و هو أحد الأركان التي هي أصول هذا الفن و هو التقوى التي حث الله تعالى عليها و قال إن أكرم الناس عنده أشدهم خوفا له و في هذه الآية وحدها كفاية و إذا نظرت القرآن العزيز وجدت أكثره ذكر المتقين و هم الخائفون و قال النبي ص من خاف الله خافه كل شيء و من خاف غير الله خوفه الله من كل شيء و قال ع أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا و أحسنكم فيما أمر به و نهى عنه نظرا. و قال يحيى بن معاذ مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة. و قال ذو النون المصري ينبغي أن يكون الخوف أغلب من الرجاء فإن الرجاء إذا غلب تشوش القلب. و قيل لبعض الصالحين من آمن الخلق غدا قال أشدهم خوفا اليوم. و قيل للحسن يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام من أصحابك يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال إنك و الله لأن تصحب قوما يخوفونك حتى تدرك الأمن خير لك من أن تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف.

و قيل للنبي ص في قوله تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ) هم الذين يعصون و يخافون المعصية قال لا بل الرجل يصوم و يتصدق و يخاف ألا يقبل منه

و قال ص ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله أو قطرة دم أريقتم في سبيل الله

وقال ع سبعة يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله و ذكر منهم رجلا ذكر الله في خلوة ففاضت عيناه. قوله ع و يقول قد خولطوا أي أصابتهم جنة. ثم قال و لقد خالطهم أمر عظيم أي مازجهم خوف عظيم تولهوا لأجله فصاروا كالمجانين. ثم ذكر أنهم لا يستكثرون في كثير من أعمالهم و لا يرضيهم اجتهدهم و أنهم يتهمون أنفسهم و ينسبونها إلى التقصير في العبادة و إلى هذا نظر المتنبي فقال:

يستصغر الخطر الكبير لنفسه و يظن دجلة ليس تكفي شاربا
قال و من أعمالهم مشفقون أي مشفقون من عباداتهم ألا تقبل و إلى هذا نظر أبو تمام فقال:
يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسبنا آثام
و مثل قوله أنا أعلم بنفسي من غيري قوله ع لمن زكاه نفاقا أنا دون ما تقول و فوق ما في نفسك. و قوله اللهم لا تؤاخذني بما يقولون إلى آخر الكلام مفرد مستقل بنفسه منقول عنه ع أنه قال لقوم مر عليهم و هم مختلفون في أمره فمنهم الحامد له و منهم الذام فقال اللهم لا تؤاخذني الكلمات إلى آخرها و معناه اللهم

إن كان ما ينسبه الدامون إلى من الأفعال الموجبة الذم حقا فلا تؤاخذني بذلك و اغفر لي ما لا يعلمونه من أفعالي و إن كان ما يقوله الحامدون حقا فاجعلني أفضل مما يظنونه في : فَمَنْ عَلاَمَةُ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ وَ حَزْمًا فِي لَيْنٍ وَ إِيمَانًا فِي يَقِينٍ وَ حِرْصًا فِي عِلْمٍ وَ عِلْمًا فِي حِلْمٍ وَ قَصْدًا فِي غِيٍّ وَ حُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ وَ تَحُمُّلًا فِي فَاقَةٍ وَ صَبْرًا فِي شِدَّةٍ وَ طَلَبًا فِي خِلَالٍ وَ نَشَاطًا فِي هُدًى وَ تَحَرُّجًا عَنْ طَمَعٍ يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَ هُوَ عَلَى وَجَلٍ يُمَسِّي وَ هُمُ الشُّكْرُ وَ يُصْبِحُ وَ هُمُ الذِّكْرُ يَبِيتُ حَذَرًا وَ يُصْبِحُ فَرَحًا حَذَرًا لَمَّا حَذَرَ مِنَ الْعَقْلَةِ وَ فَرَحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَ الرَّحْمَةِ إِنْ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ وَ زَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى يَمْرُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ وَ الْقَوْلَ بِالْعَمَلِ تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلُهُ قَلِيلًا زَلَلَهُ خَاشِعًا قَلْبُهُ قَانِعَةً نَفْسُهُ مَنُزُورًا أَكَلَهُ سَهْلًا أَمْرُهُ حَرِيزًا دِينُهُ مَيِّتَةٌ شَهْوَتُهُ مَكْظُومًا غَيْظُهُ الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ وَ الشُّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ إِنْ كَانَ فِي الْعَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ وَ إِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْعَافِلِينَ

يَعْمُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَ يُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ وَ يَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ بَعِيداً فُحْشُهُ لَيْناً قَوْلُهُ غَائِباً مُنْكَرُهُ
حَاضِراً مَعْرُوفُهُ مُقْبِلاً خَيْرُهُ مُدْبِراً شَرُّهُ فِي الرِّلَازِلِ وَثُورٌ وَ فِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ وَ فِي الرِّخَاءِ شُكُورٌ لَا
يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ وَ لَا يَأْتُمُ فِيمَنْ يُحِبُّ يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ لَا يُضِيعُ مَا
أُسْتُحْفِظَ وَ لَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ وَ لَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ وَ لَا يُضَارُّ بِالْجَارِ وَ لَا يَشْتُمُ بِالْمَصَائِبِ وَ لَا
يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ وَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ إِنْ صَمَتَ لَمْ يَعْمَهُ صَمْتُهُ وَ إِنْ ضَحَكَ لَمْ يَغْلُ صَوْتُهُ وَ إِنْ
بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ وَ النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ أَنْعَبَ
نَفْسَهُ لِأَخْرَجِهِ وَ أَرَاخَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ بُعْدَهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَ نَزَاهَةٌ وَ دُنُوهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ
وَ رَحْمَةٌ لَيْسَ تَبَاعَدُهُ بِكِبَرٍ وَ عَظَمَةٌ وَ لَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَ خَدِيعَةٍ قَالَ فَصَبَقَ هَمَامٌ صَعْقَةً كَانَتْ نَفْسُهُ
فِيهَا فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَ أَمَا وَ اللَّهُ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ
بِأَهْلِهَا فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ فَمَا بِأَلْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ عَ وَجْهَكَ إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوهُ وَ
سَبَباً لَا يَتَجَاوَزُهُ فَمَهْلًا لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ

هذه الألفاظ التي أولها قوة في دين بعضها يتعلق حرف الجر فيه بالظاهر فيكون موضعه نصبا بالمفعولية و بعضها يتعلق بمحذوف فيكون موضعه نصبا أيضا على الصفة و نحن نفصلها.فقوله قوة في دين حرف الجر هاهنا متعلق بالظاهر و هو قوة تقول فلان قوي في كذا و على كذا كما تقول مررت بكذا و بلغت إلى كذا.و و حزما في لين هاهنا لا يتعلق حرف الجر بالظاهر لأنه لا معنى له أ لا ترى أنك لا تقول فلان حازم في اللين لأن اللين ليس أمرا يحزم الإنسان فيه و ليس كما تقول فلان حازم في رأيه أو في تديره فوجب أن يكون حرف الجر متعلقا بمحذوف تقديره و حزما كائنا في لين.و كذلك قوله و إيماننا في يقين حرف الجر متعلق بمحذوف أي كائنا في يقين أي مع يقين.فإن قلت الإيمان هو اليقين فكيف قال و إيماننا في يقين قلت الإيمان هو الاعتقاد مضافا إلى العمل و اليقين هو سكون القلب فقط فأحدهما غير الآخر.قوله و حرصا في علم حرف الجر هاهنا يتعلق بالظاهر و في بمعنى على كقوله تعالى (لَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ).قوله و قصدا في غنى حرف الجر متعلق بمحذوف أي هو مقتصد مع كونه غنيا و ليس يجوز أن يكون متعلقا بالظاهر لأنه لا معنى لقولك اقتصد في الغنى إنما يقال اقتصد في النفقة و ذلك الاقتصاد موصوف بأنه مقارن للغنى و مجامع له.

قوله و خشوعا في عبادة حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين معا. قوله و تجملا في فاقة حرف الجر هاهنا متعلق بمحذوف و لا يصح تعلقه بالظاهر لأنه إنما يقال فلان يتجمل في لباسه و مروءته مع كونه ذا فاقة و لا يقال يتجمل في الفاقة على أن يكون التجمل متعديا إلى الفاقة. قوله و صبرا في شدة حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين. قوله و طلبا في حلال حرف الجر هاهنا يتعلق بالظاهر و في بمعنى اللام. قوله و نشاطا في هدى حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين. قوله و تخرجنا عن طمع حرف الجر هاهنا يتعلق بالظاهر لا غير. قوله يعمل الأعمال الصالحة و هو على وجل قد تقدم مثله. قوله يمسي و همه الشكر هذه درجة عظيمة من درجات العارفين و قد أثنى الله تعالى على الشكر و الشاكرين في كتابه في مواضع كثيرة نحو قوله (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ أَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) فقرن الشكر بالذكر. و قال تعالى (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ). و قال تعالى (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ). و لعلو مرتبة الشكر طعن إبليس في بني آدم فقال (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) و قد صدقه الله تعالى في هذا القول فقال (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

و قال بعض أصحاب المعاني قد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر و لم يستثن فقال (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) و استثنى في خمسة أمور و هي الإغناء و الإجابة و الرزق و المغفرة و التوبة. فقال (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ). و قال (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ). و قال (يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ). و قال (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ). و قال (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ). و قال بعضهم كيف لا يكون الشكر مقاما جليلا و هو خلق من أخلاق الربوبية قال تعالى في صفة نفسه (وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ). و قد جعل الله تعالى مفتاح كلام أهل الجنة فقال (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ) و جعله خاتمة كلامهم أيضا فقال (وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

و قيل للنبي ص قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر فلم تقوم الليل و تتعب نفسك قال أ فلا أكون عبدا شكورا.

قوله ع و يصبح و همه الذكر هذه أيضا درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين قال تعالى
(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) قال بعض العارفين لأصحابه أنا أعلم متى يذكرني ربي ففزعوا منه فقال
إذا ذكرته ذكرني و تلا الآية فسكتوا. و قال (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا). و قال
(فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ). و قال (فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا). و
قال (فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ). و قال (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ). و قال في ذم المنافقين (وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا). و
قال (وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً). و قال (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ). و قال النبي ص ذاك
الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم و قال ص من أحب أن يرتع في رياض الجنة
فليكثر من ذكر الله

و سئل ع أي الأعمال أفضل قال أن تموت و لسانك رطب بذكر الله و قال ص حكاية عن الله تعالى إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي و إذا ذكرني في مأل ذكرته في مأل خير من ملئه و إذا تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا و إذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا و إذا مشى إلي هرولت إليه و قال ص ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة و غشيتهم الرحمة و ذكرهم الله فيمن عنده. قوله ع يبيت حذرا و يصبح فرحا حذرا لما حذر من الغفلة و فرحا بما أصاب من الفضل و الرحمة. و قد تقدم ذكر الخوف. و قد عرض ع هاهنا بالرجاء المقابل للخوف فإن فرح العارف بما أصاب من الفضل و الرحمة يمكن أن يحمل على أنه فرح بمجرد ما أصاب من فضل الله و رحمته. و يمكن أن يحمل على أنه فرح بما يرجوه من ثواب الله و نعيمه لذا استدل على وصوله إليه و قوي ظنه بظفره به بما عجل الله تعالى له من الفضل و الرحمة في الدنيا و مقام الرجاء للعارفين مقام شريف و هو في مقابلة مقام الخوف و هو المقام الذي يوجد العارف فيه فرحا قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ)

و قال النبي ص حكاية عن الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء
دخل ص على رجل من أصحابه و هو يجود بنفسه فقال كيف تجددك قال أجدني أخاف
ذنوبي و أرجو رحمة ربي فقال ص ما اجتماعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجاه و
أمنه مما خافه. قوله ع إن استصعبت عليه نفسه أي صارت صعبة غير منقادة يقول إذا لم تطاوعه
نفسه إلى ما هي كارهة له لم يعطها مرادها فيما تحبه. قوله ع قرّة عينه فيما لا يزول و زهادته فيما
لا يبقى يقال للفرح المسرور إنه لقرير العين و قرت عينه تقرر و المراد بردها لأن دمة السرور باردة
و دمة الحزن حارة. و هذا الكلام يحتمل أمرين أحدهما أن يعني بما لا يزول البارئ سبحانه و هذا
مقام شريف جدا أعظم من سائر المقامات و هو حب العارف لله سبحانه و قد أنكره قوم فقالوا
لا معنى لمحبة البارئ إلا المواظبة على طاعته و نحوه قول أصحابنا المتكلمين إن محبة الله تعالى للعبد
هي إرادته لثوابه و محبة العبد للبارئ هي إرادته لطاعته فليست المحبة عندهم شيئا زائدا على الإرادة
و لا يجوز أن تتعلق بذات الله سبحانه لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالحدوث و خالفهم شيخنا أبو
الحسن فقال إن الإرادة يمكن أن تتعلق بالباقي ذكر ذلك في الكلام في الأكوان في أول التصفح
فأما إثبات الحب في الجملة فقد نطق به القرآن قال سبحانه (يُحِبُّهُمْ)

وَيُحِبُّونَهُ) و قال أيضا (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) و قال (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) و في الحديث أن النبي ص نظر إلى مصعب بن عمير مقبلا و عليه إهاب كبش قد تمنطق به فقال انظروا إلى الرجل الذي قد نور الله قلبه لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام و الشراب فدعاه حب الله و رسوله إلى ما ترون و يقال إن عيسى ع مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم و تغيرت ألوانهم فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الخوف من النار قال حق على الله أن يؤمن من يخافه ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا و تغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق إلى الجنة فقال حق على الله أن يعطي من رجاه ثم مر إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا و على وجوههم مثل المرائي من النور فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا حب الله عز و جل فقال أنتم المقربون ثلاثا. و قال بعض العارفين

أحبك حين حب الهوى	و حبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواكا
و أما الذي أنت أهل له	فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد من ذا و لا ذاك لي	و لكن لك الحمد في ذا و ذاك

ليس يريد بكشف الحجب و الرؤية ما يظنه الظاهريون من أنها الإبصار بالعين بل المعرفة التامة و ذلك لأن المعارف النظرية يصح أن تصير ضرورية عند جمهور أصحابنا فهذا أحد محملي الكلام. و ثانيهما أن يريد بما لا يزول نعيم الجنة و هذا أدون المقامين لأن الخالص من العارفين يحبونه و يعشقونه سبحانه لذاته لا خوفا من النار و لا شوقا إلى الجنة و قد قال بعضهم لست أرضى لنفسي أن أكون كأجير السوء إن دفعت إليه الأجرة رضي و فرح و إن منعها سخط و حزن إنما أحبه لذاته. و قال بعض شعرائهم شعرا من جملته:

فهجره أعظم ممن ناره و وصله أطيب من جنته
و قد جاء في كلام أمير المؤمنين ع من هذا الكثير نحو قوله لم أعبدته خوفا و لا طمعا لكي وجدته أهلا للعبادة فعبدته. قوله ع يمزج الحلم بالعلم أي لا يحلم إلا عن علم بفضل الحلم ليس كما يحلم الجاهلون. قوله و القول بالعمل أي لا يقتصر على القول و مثل هذا قول الأخصص:
و أراك تفعل ما تقول و بعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل
قوله ع تراه قريبا أمله أي ليست نفسه متعلقة بما عظم من آمال الدنيا و إنما قصارى أمره أن يؤمل القوت و الملبس قليلا زلله أي خطؤه. قوله منزورا أكله أي قليلا و يحمد من الإنسان الأكل النزر قال أعشى باهلة

تكفيه حزة فلذ إن ألم بها من الشواء و يكفي شربه الغمر
و قال متمم بن نويرة

لقد كفن المنهال تحت رداءه فتى غير مبطان العشيات أروعا
قوله ع مكظوما غيظه كظم الغيظ من الأخلاق الشريفة قال زيد بن علي ع ما سرتني بجرعة
غيظ أخرجها و أصبر عليها حمر النعم. و جاء رجل إلى الربيع بن زياد الحارثي فقال يا أبا عبد
الرحمن إن فلانا يغتابك و ينال منك فقال و الله لأغيطان من أمره بذلك قال الرجل و من أمره
قال الشيطان عدو الله استغواه ليؤثمه و أراد أن يغضبني عليه فأكافئه و الله لا أعطيه ما أحب من
ذلك غفر الله لنا و له. و جهل إنسان على عمر بن عبد العزيز فقال أظنك أردت أن يستفزني
الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا انصرف عافاك الله. و قال النبي ص
الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل و قال إنسان لرسول الله ص أوصني فقال لا
تغضب فأعاد عليه السؤال فقال لا تغضب فقال زدني فقال لا أجد مزيدا. و من كلام بعض
الحكماء لا يفي عز الغضب بذلة الاعتذار.

قوله إن كان في الغافلين معناه أنه لا يزال ذاكر الله تعالى سواء كان جالسا مع الغافلين أو مع الذاكرين أما إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلبه و أما إذا كان مع الذاكرين فإنه يذكر بقلبه و لسانه. قوله ع يعفو عمن ظلمه و يعطي من حرمه و يصل من قطعه من كلام المسيح ع في الإنجيل أحبوا أعداءكم و صلوا قاطعيكم و اعفوا عن ظالميكم و باركوا على لاعنيكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء الذي تشرق شمس على الصالحين و الفجرة و ينزل مطره على المطيعين و الأثمة. قوله ع بعيدا فحشه ليس يعني به أنه قد يفحش تارة و يترك الفحش تارات بل لا فحش له أصلا فكفى عن العدم بالبعد لأنه قريب منه. قوله لنا قوله العارف بسام طلق الوجه لين القول و في صفات النبي ص ليس بفظ و لا صخاب. قوله في الزلازل وقور أي لا تحركه الخطوب الطارقة و يقال إن علي بن الحسين ع كان يصلي فوقع عليه حية فلم يتحرك لها ثم انسابت بين قدميه فما حرك إحداها عن مكانه و لا تغير لونه. قوله لا يحيف على من يبغض هذا من الأخلاق الشريفة النبوية و في كلام أبي بكر في صفات من يصلح للإمامة إن رضي لم يدخله رضاه في باطل و إن غضب لم يخرجه غضبه عن الحق. قوله يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه لأنه إن أنكر ثم شهد عليه فقد ثبت كذبه و إن سكت ثم شهد عليه فقد أقام نفسه في مقام الريبة.

قوله و لا يَنَابِزُ بِالألقاب هذا من قوله تعالى (وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ) .قوله و لا يضار بالجار في الحديث المرفوع أوصاني ربي بالجار حتى ظننت أن يورثه قوله و لا يشمت بالمصائب نظير قول الشاعر:

فلسـت تـراه شـامـتا بمـصـيـبة و لا جزعا من طارق الحدثان
قوله إن صمت لم يغمه صمته أي لا يحزن لفوات الكلام لأنه يرى الصمت مغنما لا مغرما. قوله و إن ضحك لم يعل صوته هكذا كان ضحك رسول الله ص أكثره التبسم و قد يفر أحيانا و لم يكن من أهل القهقهة و الكركرة. قوله و إن بغي عليه صبر هذا من قول الله تعالى (ثُمَّ بُعِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ) .قوله نفسه منه في عناء لأنه يتعبها بالعبادة و الناس لا يلقون منه عنتا و لا أذى فحالمهم بالنسبة إليه خلاف حال نفسه بالنسبة إليه. قوله فصعق همام أغمي عليه و مات قال الله تعالى (فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)

ذكر بعض أحوال العارفين

و اعلم أن الوجد أمر شريف قد اختلف الناس فيه فقالت الحكماء فيه أقوالا و قالت الصوفية فيه أقوالا أما الحكماء فقالوا الوجد هو حالة تحدث للنفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة إذا كان قد ورد عليها وارد مشوق و قال بعضهم الوجد هو اتصال النفس بمبادئها المجردة عند سماع ما يقتضي ذلك الاتصال. و أما الصوفية فقد قال بعضهم الوجد رفع الحجاب و مشاهدة المحبوب و حضور الفهم و ملاحظة الغيب و محادثة السر و هو فناؤك من حيث أنت أنت و قال بعضهم الوجد سر الله عند العارفين و مكاشفة من الحق توجب الفناء عن الحق. و الأقوال فيه متقاربة في المعنى و إن اختلفت العبارة و قد مات كثير من الناس بالوجد عند سماع وعظ أو صفقة مطرب و الأخبار في هذا الباب كثيرة جدا و قد رأينا نحن في زماننا من مات بذلك فجأة. قوله كانت نفسه فيها أي مات و نفث الشيطان على لسانك أي تكلم بلسانك و أصله النفخ بالفم و هو أقل من التفل و إنما نهي أمير المؤمنين القائل فهلا أنت يا أمير المؤمنين لأنه اعترض في غير موضع الاعتراض و ذلك أنه لا يلزم من موت العامي عند وعظ العارف أن يموت العارف عند وعظ نفسه لأن انفعال العامي ذي الاستعداد التام للموت عند سماع المواعظ البالغة أتم من استعداد العارف عند سماع كلام

نفسه أو الفكر في كلام نفسه لأن نفس العارف قوية جدا و الآلة التي يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجر. فإن قلت فإن جواب أمير المؤمنين ع للسائل غير هذا الجواب قلت صدقت إنما أجابه من حيث يعلم هو و السامعون و تصل أفهامهم إليه فخرج معه إلى حديث الآجال و أنها أوقات مقدرة لا تتعدها و ما كان يمكنه ع أن يذكر الفرق بين نفسه و نفوسهم و لا كانت الحال تقتضيه فأجابه بجواب مسكت و هو مع إسكاته الخصم حق و عدل عن جواب يحصل منه اضطراب و يقع فيه تشويش و هذا نهاية السداد و صحة القول

١٨٧ و من خطبة له ع يصف فيها المنافقين

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ وَ دَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَ نَسَأْلُهُ لِمَنَّتِهِ تَمَاماً وَ لِحَبْلِهِ بِحَبْلِهِ
إِعْتِصَاماً وَ نَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلَّ غَمْرَةٍ وَ تَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ وَ
قَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الْأَذْنُونَ وَ تَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ وَ خَلَعَتْ عَلَيْهِ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا وَ ضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ
بُطُونَ رَوَّاحِلَهَا حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عِدَاوَتَهَا مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ وَ أَسْحَقِ الْمَزَارِ أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ
بِتَقْوَى اللَّهِ وَ أُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ الْبَقَاكِ فَإِنَّهُمْ الْضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ وَ الزَّالُّونَ الْمُرْلُونِ يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً وَ
يَفْتَنُونَ إِفْتِنَاناً وَ يَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ وَ يَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ فُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ وَ صِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ
يَمْشُونَ الْخَفَاءَ وَ يَدِبُونَ الضَّرَاءَ وَضْفُهُمْ دَوَاءٌ وَ قَوْلُهُمْ شِفَاءٌ وَ فِعْلُهُمْ الدَّاءُ الْعِيَاءُ حَسَدُهُ الرَّحَاءُ وَ
مُؤَكِّدُو الْبَلَاءِ وَ مُفْنِطُو الرَّجَاءِ هُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ وَ إِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ وَ لِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ
يَتَقَارِضُونَ التَّنَاءَ وَ يَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ إِنْ سَأَلُوا أَخْفُوا وَ إِنْ عَدَلُوا كَشَفُوا وَ إِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا وَ لِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا وَ لِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا وَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا وَ لِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحًا يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ وَ يُنْفِقُوا بِهِ أَغْلَافَهُمْ يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ وَ يَصِفُونَ فَيَمَوِّهُونَ قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ وَ أَضَلُّوا الْمَضِيقَ فَهُمْ لُئِمَةُ الشَّيْطَانِ وَ حُمَةُ الْبَيْرَانِ (أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) الضمير في له و هو الهاء راجع إلى ما التي بمعنى الذي و قيل بل هو راجع إلى الله سبحانه كأنه قال نحمده على ما وفق من طاعته و الصحيح هو الأول لأن له في الفقرة الأولى بإزاء عنه في الفقرة الثانية و الهاء في عنه ليست عائدة إلى الله و زاد طرد و المصدر الذيادة. و خاض كل غمرة مثل قولك ارتكب كل مهلكة و تقحم كل هول و الغمرة ما ازدحم و كثر من الماء و كذلك من الناس و الجمع غمار. و الغصة الشجرا و الجمع غصص. و تلون له الأدنون تغير عليه أقرابه ألوانا. و تألب عليه الأقصون تجمع عليه الأبعدون عنه نسبا. و خلعت إليه العرب أعنتها مثل معناه أوجفوا إليه مسرعين لمحاربتة لأن الخيل إذا خلعت أعنتها كان أسرع لجريها. و ضربت إلى محاربتة بطون رواحلها كناية عن إسراع العرب نحوه للحرب

لأن الرواحل إذا ضربت بطونها لتساق كان أوحى لها و مراده أنهم كانوا فرسانا و ركبانا. قوله حتى أنزلت بساحته عداوتها أي حربها فعبر عنها بالعداوة لأن العداوة سبب الحرب فعبر بالسبب عن المسبب ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناك يعنون الماء لما كان اعتقادهم أن السماء سبب الماء. و أسحق المزار أبعد مكان سحيق أي بعيد و السحق بضم السين البعد يقال سحقا له و يجوز ضم الحاء كما قالوا عسر و عسر و سحق الشيء بالضم أي بعد و أسحقه الله أبعد و المزار المكان الذي يزار منه أو المكان الذي يزار فيه و المراد هاهنا هو الأول و من قرأ كتب السيرة علم ما لاقى رسول الله ص في ذات الله سبحانه من المشقة و استهزاء قريش به في أول الدعوة و رميهم إياه بالحجارة حتى أدموا عقيقه و صياح الصبيان به و فرث الكرش على رأسه و فتل الثوب في عنقه و حصره و حصر أهله في شعب بني هاشم سنين عدة محرمة معاملتهم و مبايعتهم و مناكتهم و كلامهم حتى كادوا يموتون جوعا لو لا أن بعض من كان يحنو لرحم أو لسبب غيره فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلا ثم ضربهم أصحابه و تعذيبهم بالجوع و الوثاق في الشمس و طردهم إياهم عن شعاب مكة حتى خرج من خرج منهم إلى الحبشة و خرج ع مستجيرا منهم تارة بثقيف و تارة ببني عامر و تارة بربيعة الفرس و بغيرهم ثم أجمعوا على قتله و الفتك به ليلا حتى هرب منهم لائذا بالأوس و الخزرج تاركاً أهله و أولاده و ما حوته يده ناجيا بحشاشة نفسه حتى وصل إلى المدينة فناصره فناصر و رموه بالمناسر و الكتائب و ضربوا إليه آباط الإبل

و لم يزل منهم في عناء شديد و حروب متصلة حتى أكرمهم الله تعالى و نصره و أيد دينه و أظهره
و من له أنس بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه. سمي النفاق نفاقاً من
النافقاء و هي بيت اليربوع له بابان يدخل من أحدهما و يخرج من الآخر و كذلك الذي يظهر
دينا و يبطن غيره. و الضالون المضلون الذين يضلون أنفسهم و يضلون غيرهم و كذلك الزالون
الزلون زل فلان عن الأمر أي أخطأ و أزله غيره. قوله يفتنون يتشعبون فنونا أي ضروبا. و
يعمدونكم أي يهدونكم و يفتحونكم يقال عمده المرض يعمده أي هده و منه قولهم للعاشق
عميد القلب. قوله بعماد أي بأمر فادح و خطب مؤلم و أصل العمدة انشداخ سنام البعير و ماضيه
عمد السنام بالكسر عمدا فهو عمدة. و يرصدونكم يعدون المكائد لكم أرصدت أعددت و منه
في الحديث إلا أن أرصده لدين علي. و قلب دو بالتخفيف أي فاسد من داء أصابه و امرأة
دوية فإذا قلت رجل دوي بالفتح استوى فيه المذكر و المؤنث و الجماعة لأنه مصدر في الأصل و
من روى دوية بالتشديد على بعده وإنما شددته ليقابل نقية. و الصفاح جمع صفحة الوجه و هي
ظاهره يقول باطنهم عليل و ظاهريهم صحيح يمشون الخفاء أي في الخفاء ثم حذف الجار فنصب
و كذلك يدبون الضراء

و الضراء شجر الوادي الملتف و هذا مثل يضرب لمن يختل صاحبه يقال هو يدب له الضراء و
يمشي له الخمر و هو جرف الوادي ثم قال وصفهم داء و قولهم شفاء و فعلهم الداء العياء أي
أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين و أفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين و الداء العياء الذي يعيي
الأساة. ثم قال حسدة الرخاء يحسدون على النعم و مؤكدو البلاء إذا وقع واحد من الناس في بلاء
أكدوه عليه بالسعائيات و النمائ و إغراء السلطان به و لقد أحسن أبو الطيب في قوله يذم
البشر:

و كأننا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعاناه من أعانا
كلمنا أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
و مقنطو الرجاء أي أهل الرجاء أي يدلون بشروهم و أذاهم رجاء الراجي قنوطا. قوله و إلى
كل قلب شفيع يصف خلافة ألسنتهم و شدة ملقهم فقد استحوذوا على قلوب الناس بالرياء و
التصنع. قوله و لكل شجو دموع الشجو الحزن أي يبكون تباكيا و تعملا لا حقا عند أهل كل
حزن و مصاب. يتقارضون الثناء أي يثني زيد على عمرو ليثني عمرو عليه في ذلك المجلس أو يبلغه
فيثني عليه في مجلس آخر مأخوذ من القرض. و يتراقبون الجزاء يرتقب كل واحد منهم على ثنائه و
مدحه لصاحبه جزاء منه

إما بالمال أو بأمر آخر نحو ثناء يثني عليه أو شفاعة يشفع له أو نحو ذلك. و الإلحاف في السؤال الاستقصاء فيه و هو مذموم قال الله تعالى (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا). قوله و إن عدلوا كشفوا أي إذا عدلك أحدهم كشف عيوبك في ذلك اللوم و العذل و جبهك بها و ربما لا يستحي أن يذكرها لك بمحضر ممن لا تحب ذكرها بحضرته و ليسوا كالناصحين على الحقيقة الذين يعرضون عند العتاب بالذنب تعريضا لطيفا ليقلع الإنسان عنه. و إن حكموا أسرفوا إذا سألك أحدهم ففوضته في مالك أسرف و لم يقنع بشيء و أحب الاستئصال. قد أعدوا لكل حق باطلا يقيمون الباطل في معارضة الحق و الشبهة في مصادمة الحجة و لكل دليل قائم و قول صحيح ثابت احتجاجة مائلا مضادا لذلك الدليل و كلاما مضطربا لذلك القول. و لكل باب مفتاحا أي ألسنتهم ذلقة قادرة على فتح المغلقات للطف توصلهم و ظرف منطقهم. و لكل ليل مصباحا أي كل أمر مظلم فقد أعدوا له كلاما ينيره و يضيئه و يجعله كاللمصباح الطارد لليل. و يتوصلون إلى مطامعهم بإظهار اليأس عما في أيدي الناس و بالزهد في الدنيا و في الأثر شركم من أخذ الدنيا بالدين. ثم قال إنما فعلوا ذلك ليقيموا به أسواقهم أي لتنفق سلعتهم.

و الأعلاق جمع علق و هو السلعة الثمينة.يقولون فيشبهون يوقعون الشبه في القلوب.و يصفون فيموهون التمويه التزيين و أصله أن تطلي الحديد بذهب يحسنها.قد هيئوا الطريق أي الطريق الباطل قد هيئوها لتسلل بتمويهاتهم.و أضلعوا المضيق أمالوه و جعلوه ضلعا أي معوجا أي جعلوا المسلك الضيق معوجا بكلامهم و تلبسهم فإذا أسلكوه إنسانا اعوج لاعوجاجه.و اللمة بالتخفيف الجماعة و الحمة بالتخفيف أيضا السم و كنى عن إحراق النار بالحمة للمشاهدة في المضرة

١٨٨ و من خطبة له ع

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ وَ جَلَالَ كِبَرِيَّائِهِ مَا حَيَّرَ مُقَلَّ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ
وَ رَدَّ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِزِّهِ كُنْهِ صِفَتِهِ وَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً إِيمَانٍ وَ
إِيقَانٍ وَ إِخْلَاصٍ وَ إِذْعَانٍ وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَ أَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَتُهُ وَ مَنَاهِجُ
الدِّينِ طَامِسَتُهُ فَصَدَعَ بِالْحَقِّ وَ نَصَحَ لِلخَلْقِ وَ هَدَى إِلَى الرُّشْدِ وَ أَمَرَ بِالْقَصْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ
وَ سَلَّمَ وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَ لَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ وَ أَحْصَى
إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ فَاسْتَفْتَحُوهُ وَ اسْتَنْجَحُوهُ وَ اطْلُبُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَمْنَحُوهُ فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ وَ لَا
أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ وَ إِنَّهُ إِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ وَ فِي كُلِّ حِينٍ وَ أَوَانٍ وَ مَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَ جَانٍ لَا
يَتْلُمُهُ الْعَطَاءُ وَ لَا يَنْقُصُهُ الْحَبَاءُ وَ لَا يَسْتَنْفِذُهُ سَائِلٌ وَ لَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ وَ لَا يَلُوبِهِ شَخْصٌ عَنْ
شَخْصٍ وَ لَا يُلْهِمُهُ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ وَ لَا تَخْجُزُهُ هَبَّةٌ عَنْ سَلْبٍ وَ لَا يَشْعُلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ وَ
لَا تُوهِنُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ وَ لَا يُجْنُهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ وَ لَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ قَرَبَ فَنَاءٍ
وَ عَلَا فِدْنًا وَ ظَهَرَ فَبَطْنٌ وَ بَطْنٌ فَعَلَنَ وَ دَانَ وَ لَمْ يَدْنُ لَمْ يَدْرَا الخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ وَ لَا اسْتِعَانَ بِهِمْ
لِكَلَالٍ

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا الرِّمَامُ وَالْقَوَامُ فَتَمَسَّكُوا بِوُثَائِقِهَا وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا تَوَلُّ
بِكُمْ إِلَى أَكْثَانِ الدَّعَةِ وَأُوطَانِ السَّعَةِ وَمَعَاقِلِ الْحَرْزِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ وَ
تُظْلَمُ لَهُ الْأَفْطَارُ وَ تُعْطَلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ وَ يُنْفَحُ فِي الصُّورِ فَتَرْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ وَ تَبْكُ كُلُّ لَهْجَةٍ
وَ تَذِلُّ الْكُتُبُ الشُّوَامِخُ وَالصُّمُ الرُّوَاسِخُ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَابًا زَفَرَقًا زَفَرَقًا وَ مَعْهَدُهَا قَاعًا سَمَلَقًا فَلَا
شَفِيعَ يَشْفَعُ وَ لَا حَمِيمَ يَنْفَعُ وَ لَا مَعْدِرَةَ تَدْفَعُ أَظْهَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ نَحْوَ خَلْقِ الْأَفْلَاكِ
وَ دُخُولِ بَعْضِهَا فِي بَعْضِ كَالْمَمِيلِ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى الْمَائِلِ وَ فَلَكَ التَّدْوِيرُ وَ غَيْرُهُمَا وَ نَحْوَ خَلْقِ
الْإِنْسَانِ وَ مَا تَدُلُّ كُتُبُ التَّشْرِيحِ مِنْ عَجِيبِ الْحِكْمَةِ فِيهِ وَ نَحْوَ خَلْقِ النَّبَاتِ وَ الْمَعَادِنِ وَ تَرْتِيبِ
العناصر و علاماتها و الآثار العلوية المتجددة حسب تجدد أسبابها ما حير عقول هؤلاء و أشعر
بأنها إذا لم يحط بتفاصيل تلك الحكم مع أنها مصنوعة فالأولى ألا تحيط بالصانع الذي هو بريء
عن المادة و علائق الحس. و المقل جمع مقلّة و هي شحمة العين التي تجمع السواد و البياض و
مقلت الشيء نظرت إليه بمقلتي و أضاف المقل إلى العقول مجازاً و مراده البصائر. و ردع زجر و
دفع و هاهم النفوس أفكارها و ما يهيمهم به عند التمثيل و الروية في الأمر و أصل المهمة
صويت يسمع لا يفهم محضوله.

و العرفان المعرفة و كنه الشيء نهايته و أقصاه و الإيقان العلم القطعي و الإذعان الانقياد و
الأعلام المنار و الجبال يستدل بها في الطرقات. و المناهج السبل الواضحة و الطامسة كالدارسة و
صدع بالحق بين و أصله الشق يظهر ما تحته و يقال نصحت لزيد و هو أفصح من قولك
نصحت زيدا. و القصد العدل. و العبث ما لا غرض فيه أو ما ليس فيه غرض مثله و الهمل الإبل
بلا راع و قد أهملت الإبل أرسلتها سدى. قوله علم مبلغ نعمه عليكم و أحصى إحسانه إليكم أي
هو عالم بكمية إنعامه عليكم علما مفصلا و كل من علم قدر نعمته على غيره كان أخرى أن
تشتد نقمته عليه عند عصيانه له و جرأته عليه بخلاف من يجهل قدر نعمته على الغير فإنه لا
يشد غضبه لأنه لا يعلم قدر نعمته المكفورة. قوله فاستفتحوه أي اطلبوا منه الفتح عليكم و النصر
لكم. و استنجحوه اطلبوا منه النجاح و الظفر. و اطلبوا إليه أي اسألوه يقال طلبت إلى زيد كذا و
في كذا. و استمنحوه بكسر النون اطلبوا منه المنحة و هي العطية و يروى و استميحوه بالياء
استمحت الرجل طلبت عطاءه و محت بالرجل أعطيته. ثم ذكر ع أنه لا حجاب يمنع عنه و لا
دونه باب يغلق و أنه بكل مكان موجود و في كل حين و أوان و المراد بوجوده في كل مكان
إحاطة علمه و هو معنى قوله

تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) و قوله سبحانه (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ). قوله لا يثلمه العطاء بالكسر لا ينقص قدرته. و الحباء النوال و لا يستنفده أي لا يفنيه. و لا يستقصيه لا يبلغ الجود أقصى مقدوره و إن عظم الجود لأنه قادر على ما لا نهاية له. و لا يلويه شخص عن شخص لا يوجب ما يفعله لشخص أو مع شخص إعراضا و ذهولا عن شخص آخر بل هو عالم بالجميع لا يشغله شأن عن شأن لوى الرجل وجهه أي أعرض و انحرف و مثل هذا أراد بقوله و لا يلهيه صوت عن صوت ألهاه كذا أي شغله. و لا تحجزه بالضم هبة عن سلب أي لا تمنعه أي ليس كالقادرين بالقدرة مثلنا فإن الواحد منا يصرفه اهتمامه بعطية زيد عن سلب مال عمرو حالما يكون مهتما بتلك العطية لأن اشتغال القلب بأحد الأمرين يشغله عن الآخر. و مثل هذا قوله و لا يشغله غضب عن رحمة و لا توله رحمة عن عقاب أي لا تحدث الرحمة لمستحقها عنده ولها و هو التحير و التردد و تصرفه عن عقاب المستحق و ذلك لأن الواحد منا إذا رحم إنسانا حدث عنده رقة خصوصا إذا توالى منه الرحمة لقوم متعددين فإنه تصير الرحمة كالملكة عنده فلا يطيق مع تلك الحال أن ينتقم و البارئ تعالى بخلاف ذلك لأنه ليس بذي مزاج سبحانه. و لا يجنه البطون عن الظهور و لا يقطع الظهور عن البطون هذه كلها مصادر بطن

بطونا أي خفي و ظهر ظهورا أي تجلى يقول لا يمنعه خفاؤه عن العقول أن تدركه عند ظهوره بأفعاله و إن لم يكن ظاهرا بذاته و كذلك لا يقطعه ظهوره بأفعاله عن أن يخفى كنهه عن إِبصار العقول و إدراكها له و يقال اجتنت كذا أي سترته و منه الجنين و الجنة للترس و سمي الجن جنا لاستتارهم. ثم زاد المعنى تأكيدا فقال قرب فنأى أي قرب فعلا فنأى ذاتا أي أفعاله قد تعلم و لكن ذاته لا تعلم. ثم قال و علا فدنا أي لما علا عن أن تحيط به العقول عرفته العقول لا أنها عرفت ذاته لكن عرفت أنه شيء لا يصح أن يعرف و ذلك خاصته سبحانه فإن ماهيته يستحيل أن تتصور للعقل لا في الدنيا و لا في الآخرة بخلاف غيره من الممكنات. ثم أكد المعنى بعبارة أخرى قال و ظهر فبطن و بطن فعلى و هذا مثل الأول و دان غلب و قهر و لم يدن لم يقهر و لم يغلب. ثم قال لم يذرا الخلق باحتيال أي لم يخلقهم بحيلة توصل بها إلى إيجادهم بل أوجدتهم على حسب علمه بالمصلحة خلقا مخترعا من غير سبب و لا واسطة. قال و لا استعان بهم لكالل أي لإعياء أي لم يأمر المكلفين بالجهاد لحاجته في قهر أعدائه و جاحدي نعمته إليهم و ليس بكال و لا عاجز عن إهلاكهم و لكن الحكمة اقتضت ذلك قال سبحانه (وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) أي لبطل التكليف. ثم ذكر أن التقوى قوام الطاعات التي تقوم بها و زمام العبادات لأنها تمسك و تحصن كزمام الناقة المانع لها من الخبط.

و الوثائق جمع وثيقة و هي ما يوثق به و حقائقها جمع حقيقة و هي الراية يقال فلان حامي الحقيقة. قوله تؤل بالجزم لأنه جواب الأمر أي ترجع. و الأكنان جمع كن و هو الستر و الدعة الراحة السعة الجدة و المعازل جمع معزل و هو الملجأ و الحرز الحفظ و تشخص الأبصار تبقى مفتوحة لا تطرف. و الأقطار الجوانب و الصروم جمع صرم و صرمة و هي القطعة من الإبل نحو الثلاثين. و العشار النوق أتى عليها من يوم أرسل الفحل فيها عشرة أشهر فزال عنها اسم المخاض و لا يزال ذلك اسمها حتى تضع و الواحدة عشاء و هذا من قوله تعالى (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) أي تركت مسيبة مهملة لا يلتفت إليها أربابها و لا يخلونها لاشتغالهم بأنفسهم. و تزهد كل مهجة تهلك و تبكم كل لهجة أي تخرس رجل أبكم و بكيم و الماضي بكم بالكسر. و الشم الشوامخ الجبال العالية و ذلها تدكدكها و هي أيضا الصم الرواسخ. فيصير صلدها و هو الصلب الشديد انصلابه سرايا و هو ما يترأى في النهار فيظن ماء. و الرقراق الخفيف و معيها ما جعل منها منزلا للناس قاعا أرضا خالية و السملق الصفصف المستوي ليس بعضه أرفع و بعضه أخفض

بَعَثَهُ حِينَ لَا عِلْمَ قَائِمٍ وَلَا مَنَارَ سَاطِعٍ وَلَا مَنَهَجَ وَاضِحٍ أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَ
أَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارُ شُحُوصٍ وَ مَحَلَّةٌ تَنْغِيصُ سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ وَ قَاطِنُهَا بَائِسٌ تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ
السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجِّ الْبَحَارِ فَمِنْهُمْ الْغَرِقُ الْوَبْقُ وَ مِنْهُمْ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ
تَخْفِزُهُ الرِّيَّاحُ بِأَذْيَالِهَا وَ تَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرِكٍ وَ مَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلِكٍ
عِبَادَ اللَّهِ الْآنَ فَاعْلَمُوا وَ الْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ وَ الْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ وَ الْأَعْضَاءُ لَدَنَّةٌ وَ الْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ وَ
الْمَجَالُ عَرِيضٌ قَبْلَ إِرْهَاقِ الْقُوتِ وَ حُلُولِ الْمَوْتِ فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ وَ لَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ يَقُولُ
بَعَثَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ص لَمَّا لَمْ يَبْقَ عِلْمٌ يَهْتَدِي بِهِ الْمَكْلُفُونَ لِأَنَّهُ كَانَ زَمَانُ الْفِتْرَةِ وَ تَبَدَّلَ الْمَصْلَحَةُ
وَ اقْتَضَاءُ وَجُوبِ اللَّطْفِ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ تَجْدِيدًا لِبَعَثِهِ لِيَعْرِفَ الْمَبْعُوثُ الْمَكْلُفِينَ الْأَفْعَالَ الَّتِي تَقْرَبُهُمْ
مِنْ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَ تَبْعَدُهُمْ عَنِ الْمَقْبُوحَاتِ الْفِعْلِيَّةِ.

و المنار الساطع المرتفع سطع الصبح سطوعا ارتفع. و دار شخوص دار رحلة شخص عن البلد
رحل عنه. و الظاعن المسافر و القاطن المقيم و البائن البعيد يقول ساكن الدنيا ليس بساكن على
الحقيقة بل هو ظاعن في المعنى و إن كان في الصورة ساكنا و المقيم بها مفارق و إن ظن أنه
مقيم. و تميد بأهلها تتحرك و تميل و الميدان حركة و اضطراب. و تصفقها العواصف تضربها بشدة
ضربا بعد ضرب و العواصف الرياح القوية اللجج جمع لجة و هي معظم البحر. الوبق الهالك وبق
الرجل بالفتح يبق وبقا هلك و الموبق منه كالموعد مفعل من وعد يعد و منه قوله تعالى (وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا) و فيه لغة أخرى وبق الرجل يوبق وبقا و فيه لغة ثالثة وبق الرجل بالكسر يبق
بالكسر أيضا و أوبقه الله أي أهلكه. و تحفزه الرياح تدفعه ضرب ع لأهل الدنيا مثلا براكبي
السفينة في البحر و قد مادت بهم فمنهم الهالك على الفور و منهم من لا يتعجل هلاكه و تحمله
الرياح ساعة أو ساعات ثم مآله إلى الهلاك أيضا. ثم أمر ع بالعمل وقت الإمكان قبل ألا يمكن
العمل فكفى عن ذلك بقوله و الألسن منطلقة لأن المحتضر يعتقل لسانه و الأبدان صحيحة لأن
المحتضر سقيم البدن و الأعضاء لدنة أي لينة أي قبل الشيخوخة و الهرم و ييس

الأعضاء و الأعصاب و المنقلب فسيح و المجال عريض أي أيام الشبيبة و في الوقت و الأجل مهلة قبل أن يضيق الوقت عليكم. قبل إرهاب الفوت أي قبل أن يجعلكم الفوت و هو فوات الأمر و تعذر استدراكه عليكم مرهقين و المرهق الذي أدرك ليقتل قال الكميت:

تندى أكفهم و في أيـاتهم ثقة المجاور و المضاف المرهق

قوله فحققوا عليكم نزوله و لا تنتظروا قدومه أي اعملوا عمل من يشاهد الموت حقيقة لا عمل من ينتظره انتظارا و يطاول الأوقات مطاولة فإن التسويف داعية التقصير

١٩٠ و من خطبة له ع

و لَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفِظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَ أَيِّي لَمْ أَرِدْ عَلَى اللَّهِ وَ لَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً
فَطُ و لَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَ تَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَفْدَامُ نَجْدَةً أَكْرَمَنِي
اللَّهُ بِهَا وَ لَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ص وَ إِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي وَ لَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي فَأَمَرْتُهَا
عَلَى وَجْهِي وَ لَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ ص وَ الْمَلَائِكَةُ أَعْوَالِي فَصَجَّتِ الدَّارُ وَ الْأَفْنِيَةُ مَلَأَ يَهْبِطُ وَ مَلَأَ
يَعْرُجُ وَ مَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَةً مِنْهُمْ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِهِ فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا
وَ مَيِّتًا فَأَنْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ وَ لَتَصُدُقَ نَبَاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى
جَادَةِ الْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَ لَكُمْ بِمَكْنٍ أَنْ يَعْنِي
بِالْمُسْتَحْفِظِينَ الْخُلَفَاءَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ اسْتَحْفَظُوا الْإِسْلَامَ أَيَّ جَعَلُوا حَافِظِينَ لَهُ وَ
حَارِسِينَ لَشَرِيعَتِهِ وَ لِحُوزَتِهِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَعْنِي بِهِ الْعُلَمَاءُ وَ الْفُضَلَاءُ مِنَ الصَّحَابَةِ لِأَنَّهُمُ اسْتَحْفَظُوا
الْكِتَابَ أَيَّ كَلَفُوا حِفْظَهُ وَ حِرَاسَتَهُ.

و الظاهر أنه يرمز في قوله ع لم أرد على الله و لا على رسوله ساعة قط إلى أمور وقعت من غيره كما جرى يوم الحديبية عند سطر كتاب الصلح فإن بعض الصحابة أنكر ذلك و قال يا رسول الله أ لسننا المسلمين قال بلى قال أ و ليسوا الكافرين قال بلى قال فكيف نعطي الدنية في ديننا فقال ص إنما أعمل بما أومر به فقال قوم من الصحابة أ لم يكن قد وعدنا بدخول مكة و ها نحن قد صددنا عنها ثم ننصرف بعد أن أعطينا الدنية في ديننا و الله لو أجد أعوانا لم أعط الدنية أبدا فقال أبو بكر لهذا القائل ويحك الزم غرزه فو الله إنه لرسول الله ص و إن الله لا يضيعه. ثم قال له أ قال لك إنه سيدخلها هذا العام قال لا قال فسيدخلها فلما فتح النبي ص مكة و أخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال هذا الذي وعدتم به. و اعلم أن هذا الخبر صحيح لا ريب فيه و الناس كلهم روه و ليس عندي بقبيح و لا مستهجن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول الله ص عما سأله عنه على سبيل الاسترشاد و التماسا لطمأنينة النفس فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم (أَوَلَمْ تَأْمِنْهُ لَئِنْ قُلْتُ لَأُكْفِيَنَّكَ اللَّهُ الْحَاجَاتِ تِلْكَ الْقُلُوبُ أَفَكُفِيكَ اللَّهُ أَمْ لَأُعْطِيََنَّكَ مِنْهُ عَمَلًا فَاكِرًا أَفَكَفِيكَ اللَّهُ أَمْ لَأُعْطِيََنَّكَ مِنْهُ عَمَلًا فَاكِرًا أَفَكَفِيكَ اللَّهُ أَمْ لَأُعْطِيََنَّكَ مِنْهُ عَمَلًا فَاكِرًا) و قد كانت الصحابة تراجع رسول الله ص في الأمور و تسأله عما يستبهم عليها و تقول له أ هذا منك أم من الله و قال له السعدان رحمهما الله يوم الخندق و قد عزم على مصالحة الأحزاب ببعض تمر المدينة أ هذا من الله أم رأي رأيته من نفسك قال بل من نفسي قال لا و الله لا نعطيهم منها ثمرة واحدة و أيدينا في مقابض سيوفنا.

و قالت الأنصار له يوم بدر و قد نزل بمنزل لم يستصلحوه أنزلت هذا المنزل عن رأي رأيت أم
بوحى أوحى إليك قال بل عن رأي رأيته قالوا إنه ليس لنا بمنزل ارحل عنه فانزل بموضع كذا. و أما
قول أبي بكر له الزم غرزه فو الله إنه لرسول الله ص فإنما هو تأكيد و تثبيت على عقيدته التي في
قلبه و لا يدل ذلك على الشك فقد قال الله تعالى لنبيه (وَلَوْ لَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ
إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) و كل أحد لا يستغني عن زيادة اليقين و الطمأنينة و قد كانت وقعت من هذا
القائل أمور دون هذه القصة كقوله دعني أضرب عنق أبي سفيان و قوله دعني أضرب عنق عبد الله
بن أبي و قوله دعني أضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة و نهي النبي ص له عن التسرع إلى ذلك و
جذبه ثوب رسول الله ص حين قام على جنازة ابن سلول يصلي و قوله كيف تستغفر لرأس
المنافقين و ليس في ذلك جميعه ما يدل على وقوع القبيح منه و إنما الرجل كان مطبوعا على
الشدّة و الشراسة و الخشونة و كان يقول ما يقول على مقتضى السجية التي طبع عليها و على
أي حال كان فلقد نال الإسلام بولايته و خلافته خيرا كثيرا. قوله ع و لقد واسيته بنفسي يقال
واسيته و آسيته و بالهمزة أفصح و هذا مما اختص ع بفضيلته غير مدافع ثبت معه يوم أحد و فر
الناس و ثبت معه يوم حنين و فر الناس و ثبت تحت رايته يوم خيبر حتى فتحها و فر من كان
بعث بها من قبله.

و روى المحدثون أن رسول الله ص لما ارتث يوم أحد قال الناس قتل مُجَّد رَأته كتيبة من المشركين و هو صريع بين القتلى إلا أنه حي فصمدت له فقال لعلي ع اكفي هذه فحمل عليها ع و قتل رئيسها ثم صمدت له كتيبة أخرى فقال يا علي اكفي هذه فحمل عليها فهزمها و قتل رئيسها ثم صمدت له كتيبة ثالثة فكذلك

فكان رسول الله ص بعد ذلك يقول قال لي جبريل يا مُجَّد إن هذه للمواساة فقلت و ما يمنع و هو مني و أنا منه فقال جبريل و أنا منكما و روى المحدثون أيضا أن المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحا من جهة السماء ينادي لا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى إلا علي فقال رسول الله ص لمن حضره أ لا تسمعون هذا صوت جبريل. و أما يوم حنين فثبت معه في نفر يسير من بني هاشم بعد أن ولى المسلمون الأدبار و حامى عنه و قتل قوما من هوازن بين يديه حتى ثابت إليه الأنصار و انهزمت هوازن و غنمت أموالها. و أما يوم خيبر فقصته مشهورة. قوله ع نجدة أكرمني الله سبحانه بها النجدة الشجاعة و انتصا بها هاهنا على أنها مصدر و العامل فيه محذوف. ثم ذكر ع وفاة رسول الله ص فقال لقد قبض و إن رأسه لعلى صدري و لقد سالت نفسه في كفي فأمررتها على وجهي يقال إن رسول الله

ص قاء دما يسيرا وقت موته و إن عليا ع مسح بذلك الدم وجهه.و قد روي أن أبا طيبة الحجام شرب دمه ع و هو حي فقال له إذن لا يجمع بطنك.قوله ع فضجت الدار و الأفنية أي النازلون في الدار من الملائكة أي ارتفع ضجيجهم و لجبهم يعني أني سمعت ذلك و لم يسمعه غيري من أهل الدار.و الملائكة الجماعة يهبط قوم من الملائكة و يصعد قوم و العروج الصعود و الهينمة الصوت الخفي و الضريح الشق في القبر

ذكر خبر موت الرسول ع

و قد روي من قصة وفاة رسول الله ص أنه عرضت له الشكاة التي عرضت في أواخر صفر من سنة إحدى عشرة للهجرة فجهز جيش أسامة بن زيد فأمرهم بالمسير إلى البلقاء حيث أصيب زيد و جعفر ع من الروم و خرج في تلك الليلة إلى البقيع و قال إني قد أمرت بالاستغفار عليهم فقال ع السلام عليكم يا أهل القبور ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها ثم استغفر لأهل البقيع طويلا ثم قال لأصحابه إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام مرة و قد عارضني به العام مرتين فلا أراه إلا لحضور أجلي ثم انصرف إلى بيته فخطب الناس في غده فقال معاشر الناس قد حان مني خفوق من بين أظهركم فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطه إياها و من كان علي دين فليأتني أقضه أيها الناس إنه ليس بين الله و بين أحد نسب و لا أمر يؤتیه به خيرا

أو يصرف عنه شرا إلا العمل ألا لا يدعين مدع و لا يتمنين متمن و الذي بعثني بالحق لا ينبغي إلا عمل مع رحمة و لو عصيت لهويت اللهم قد بلغت. ثم نزل فصلى بالناس صلاة خفيفة ثم دخل بيت أم سلمة ثم انتقل إلى بيت عائشة يعلله النساء و الرجال أما النساء فأزواجه و بنته ع و أما الرجال فعلي ع و العباس و الحسن و الحسين ع و كانا غلامين يومئذ و كان الفضل بن العباس يدخل أحيانا إليهم ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مرضه فأول ذلك التنازع الواقع يوم قال ص ائتوني بدواة و قرطاس و تلا ذلك حديث التخلف عن جيش أسامة و قول عياش بن أبي ربيعة أ يولى هذا الغلام على جلة المهاجرين و الأنصار. ثم اشتد به المرض و كان عند خفة مرضه يصلي بالناس بنفسه فلما اشتد به المرض أمر أبا بكر أن يصلي بالناس. و قد اختلف في صلاته بهم فالشيعة تزعم أنه لم يصل بهم إلا صلاة واحدة و هي الصلاة التي خرج رسول الله ص فيها يتهاذى بين علي ع و الفضل فقام في المحراب مقامه و تأخر أبو بكر. و الصحيح عندي و هو الأكثر الأشهر أنها لم تكن آخر صلاة في حياته ص بالناس جماعة و أن أبا بكر صلى بالناس بعد ذلك يومين ثم مات ص فمن قائل يقول إنه توفي لليلتين بقيتا من صفر و هو القول الذي تقوله الشيعة و الأكثرون أنه توفي في شهر ربيع الأول بعد مضي أيام منه. و قد اختلفت الرواية في موته فأنكر عمر ذلك و قال إنه لم يمّت و إنه غاب و سيعود فثناه أبو بكر عن هذا القول و تلا عليه الآيات المتضمنة أنه سيموت فرجع إلى قوله.

ثم اختلفوا في موضع دفنه فرأى قوم أن يدفنوه بمكة لأنها مسقط رأسه و قال من قال بل بالمدينة ندفنه بالبقيع عند شهداء أحد ثم اتفقوا على دفنه في البيت الذي قبض فيه و صلوا عليه إرسالا لا يؤمهم أحد. و قيل إن عليا ع أشار بذلك فقبلوه. و أنا أعجب من ذلك لأن الصلاة عليه كانت بعد بيعة أبي بكر فما الذي منع من أن يتقدم أبو بكر فيصلّي عليه إماما. و تنازعوا في تلحيده و تضيّحه فأرسل العباس عمه إلى أبي عبيدة بن الجراح و كان يحفر لأهل مكة و يضرّح على عادتهم رجلا و أرسل علي رجلا إلى أبي طلحة الأنصاري و كان يلحد لأهل المدينة على عادتهم و قال اللهم اختر لنبيك فجاء أبو طلحة فلحد له و أدخل في اللحد. و تنازعوا فيمن ينزل معه القبر فمنع علي ع الناس أن ينزلوا معه و قال لا ينزل قبره غيري و غير العباس ثم أذن في نزول الفضل و أسامة بن زيد مولاهم ثم ضجّت الأنصار و سألت أن ينزل منها رجل في قبره فأنزلوا أوس بن خولي و كان بدريا. فأما الغسل فإن عليا ع تولاه بيده و كان الفضل بن العباس يصب عليه الماء. و روى المحدثون عن علي ع أنه قال ما قلبت منه عضوا إلا و انقلب لا أجد له ثقلا كان معي من يساعدني عليه و ما ذلك إلا الملائكة. و أما حديث الهينمة و سماع الصوت فقد رواه خلق كثير من المحدثين عن علي

ع و تروي الشيعة أن عليا ع عصب عيني الفضل بن العباس حين صب عليه الماء و أن رسول الله ص أوصاه بذلك و قال إنه لا يبصر عورتي أحد غيرك إلا عمي. قوله ع فمن ذا أحق به مني حيا و ميتا انتصاهما على الحال من الضمير المجرور في به أي أي شخص أحق برسول الله ص حال حياته و حال وفاته مني و مراده من هذا الكلام أنه أحق بالخلافة بعده و أحق الناس بالمنزلة منه حيث كان بتلك المنزلة منه في الدنيا و ليس يجوز أن يكونا حالين من الضمير المجرور في مني لأنه لا يحسن أن يقول أنا أحق به إذا كنت حيا من كل أحد و أحق به إذا كنت ميتا من كل أحد لأن الميت لا يوصف بمثل ذلك و لأنه لا حال ثبتت له من الأحقية إذا كان حيا إلا و هي ثابتة له إذا كان ميتا و إن كان الميت يوصف بالأحقية فلا فائدة في قوله و ميتا على هذا الفرض و لا يبقى في تقسيم الكلام إلى قسمين فائدة و أما إذا كان حالا من الضمير في به فإنه لا يلزم من كونه أحق بالمنزلة الرفيعة من رسول الله ص و هو حي أن يكون أحق بالخلافة بعد وفاته أي ليس أحدهما يلزم الآخر فاحتاج إلى أن يبين أنه أحق برسول الله ص من كل أحد إن كان الرسول حيا و إن كان ميتا و لم يستهجن أن يقسم الكلام إلى القسمين المذكورين. قوله ع فانفذوا إلى بصائركم أي أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التي أنتم عليها و لا يدخلن الشك و الريب في قلوبكم. قوله ع إني لعلی جادة الحق و إنهم لعلی مزلة الباطل كلام عجيب

على قاعدة الصناعة المعنوية لأنه لا يحسن أن يقول و إنما لعل جادة الباطل لأن الباطل لا يوصف بالجادة و لهذا يقال لمن ضل وقع في بنيات الطريق فتعوض عنها بلفظ المزلّة و هي الموضع الذي يزل فيه الإنسان كالمزلقة موضع الزلق و المغرقة موضع الغرق و المهلكة موضع الهلاك

١٩١ و من خطبة له ع

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ وَ مَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ وَ اخْتِلَافِ الْبَيْنَانِ فِي الْبِحَارِ
الْعَامِرَاتِ وَ تَلَاطُمِ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبُ اللَّهِ وَ سَفِيرُ وَحْيِهِ وَ رَسُولُ
رَحْمَتِهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ وَ إِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ وَ بِهِ نَجَاحُ
طَلِبَتِكُمْ وَ إِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ وَ نَحْوُهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ وَ إِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعُكُمْ فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءُ دَاءِ
قُلُوبِكُمْ وَ بَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ وَ شِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ وَ صَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ وَ طَهْوَرُ دَنَسِ
أَنْفُسِكُمْ وَ جَلَاءُ غَشَاءِ عَشَا أَبْصَارِكُمْ وَ أَمْنٌ فَرْعِ جَأَشِكُمْ وَ ضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ الْعَجِيجِ رَفَعَ
الصوت و كذلك العج و في الحديث أفضل الحج العج و الثج أي التلبية و إرافة الدم و عجيج
أي صوت و مضاعفة اللفظ دليل على تكرير التصويت. و النينان جمع نون و هو الحوت و
اختلافها هاهنا هو إصعادها و انحدارها. و نجيب الله منتجبه و مختاره. و سفير وحيه رسول وحيه و
الجمع سفراء مثل فقيه و فقهاء.

و إليه مرامي مفزعكم إليه تفزعون و تلجئون و يقال فلان مرمى قصدي أي هو الموضع الذي أنحوه و أقصده. و يروى و جلاء عشى أبصاركم بالعين المهملة و الألف المقصورة و الجأش القلب و تقدير الكلام و ضياء سواد ظلمة عقائدكم و لكنه حذف المضاف للعلم به : فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً دُونَ دِنَارِكُمْ وَ دَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ وَ لَطِيفاً بَيْنَ اضْلَاعِكُمْ وَ أَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ وَ مِنْهَاً لِحِينَ وُرُودِكُمْ وَ شَفِيعاً لِدَرَكِ طَلَبِنِكُمْ وَ جَنَّةً لِيَوْمِ فِرْعَوْنِكُمْ وَ مَصَائِيحَ لِبَطُونِ قُبُورِكُمْ وَ سَكناً لَطُولِ وَحْشَتِكُمْ وَ نَفْساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفِ مُكْتَنِفَةٍ وَ مَخَافَ مُتَوَقِّعَةٍ وَ أَوَارِ نِيزَانِ مُوقَدَةٍ فَمَنْ أَحَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوبِهَا وَ اخْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا وَ انْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأُمُوجُ بَعْدَ تَرَائِكُمِهَا وَ أَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ انْصَابِهَا وَ هَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ فُحُوطِهَا. وَ تَحَدَّثَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا وَ تَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النَّعْمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا وَ وَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِزْدَادِهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ وَ وَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ وَ اِمْتَنَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ وَ اخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ

الشعار أقرب إلى الجسد من الدثار و الدخيل ما خالط باطن الجسد و هو أقرب من
الشعار. ثم لم يقتصر على ذلك حتى أمر بأن يجعل التقوى لطيفا بين الأضلاع أي في القلب و
ذلك أمس بالإنسان من الدخيل فقد يكون الدخيل في الجسد و إن لم يخامر القلب. ثم قال و
أميرا فوق أموركم أي يحكم على أموركم كما يحكم الأمير في رعيته. و المنهل الماء يرده الوارد من
الناس و غيرهم. و قوله حين ورودكم أي لوقت ورودكم. و الطلبة بكسر اللام ما طلبته من
شيء. قوله و مصاييح لبطون قبوركم

جاء في الخبر أن العمل الصالح يضيء قبر صاحبه كما يضيء المصباح الظلمة. و السكن ما
يسكن إليه. قوله و نفسا لكرب مواطنكم أي سعة و روحا. و مكتنفة محيطية و الأوار حر النار و
الشمس. و عزيت بعدت و احلوت صارت حلوة و تراكمها اجتماعها و تكاثفها. و أسهلت
صارت سهلة بعد إنصائها أي بعد إتعاها لكم أنصبتها أتعبته. و هطلت سالت و قحوطها قلتها و
وتاحتها. و تحدثت عليه عطفت و حنت. نضوبها انقطاعها كنضوب الماء ذهابه.

و ببل المطر صار وابلا و هو أشد المطر و أكثره و إرذاذها إتيانها بالرداذ و هو ضعيف المطر. قوله فعبدوا أنفسكم أي ذللوها و منه طريق معبد. و اخرجوا إليه من حق طاعته أي أدوا المفترض عليكم من العبادة يقال خرجت إلى فلان من دينه أي فضيته إياه : ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ وَ اصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ وَ اصْفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ وَ أَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعَزَّتِهِ وَ وَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ وَ أَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ وَ خَذَلَ مُحَادِّثِهِ بِنَصْرِهِ وَ هَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ وَ سَقَى مَنْ عَطَشَ مِنْ حِيَاضِهِ وَ أَثَقَّقَ الْحَيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ ثُمَّ جَعَلَهُ لَا انْقِصَامَ لِعُرْوَتِهِ وَ لَا فَكَّ لِحِلْفَتِهِ وَ لَا إِهْدَامَ لِأَسَاسِهِ وَ لَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ وَ لَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ وَ لَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ وَ لَا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ وَ لَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ وَ لَا ضَنْكَ لِبُطْرِفِهِ وَ لَا وُغُوثَةَ لِشُهُولَتِهِ وَ لَا سَوَادَ لِبُوضَحِهِ وَ لَا عِوَجَ لِإِنْصَابِهِ وَ لَا عَصَلَ فِي عُودِهِ وَ لَا وَعْثَ لِفَجِّهِ وَ لَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ وَ لَا مَرَارَةَ لِحِلَاوَتِهِ فَهُوَ دَعَائِمٌ أُسَاخٌ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخُهَا وَ ثَبَّتَ لَهَا آسَاسَهَا وَ يَنَابِيعُ عَزُرَتْ عُيُونُهَا وَ مَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا وَ مَنَارٌ افْتَدَى بِهَا سَفَارُهَا وَ أَغْلَامٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا وَ مَنَاهِلُ رَوِيَ بِهَا وُرَادُهَا.

جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ وَ ذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ وَ سَنَامَ طَاعَتِهِ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ رَفِيعُ
الْبُنْيَانِ مُنِيرُ الْبُرْهَانِ مُضِيءُ الْكَيِّرَانِ عَزِيزُ السُّلْطَانِ مُشْرِفُ الْمَنَارِ مُعَوِّذُ الْمَنَارِ فَشَرِّقُوهُ وَ اتَّبِعُوهُ وَ
أَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ وَ ضَعُّوهُ مَوَاضِعَهُ اصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ كَلِمَةً تَقَالُ لِمَا يَشْتَدُّ الْاهْتِمَامُ بِهِ تَقُولُ لِلصَّانِعِ
اصْنَعْ لِي كَذَا عَلَى عَيْنِي أَيْ اصْنَعْهُ صِنْعَهُ كَامِلَةً كَالصَّنْعَةِ الَّتِي تَصْنَعُهَا وَ أَنَا حَاضِرٌ أَشَاهِدُهَا بِعَيْنِي
قَالَ تَعَالَى (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) . وَ أَصْفَاهُ خَيْرَ خَلْقِهِ أَيْ آثَرَ بِهِ خَيْرَ خَلْقِهِ وَ هُمْ الْمُسْلِمُونَ وَ
يَاءُ خَيْرَ مَفْتُوحَةٍ . قَالَ وَ أَقَامَ اللَّهُ دَعَائِمَ الْإِسْلَامِ عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَ طَاعَتِهِ . وَ الْمُحَادِّدُ الْمَخَالَفِ قَالَ
تَعَالَى (مَنْ يُجَادِدِ اللَّهَ) أَيْ مَنْ يَعَادِ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَكُونُ فِي حَدٍّ وَ جِهَةٍ وَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ فِي حَدِّ آخِرٍ
وَ جِهَةٍ أُخْرَى وَ كَذَلِكَ الْمَشَاقُّ يَكُونُ فِي شَقٍّ وَ الْآخِرُ فِي شَقٍّ آخَرَ . وَ أَتَأَقُّ الْحَيَاضُ مَلَأَهَا وَ تَتَّقُ
السَّقَاءُ نَفْسَهُ يَتَأَقُّ تَأَقَّا وَ كَذَلِكَ الرَّجُلُ إِذَا امْتَلَأَ غَضَبًا . قَوْلُهُ بِمَوَاتِحِهِ وَ هِيَ الدَّلَاءُ يَمْتَحُ بِهَا أَيْ
يَسْقَى بِهَا . وَ الْانْفِصَامُ الْانْكَسَارُ وَ الْعَفَاءُ الدَّرُوسُ . وَ الْجَذُّ الْقَطْعُ وَ يَرُوى بِالْدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَ هُوَ
الْقَطْعُ أَيْضًا . وَ الضَّنْكَ الضِّيقُ .

و الوعثة كثرة في السهولة توجب صعوبة المشي لأن الأقدام تعيث في الأرض. و الوضع
البياض. و العوج بفتح العين فيما ينتصب كالنخلة و الرمح و العوج بكسرهما فيما لا ينتصب
كالأرض و الرأي و الدين. و العصل الالتواء و الاعوجاج ناب أعصل و شجرة عصلة و سهام
عصل. و الفج الطريق الواسع بين الجبلين يقول لا وعث فيه أي ليس طريق الإسلام بوعث و قد
ذكرنا أن الوعثة ما هي. قوله فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها الأسناخ جمع سنخ و هو الأصل
و أساخها في الأرض أدخلها فيها و ساخت قوائم فرسه في الأرض تسوخ و تسيخ دخلت و
غابت. و الأساس بالمد جمع أسس مثل سبب و أسباب و الأسس و الأس و الأساس واحد و هو
أصل البناء. و غزرت عيونها بضم الزاي كثرت و شبت نيرانها بضم الشين أوقدت و المنار الأعلام
في الفلاة. قوله قصد بها فجاجها أي قصد بنصب تلك الأعلام اهتداء المسافرين في تلك الفجاج
فأضاف القصد إلى الفجاج. و روي روادها جمع رائد و هو الذي يسبق القوم فيرتاد لهم الكلاً و
الماء. و الذروة أعلى السنام و الرأس و غيرها. قوله معوذ المثار أي يعجز الناس إثارته و إزعاجه
لقوته و متانته

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ص بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعَ وَ أَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ
 الْإِطْلَاقَ وَ أَظْلَمَتْ بِهِجْئُهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ وَ قَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ وَ خَشَنَ مِنْهَا مِهَادٌ وَ أَرْفَ
 مِنْهَا قِيَادٌ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا وَ اقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَ تَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا وَ انْفِصَامٍ مِنْ حَلَقَتِهَا وَ
 انْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا وَ عَفَاءٍ مِنْ أَعْلَامِهَا وَ تَكْشُفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا وَ قِصَرٍ مِنْ طُولِهَا جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
 بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ وَ كَرَامَةً لِأُمَّتِهِ وَ رِبْعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ وَ رِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ وَ شَرَفًا لِأَنْصَارِهِ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ
 الْكِتَابَ نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ وَ سِرَاجًا لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ وَ بَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ وَ مِنْهَا جَاءَ لَا يُضِلُّ
 نَهْجُهُ وَ شِعَاعًا لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ وَ فُرْقَانًا لَا يُحْمَدُ بُرْهَانُهُ وَ بَيِّنَاتًا لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ وَ شِفَاءً لَا تُخْشَى
 أَسْقَامُهُ وَ عِزًّا لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ وَ حَقًّا لَا تُخْدَلُ أَعْوَانُهُ فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَ مُجْبُوخَتُهُ وَ يَنَابِيعُ الْعِلْمِ
 وَ مُجَوِّدُ رِيَاضِ الْعَدْلِ وَ عُذْرَانُهُ وَ أَثَابُ الْإِسْلَامِ وَ بُنْيَانُهُ وَ أَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَ غِيْطَانُهُ وَ بَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ
 الْمُسْتَنْزِفُونَ وَ عُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا الْمَآئِحُونَ وَ مَنَاهِلٌ لَا يَغِيْضُهَا الْوَارِدُونَ وَ مَنَازِلٌ لَا يَضِلُّ نَهْجُهَا
 الْمُسَافِرُونَ وَ أَعْلَامٌ لَا يَغْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ وَ إِكَامٌ آكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ

اختلاف الأقوال في عمر الدنيا

قوله ع حين دنا من الدنيا الانقطاع أي أزفت الآخرة و قرب وقتها و قد اختلف الناس في ذلك اختلافا شديدا فذهب قوم إلى أن عمر الدنيا خمسون ألف سنة قد ذهب بعضها و بقي بعضها. و اختلفوا في مقدار الذهاب و الباقي و احتجوا لقولهم بقوله تعالى (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) قالوا اليوم هو إشارة إلى الدنيا و فيها يكون عروج الملائكة و الروح إليه و اختلفهم بالأمر من عنده إلى خلقه و إلى رسله قالوا و ليس قول بعض المفسرين أنه عنى يوم القيامة بمستحسن لأن يوم القيامة لا يكون للملائكة و الروح عروج إليه سبحانه لانقطاع التكليف و لأن المؤمنين إما أن يطول عليهم ذلك اليوم بمقدار خمسين ألف سنة أو يكون هذا مختصا بالكافرين فقط و يكون قصيرا على المؤمنين و الأول باطل لأنه أشد من عذاب جهنم و لا يجوز أن يلقي المؤمن هذه المشقة و الثاني باطل لأنه لا يجوز أن يكون الزمان الواحد طويلا قصيرا بالنسبة إلى شخصين اللهم إلا أن يكون أحدهما نائما أو ممنوا بعلة تجري مجرى النوم فلا يحس بالحركة و معلوم أن حال المؤمنين بعد بعثتهم ليست هذه الحال. قالوا و ليست هذه الآية مناقضة للآية الأخرى و هي قوله تعالى (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) و ذلك لأن سياق الكلام يدل على أنه أراد به الدنيا و ذلك لأنه قد ورد في الخبر أن

بين الأرض و السماء مسيرة خمسمائة عام فإذا نزل الملك إلى الأرض ثم عاد إلى السماء فقد قطع في ذلك اليوم مسيرة ألف عام أ لا ترى إلى قوله (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ) أي ينزل الملك بالوحي و الأمر و الحكم من السماء إلى الأرض ثم يعود راجعا إليه و عارجا صاعدا إلى السماء فيجتمع من نزوله و صعوده مقدار مسير ألف سنة. و ذكر حمزة بن الحسن الأصفهاني في كتابه المسمى تواريخ الأمم أن اليهود تذهب إلى أن عدد السنين من ابتداء التناسل إلى سنة الهجرة لمحمد ص أربعة آلاف و اثنتان و أربعون سنة و ثلاثة أشهر. و النصارى تذهب إلى أن عدد ذلك خمسة آلاف و تسعمائة و تسعون سنة و ثلاثة أشهر. و أن الفرس تذهب إلى أن من عهد كيومرث والد البشر عندهم إلى هلاك يزدجرد بن شهريار الملك أربعة آلاف و مائة و اثنتين و ثمانين سنة و عشرة أشهر و تسعة عشر يوما و يسندون ذلك إلى كتابهم الذي جاء به زردشت و هو الكتاب المعروف بأبستا. فأما اليهود و النصارى فيسندون ذلك إلى التوراة و يختلفون في كيفية استنباط المدة. و تزعم النصارى و اليهود أن مدة الدنيا كلها سبعة آلاف سنة قد ذهب منها ما ذهب و بقي ما بقي. و قيل إن اليهود إنما قصرت المدة لأنهم يزعمون أن شيخهم الذي هو منتظرهم يخرج في أول الألف السابع فلو لا تنقيصهم المدة و تقصيرهم أيامها لتعجل افتضاحهم و لكن سيفتضحون فيما بعد عند من يأتي بعدنا من البشر.

قال حمزة و أما المنجمون فقد أتوا بما يغمز هذا كله فزعموا أنه قد مضى من الدنيا منذ أول يوم سارت فيه الكواكب من رأس الحمل إلى اليوم الذي خرج فيه المتوكل بن معتصم بن الرشيد من سامراء إلى دمشق ليجعلها دار الملك و هو أول يوم من المحرم سنة أربع و أربعين و مائتين للهجرة المحمدية أربعة آلاف ألف ألف ثلاث لفظات و ثلاثمائة ألف و عشرون ألف سنة بسني الشمس. قالوا و الذي مضى من الطوفان إلى صبيحة اليوم الذي خرج فيه المتوكل إلى دمشق ثلاث آلاف و سبعمائة و خمس و ثلاثون سنة و عشرة أشهر و اثنان و عشرون يوما. و ذكر أبو الريحان البيروني في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية أن الفرس و المجوس يزعمون أن عمر الدنيا اثنا عشر ألف سنة على عدد البروج و عدد الشهور و أن الماضي منها إلى وقت ظهور زردشت صاحب شريعته ثلاثه آلاف سنة و بين ابتداء ظهور زردشت و بين أول تاريخ الإسكندر مائتان و ثمان و خمسون سنة و بين تاريخ الإسكندر و بين سنته التي كتبنا فيها شرح هذا الفصل و هي سنة سبع و أربعين و ستمائة للهجرة النبوية ألف و خمسمائة و سبعون سنة فعلى هذا يكون الماضي إلى يومنا هذا من أصل اثني عشر ألف سنة أربعة آلاف و ثمانمائة و ثمانين عشرة سنة فيكون الباقي من الدنيا على قولهم أكثر من الماضي. و حكى أبو الريحان عن الهند في بعض كتبه أن مدة عمر الدنيا مقدار تضعيف الواحد من أول بيت في رقعة الشطرنج إلى آخر البيوت. فأما الأخباريون من المسلمين فأكثرهم يقولون إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة

و يقولون إننا في السابع و الحق أنه لا يعلم أحد هذا إلا الله تعالى وحده كما قال سبحانه
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) و قال (لا يُجَلِّيهَا
لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ
إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ). و نقول مع ذلك كما ورد به الكتاب العزيز (إِفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) و (إِفْتَرَبَ
لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) و (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ). و لا نعلم كمية الماضي و لا كمية الباقي و
لكننا نقول كما أمرنا و نسمع و نطيع كما أدبنا و من الممكن أن يكون ما بقي قريبا عند الله و
غير قريب عندنا كما قال سبحانه (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً). و بالجملة هذا موضع غامض
يجب السكوت عنه. قوله ع و قامت بأهلها على ساق الضمير للدنيا و الساق الشدة أي
انكشفت عن شدة عظيمة. و قوله تعالى (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) أي التفت آخر شدة الدنيا
بأول شدة الآخرة. و المهاد الفراش و أزف منها قياد أي قرب انقيادها إلى التقضي و الزوال. و
أشراط الساعة علاماتها و إضافتها إلى الدنيا لأنها في الدنيا تحدث و إن كانت علامات للآخرى
و العفاء الدروس.

و روي من طولها و الطول الجبل. ثم عاد إلى ذكر النبي ص فقال جعله الله سبحانه بلاغا لرسالته أي ذا بلاغ و البلاغ التبليغ فحذف المضاف. و لا تحبو لا تنطفئ و الفرقان ما يفرق به بين الحق و الباطل. و أثافي الإسلام جمع أثفية و هي الأحجار توضع عليها القدر شكل مثلث. و العيطان جمع غائط و هو المطمئن من الأرض. و لا يغيضها بفتح حرف المضارعة غاض الماء و غضته أنا يتعدى و لا يتعدى و روي لا يغيضها بالضم على قول من قال أغضت الماء و هي لغة ليست بالمشهورة. و الأكام جمع أكم مثل جبال جمع جبل و الأكم جمع أكمة مثل عنب جمع عنبه و الأكمة ما علا من الأرض و هي دون الكثيب : جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ وَ رَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ وَ مُحَاجّاً لَطُرُقِ الصُّلَحَاءِ وَ دَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ وَ نُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ وَ حَبَلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ وَ مَعْقِلاً مَنِيعاً ذُرْوَتُهُ وَ عِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ وَ سِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ وَ هُدًى لِمَنْ ائْتَمَّ بِهِ وَ عُذْراً لِمَنْ اِنْتَحَلَهُ وَ بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَ شَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ وَ قَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ وَ حَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ وَ مَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ وَ آيَةً لِمَنْ تَوَسَّسَ وَ جَنَّةً لِمَنْ اسْتَلَّامَ وَ عِلْماً لِمَنْ وَعَى وَ حَدِيثاً لِمَنْ رَوَى وَ حُكْماً لِمَنْ قَضَى

الضمير يرجع إلى القرآن جعله الله ربا لعطش العلماء إذا ضل العلماء في أمر و التبس عليهم رجعوا إليه فسقاهم كما يسقي الماء العطش و كذا القول في ربيعاً لقلوب الفقهاء و الربيع هاهنا الجدول و يجوز أن يريد المطر في الربيع يقال ربت الأرض فهي مربوعة. و المحاج جمع محجة و هي جادة الطريق و المعقل الملجأ. و سلما لمن دخله أي مأمناً و انتحله دان به و جعله نخلته. و البرهان الحجة و الفلج الظفر و الفوز و حاج به خاصم. قوله ع و حاملاً لمن حملة أي أن القرآن ينجي يوم القيامة من كان حافظاً له في الدنيا بشرط أن يعمل به. قوله ع و مطية لمن أعمله استعارة يقول كما أن المطية تنجي صاحبها إذا أعملها و بعثها على النجاء فكذلك القرآن إذا أعمله صاحبه أنجاه و معنى إعماله اتباع قوانينه و الوقوف عند حدوده. قوله و آية لمن توسم أي لمن تفرس قال تعالى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ. و الجنة ما يستتر به و استلأم لبس لأمة الحرب و هي الدرع. و وعى حفظ. قوله و حديثاً لمن روى قد سماه الله تعالى حديثاً فقال (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً) و أصحابنا يحتجون بهذه اللفظة على أن القرآن ليس بتقديم لأن الحديث ضد القديم. و ليس للمخالف أن يقول ليس المراد بقوله (أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) ما ذكرتم بل المراد أحسن القول و أحسن الكلام لأن العرب تسمي الكلام و القول حديثاً لأننا نقول لعمرى إنه هكذا و لكن العرب ما سمت القول و الكلام حديثاً إلا أنه مستحدث متجدد حالا فحالا أ لا ترى إلى قول عمرو معاوية قد مللت كل شيء إلا الحديث فقال إنما يمل العتيق فدل ذلك على أنه فهم معنى تسميتهم الكلام و القول حديثاً و فطن لمغزاهم و مقصدهم في هذه التسمية و إذا كنا قد كلفنا أن نجري على ذاته و صفاته و أفعاله ما أجراه سبحانه في كتابه و نطلق ما أطلقه على سبيل الوضع و الكيفية التي أطلقها و كان قد وصف كلامه بأنه حديث و كان القرآن في عرف اللغة إنما سمي حديثاً لحدوثه و تجدده فقد ساغ لنا أن نطلق على كلامه أنه محدث و متجدد و هذا هو المقصود

١٩٢ و من كلام له ع كان يوصي به أصحابه

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ وَ حَافِظُوا عَلَيْهَا وَ اسْتَكْثِرُوا مِنْهَا وَ تَقَرَّبُوا بِهَا فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) وَ إِنَّهَا لَتَحُتُّ الدُّنُوبَ حَتَّى الْوَرَقِ وَ تُطْلِفُهَا إِطْلَاقَ الرِّبْقِ وَ شَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّهِ ص بِالْحِمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ فَهُوَ يَعْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَ اللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ وَ قَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ وَ لَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَ لَا مَالٍ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ) وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ص نَصَبًا بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبَشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ (وَ أَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْهَا) فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَ يُصَبِّرُ يَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ

ثُمَّ إِنَّ الرِّكَاعَةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا فَإِنَّهَا تُجْعَلُ
 لَهُ كَفَّارَةً وَمِنْ النَّارِ حِجَارًا وَقَايَةً فَلَا يُتَبِعَنَّ أَحَدٌ نَفْسَهُ وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا هَفَافَةً فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا
 غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ مَغْبُوتُ الْأَجْرِ ضَالُّ الْعَمَلِ
 طَوِيلُ النَّدَمِ ثُمَّ أَدَاءُ الْأَمَانَةِ فَقَدْ حَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمُبِينَةِ وَالْأَرْضِينَ
 الْمُدْحُوَّةِ وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا
 وَلَوْ اِمْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لَأَمْتَنَعَ وَلَكِنْ أَشْفَقْنَا مِنَ الْعُقُوبَةِ وَعَقَلْنَا
 مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُمْ وَهُوَ الْإِنْسَانُ (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا
 يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُفْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ لَطْفَ بِهِ خُبْرًا وَ أَحَاطَ بِهِ عِلْمًا أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ
 وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ وَصَمَائِكُمْ عُيُونُهُ وَخَلْقَاتُكُمْ عِيَانُهُ هَذِهِ آيَةُ يَسْتَدِلُّ بِهَا الْأَصُولِيُّونَ مِنْ
 أَصْحَابِنَا عَلَى أَنَّ الْكَفَّارَ يَعْقِبُونَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَعَلَى فِعْلِ الْقَبَائِحِ لِأَنَّهَا
 فِي الْكَفَّارِ وَرَدَتْ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ (فِي جَنَاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَفَرٍ)
 فَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَعْنِيَ بِالْمُجْرِمِينَ هَاهُنَا الْفَاسِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ لِأَنَّهُ قَالَ (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ)

وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ). قالوا و ليس لقائل أن يقول معنى قوله (لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) لم نكن من القائلين بوجوب الصلاة لأنه قد أغنى عن هذا التعليل قوله (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ) لأن أحد الأمرين هو الآخر و حمل الكلام على ما يفيد فائدة جديدة أولى من حمله على التكرار و الإعادة فقد ثبت بهذا التقرير صحة احتجاج أمير المؤمنين ع على تأكيد أمر الصلاة و أنها من العبادات المهمة في نظر الشارع. قوله ع و إنها لتحت الذنوب الحث نثر الورق من الغصن و انحات أي تناثر و قد جاء هذا اللفظ في الخبر النبوي بعينه. و الريق جمع ريقة و هي الحبل أي تطلق الصلاة الذنوب كما تطلق الحبال المعقدة أي تحل ما انعقد على المكلف من ذنوبه و هذا من باب الاستعارة. و يروى تعهدوا أمر الصلاة بالتضعيف و هو لغة يقال تعاهدت ضيعتي و تعهدتها و هو القيام عليها و أصله من تجديد العهد بالشيء و المراد المحافظة عليه و قوله تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) أي واجبا و قيل موقوتا أي منجما كل وقت لصلاة معينة و تؤدي هذه الصلاة في نجومها. و قوله كتابا أي فرضا واجبا كقوله تعالى (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أي أوجب. و الحمة الحفيرة فيها الحميم و هو الماء الحار و هذا الخبر من الأحاديث الصحاح قال ص أ يسر أحدكم أن تكون على بابه حمة يغتسل منها كل يوم خمس

مرات فلا يبقى عليه من درنه شيء قالوا نعم قال فإنها الصلوات الخمس و الدرر الوسخ. و التجارة في الآية إما أن يراد بها لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر الله ثم أفرد البيع بالذكر و خصه و عطفه على التجارة العامة لأنه أدخل في الإلهاء لأن الربح في البيع بالكسب معلوم و الربح في الشراء مظنون و إما أن يريد بالتجارة الشراء خاصة إطلاقاً لاسم الجنس الأعم على النوع الأخص كما تقول رزق فلان تجارة رابحة إذا اتجه له شراء صالح فأما إقامة الصلاة فإن التاء في إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال فإن أصله إقوام مصدر أقام كقولك أعرض إعرضاً فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض فأسقطت التاء. قوله ع و كان رسول الله ص نصبا بالصلاة أي تعبا قال تعالى (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) . و روي أنه ع قام حتى تورمت قدماه مع التبشير له بالجنة و روي أنه قيل له في ذلك فقال أ فلا أكون عبدا شكورا. و يصبر نفسه من الصبر و يروى و يصبر عليها نفسه أي يحبس قال سبحانه (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) و قال عنتره يذكر حربا كان فيها:

فصبرت عارفة لذللك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

فصل في ذكر الآثار الواردة في الصلاة و فضلها

و اعلم أن الصلاة قد جاء في فضلها الكثير الذي يعجزنا حصره و لو لم يكن

إلا ما ورد في الكتاب العزيز من تكرار ذكرها و تأكيد الوصاة بها و المحافظة عليها لكان بعضه كافيا. و قال النبي ص الصلاة عمود الدين فمن تركها فقد هدم الدين و قال أيضا ع علم الإيمان الصلاة فمن فرغ لها قلبه و قام بحدودها فهو المؤمن و قالت أم سلمة كان رسول الله ص يحدثنا و نحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا و لم نعرفه و قيل للحسن عليه السلام ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها قال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره و قال عمر إن الرجل ليشتب عارضاه في الإسلام ما أكمل الله له صلاة قيل له و كيف ذلك قال لا يتم خشوعها و تواضعها و إقباله على ربه فيها. و قال بعض الصالحين إن العبد ليسجد السجدة عنده أنه متقرب بها إلى الله و لو قسم ذنبه في تلك السجدة على أهل مدينة لهلكوا قيل و كيف ذلك قال يكون ساجدا و قلبه عند غير الله إنما هو مصغ إلى هوى أو دنيا. صلى أعرابي في المسجد صلاة خفيفة و عمر بن الخطاب يراه فلما قضاها قال اللهم زوجني الحور العين فقال عمر يا هذا لقد أسأت النقد و أعظمت الخطبة. و قال علي ع لا يزال الشيطان ذعرا من المؤمن ما حافظ على الخمس فإذا ضيعهن تحراً عليه و أوقعه في العظائم و روي عن النبي ص أنه قال الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر

وجاء في الخبر أن رسول الله ص كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. و قال هشام بن عروة كان أبي يطيل المكتوبة و يقول هي رأس المال. قال يونس بن عبيد ما استخف أحد بالنوافل إلا استخف بالفرائض. يقال إن مُحَمَّد بن المنكدر جزأ الليل عليه و على أمه و أخته أثلاثا فماتت أخته فجزأه عليه و على أمه نصفين فماتت أمه فقام الليل كله. كان مسلم بن يسار لا يسمع الحديث إذا قام يصلي و لا يفهمه و كان إذا دخل بيته سكّت أهله فلا يسمع لهم كلام حتى يقوم إلى الصلاة فيتحدثون و يغطون فهو لا يشعر بهم. و وقع حريق إلى جنبه و هو في الصلاة فلم يشعر به حتى حرق. كان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب إذا وقع على وجهه و هو في الصلاة في بلاد كثيرة الذباب فقليل له كيف تصبر فقال بلغني أن الشطار يصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور أ فلا أصبر و أنا بين يدي ربي على أذى ذباب يقع علي. قال ابن مسعود الصلاة مكيال فمن وفى وفى له و من طفف ف وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ قال رجل لرسول الله ص يا رسول الله ادع لي أن يرزقني الله مرافقتك في الجنة فقال أعني على إجابة الدعوة بكثرة السجود. قوله ع قربانا لأهل الإسلام القربان اسم لما يتقرب به من نسيكة أو صدقة. و روي و من النار حجازا بالزاي أي مانعا و اللهف الحسرة ينهى ع

عن إخراج الزكاة مع التسخط لإخراجها و التلهف و التحسر على دفعها إلى أربابها و يقول إن من يفعل ذلك يرجو بها نيل الثواب ضال مضيع لماله غير ظافر بما رجاه من المثوبة

ذكر الآثار الواردة في فضل الزكاة و التصدق

و قد جاء في فضل الزكاة الواجبة و فضل صدقة التطوع الكثير جدا و لو لم يكن إلا أن الله تعالى قرنها بالصلاة في أكثر المواضع التي ذكر فيها الصلاة لكفى. و روى بريدة الأسلمي أن رسول الله ص قال ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر. و جاء في الذين يكتزون الذهب و الفضة و لا ينفقونها في سبيل الله ما جاء في الذكر الحكيم و هو قوله تعالى يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُوى بِمَا جِبَاهُهُمْ الآية قال المفسرون إنفاقها في سبيل الله إخراج الزكاة منها. و روى الأحنف قال قدمت المدينة فبينما أنا في حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل خشن الجسد خشن الثياب فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليها في نار جهنم فتوضع على حلمة ثدي الرجل حتى تخرج من غض كتفه ثم توضع على غض كتفه حتى تخرج من حلمة ثديه فسألت عنه فقيل هذا أبو ذر الغفاري و كان يذكره و يرفعه.

ابن عباس يرفعه من كان عنده ما يزكي فلم يزك و كان عنده ما يحج فلم يحج سأل الرجعة يعني قوله رَبِّ ارْجِعُونِ.

أبو هريرة سئل رسول الله ص أي الصدقة أفضل فقال أن تعطي و أنت صحيح صحيح تأمل البقاء و تخشى الفقر و لا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا و لفلان كذا. و قيل للشبلي ما يجب في مائتي درهم قال أما من جهة الشرع فخمسه و أما من جهة الإخلاص فالكل.

أمر رسول الله ص بعض نسائه أن تقسم شاة على الفقراء فقالت يا رسول الله لم يبق منها غير عنقها فقال ع كلها بقي غير عنقها أخذ شاعر هذا المعنى فقال:

يكي على الذاهب من ماله و إنما يبقى الذي يذهب

السائب كان الرجل من السلف يضع الصدقة و يمثل قائما بين يدي السائل الفقير و يسأله قبولها حتى يصير هو في صورة السائل. و كان بعضهم يبسط كفه و يجعلها تحت يد الفقير لتكون يد الفقير العليا. و عن النبي ص ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله إليه في مخلفيه و عنه ص الصدقة تسد سبعين بابا من الشر و عنه ص أذهبوا مذمة السائل و لو بمثل رأس الطائر من الطعام. كان النبي ص لا يكل خصلتين إلى غيره لا يوضئه أحد و لا يعطي السائل إلا بيده. بعض الصالحين الصلاة تبلغك نصف الطريق و الصوم يبلغك باب الملك و الصدقة تدخلك عليه بغير إذن. الشعبي من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب الصدقة من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته و ضرب بها وجهه.

كان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فإن لم يكن أعطاه زيتا أو سمنا أو نحوهما مما ينتفع به فإن لم يكن أعطاه كحلا أو خرج بإبرة و خايط بها ثوب السائل أو بخرقه يرقع بها ما تحرق من ثوبه. و وقف مرة على باب سائل ليلا و لم يكن عنده ما يدفعه إليه فخرج إليه بقصبة في رأسها شعلة و قال خذ هذه و تبلغ بها إلى أبواب ناس لعلهم يعطونك. قوله ع ثم أداء الأمانة هي العقد الذي يلزم الوفاء به و أصح ما قيل في تفسير الآية أن الأمانة ثقيلة المحمل لأن حاملها معرض لخطر عظيم فهي بالغة من الثقل و صعوبة المحمل ما لو أنها عرضت على السماوات و الأرض و الجبال لامتنعت من حملها. فأما الإنسان فإنه حملها و ألزم القيام بها و ليس المراد بقولنا إنها عرضت على السماوات و الأرض أي لو عرضت عليها و هي جمادات بل المراد تعظيم شأن الأمانة كما تقول هذا الكلام لا يحمله الجبال و قوله امتلأ الحوض و قال قطني

و قوله تعالى (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) و مذهب العرب في هذا الباب و توسعها و مجازاتها مشهور

شائع

١٩٣ و من كلام له ع

وَ اللَّهُ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَذْهَى مِنِّي وَ لَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَ يَفْجُرُ وَ لَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْعَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَى
النَّاسِ وَ لَكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ وَ كُلُّ فَجْرَةٍ كُفْرَةٌ وَ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ اللَّهُ مَا
أُسْتَعْفِلُ بِالْمَكِيدَةِ وَ لَا أُسْتَعْمَرُ بِالشَّدِيدَةِ الْغَدْرَةِ عَلَى فَعْلَةِ الْكَثِيرِ الْغَدْرِ وَ الْفَجْرَةِ وَ الْكُفْرِ الْكَثِيرِ
الْفَجْرِ وَ الْكُفْرِ وَ كُلِّ مَا كَانَ عَلَى هَذَا الْبَنَاءِ فَهُوَ لِلْفَاعِلِ فَإِنْ سَكَنْتِ الْعَيْنُ فَهُوَ لِلْمَفْعُولِ تَقُولُ
رَجُلٌ ضَحْكَةٌ أَيْ يَضْحَكُ وَ ضَحْكَةٌ يَضْحَكُ مِنْهُ وَ سَخْرَةٌ يَسْخَرُ وَ سَخْرَةٌ يَسْخَرُ بِهِ يَقُولُ ع
كُلُّ غَادِرٍ فَاجِرٌ وَ كُلُّ فَاجِرٍ كَافِرٌ وَ يَرُودُ وَ لَكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٍ وَ كُلُّ فَجْرَةٍ كُفْرَةٍ عَلَى فَعْلَةِ
لِلْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ. وَ قَوْلُهُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَعْرِفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَرْوِيٌّ عَنِ النَّبِيِّ ص. ثُمَّ
أَقْسَمَ ع أَنَّهُ لَا يَسْتَعْفِلُ بِالْمَكِيدَةِ أَيْ لَا تَجُوزُ الْمَكِيدَةُ عَلَيَّ كَمَا تَجُوزُ عَلَى ذَوِي الْغَفْلَةِ وَ أَنَّهُ لَا
يَسْتَعْمَرُ بِالشَّدِيدَةِ أَيْ لَا أَهْيَنُ وَ أَلَيْنُ لِلْخَطْبِ الشَّدِيدِ

سياسة علي و جريها على سياسة الرسول ع

و اعلم أن قوما ممن لم يعرف حقيقة فضل أمير المؤمنين ع زعموا أن عمر كان أسوس منه و إن كان هو أعلم من عمر و صرح الرئيس أبو علي بن سينا بذلك في الشفاء في الحكمة و كان شيخنا أبو الحسين يميل إلى هذا و قد عرض به في كتاب الغرر ثم زعم أعداؤه و مباغضوه أن معاوية كان أسوس منه و أصح تدبيرا و قد سبق لنا بحث قديم في هذا الكتاب في بيان حسن سياسة أمير المؤمنين ع و صحة تدبيره و نحن نذكر هاهنا ما لم نذكره هناك مما يليق بهذا الفصل الذي نحن في شرحه. اعلم أن السائس لا يتمكن من السياسة البالغة إلا إذا كان يعمل برأيه و بما يرى فيه صلاح ملكه و تمهيد أمره و توطيد قاعدته سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها و متى لم يعمل في السياسة و التدبير بموجب ما قلناه فبعيد أن ينتظم أمره أو يستوثق حاله و أمير المؤمنين كان مقيدا بقيود الشريعة مدفوعا إلى اتباعها و رفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب و الكيد و التدبير إذا لم يكن للشرع موافقا فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن لم يلتزم بذلك و لسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب و لا ناسبين إليه ما هو منزه عنه و لكنه كان مجتهدا يعمل بالقياس و الاستحسان و المصالح المرسله و يرى تخصيص عمومات النص بالآراء و بالاستنباط من أصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص و يكيد خصمه و يأمر أمراءه بالكيد و الحيلة و يؤدب بالدره و السوط من

يتغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك و يصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب كل ذلك بقوة اجتهاده و ما يؤديه إليه نظره و لم يكن أمير المؤمنين ع يرى ذلك و كان يقف مع النصوص و الظواهر و لا يتعداها إلى الاجتهاد و الأقيسة و يطبق أمور الدنيا على أمور الدين و يسوق الكل مساقا واحدا و لا يضيع و لا يرفع إلا بالكتاب و النص فاختلفت طريقتاهما في الخلافة و السياسة و كان عمر مع ذلك شديد الغلظة و السياسة و كان علي ع كثير الحلم و الصفع و التجاوز فازدادت خلافة ذاك قوة و خلافة هذا لنا و لم يمن عمر بما مني به علي ع من فتنة عثمان التي أحوجته إلى مداواة أصحابه و جنده و مقاربتهم للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة ثم تلا ذلك فتنة الجمل و فتنة صفين ثم فتنة النهروان و كل هذه الأمور مؤثرة في اضطراب أمر الوالي و انحلال معاهد ملكه و لم يتفق لعمر شيء من ذلك فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملكة و صحة تدبير الخلافة. فإن قلت فما قولك في سياسة رسول الله ص و تدبيره أ ليس كان منتظما سديدا مع أنه كان لا يعمل إلا بالنصوص و التوقيف من الوحي فهلا كان تدبير علي ع و سياسته كذلك إذا قلت إنه كان لا يعمل إلا بالنص قلت أما سياسة رسول الله ص و تدبيره فخارج عما نحن فيه لأنه معصوم لا تتطرق الغفلة إلى أفعاله و لا واحد من هذين الرجلين بواجب العصمة عندنا و أيضا فإن كثيرا من الناس ذهبوا إلى أن الله تعالى أذن لرسول الله ص أن يحكم في الشرعيات و غيرها برأيه و قال له احكم بما تراه فإنك لا تحكم إلا بالحق و هذا مذهب يونس بن عمران و علي هذا فقد سقط السؤال لأنه ص يعمل بما يراه من المصلحة و لا ينتظر الوحي. و أيضا فبتقدير فساد هذا المذهب أ ليس قد ذهب خلق كثير من علماء أصول الفقه إلى أن رسول الله ص كان يجوز له أن يجتهد في الأحكام و التدبير كما يجتهد

الواحد من العلماء و إليه ذهب القاضي أبو يوسف رحمته الله و احتج بقوله تعالى **(لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)**. و السؤال أيضا ساقط على هذا المذهب لأن اجتهاد علي ع لا يساوي اجتهاد النبي ص و بين الاجتهادين كما بين المنزلتين. و كان أبو جعفر بن أبي زيد الحسني نقيب البصرة رحمته الله إذا حدثناه في هذا يقول إنه لا فرق عند من قرأ السيرتين سيرة النبي ص و سياسة أصحابه أيام حياته و بين سيرة أمير المؤمنين ع و سياسة أصحابه أيام حياته فكما أن عليا ع لم يزل أمره مضطربا معهم بالمخالفة و العصيان و الهرب إلى أعدائه و كثرة الفتن و الحروب فكذلك كان النبي ص لم يزل ممنوا بنفاق المنافقين و أذاهم و خلاف أصحابه عليه و هرب بعضهم إلى أعدائه و كثرة الحروب و الفتن. و كان يقول أ لست ترى القرآن العزيز مملوءا بذكر المنافقين و الشكوى منهم و التألم من أذاهم له كما أن كلام علي ع مملوء بالشكوى من منافقي أصحابه و التألم من أذاهم له و التوائهم عليه و ذلك نحو قوله تعالى **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُئْسَ الْمَصِيرُ)**. و قوله **(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا...)** الآية. و قوله تعالى **(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ**

لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ... (السورة بأجمعها. و قوله تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ. (و قوله تعالى (رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) . و قوله تعالى (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) . و قوله تعالى (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالْأَسِنَّاتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا) . و قوله تعالى (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) . و قوله (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . قال و أصحابه هم الذين نازعوا في الأنفال و طلبوها لأنفسهم حتى أنزل الله تعالى (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . و هم الذين التووا عليه في الحرب يوم بدر و كرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم و ذلك قبل أن تتراءى الفئتان و أنزل فيهم (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) . و هم الذين كانوا يتمنون لقاء العير دون لقاء العدو حتى إنهم ظفروا برجلين في الطريق فسألوهما عن العير فقالا لا علم لنا بها و إنما رأينا جيش قريش من وراء ذلك الكتيب فضربوهما و رسول الله ص قائم يصلي فلما ذاقا مس الضرب قالوا بل العير أمامكم فاطلبوها فلما رفعوا الضرب عنهما قالوا و الله ما رأينا العير و لا رأينا إلا الخيل و السلاح و الجيش فأعادوا الضرب عليهما مرة ثانية فقالا و هما يضربان العير أمامكم فخلوا عنا فانصرف رسول الله ص من الصلاة و قال إذا صدقاكم ضربتموهما و إذا كذباكم خليت عنهما دعوها فما رأيا إلا جيش أهل مكة و أنزل قوله تعالى (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ

دَابِرَ الْكَافِرِينَ) قال المفسرون الطائفتان العير ذات اللطيمة الواصلة إلى مكة من الشام صحبة أبي سفيان بن حرب و إليها كان خروج المسلمين و الأخرى الجيش ذو الشوكة و كان ع قد وعدهم بإحدى الطائفتين فكرهوا الحرب و أحبوا الغنيمة. قال و هم الذين فروا عنه ص يوم أحد و أسلموه و أصعدوا في الجبل و تركوه حتى شج الأعداء وجهه و كسروا ثنيتيه و ضربوه على بيضته حتى دخل جماجمه و وقع من فرسه إلى الأرض بين القتلى و هو يستصرخ بهم و يدعوهم فلا يجيبه أحد منهم إلا من كان جاريا مجرى نفسه و شديد الاختصاص به و ذلك قوله تعالى **(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ)** أي ينادي فيسمع ندائه آخر الهاربين لا أولهم لأن أولهم أوغلوا في الفرار و بعدوا عن أن يسمعوا صوته و كان قصارى الأمر أن يبلغ صوته و استصراخه من كان على ساق الهاربين منهم. قال و منهم الذين عصوا أمره في ذلك اليوم حيث أقامهم على الشعب في الجبل و هو الموضع الذي خاف أن تكرر عليه منه خيل العدو من ورائه و هم أصحاب عبد الله بن جبير فإنهم خالفوا أمره و عصوه فيما تقدم به إليهم و رغبوا في الغنيمة ففارقوا مركزهم حتى دخل الوهن على الإسلام بطريقهم لأن خالد بن الوليد كر في عصابة من الخيل فدخل من الشعب الذي كانوا يحرسونه فما أحس المسلمون بهم إلا و قد غشوهم بالسيوف من خلفهم فكانت الهزيمة و ذلك قوله تعالى **(حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ)**

وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ). قال و هم الذين عصوا أمره في غزاة تبوك بعد أن أكد عليهم الأوامر و خذلوه و تركوه و لم يشخصوا معه فأنزل فيهم (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِتَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَ رَضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) و هذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين و فيها أوضح دليل على أن أصحابه و أوليائه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه و يخالفون أمره و أكد عتابهم و تقرعهم و توبيخهم بقوله تعالى (لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَرًا قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ). ثم عاتب رسول الله ص على كونه أذن لهم في التخلف و إنما أذن لهم لعلمه أنهم لا يجيبونه في الخروج فرأى أن يجعل المنة له عليهم في الإذن لهم و إلا قعدوا عنه و لم تصل له المنة فقال له عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ أي هلا أمسكت عن الإذن لهم حتى يتبين لك قعود من يقعد و يخرج صادقهم من كاذبهم لأنهم كانوا قد وعدوه بالخروج معه كلهم و كان بعضهم ينوي الغدر و بعضهم يعزم على أن يخيس بذلك الوعد فلو لم يأذن لهم لعلم من يتخلف و من لا يتخلف فعرف الصادق منهم و الكاذب.

ثم بين سبحانه و تعالى أن الذين يستأذنونهم في التخلف خارجون من الإيمان فقال له (لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ). و لا حاجة إلى التطويل بذكر الآيات المفصلة فيما يناسب هذا المعنى فمن تأمل الكتاب العزيز علم حاله ص مع أصحابه كيف كانت و لم ينقله الله تعالى إلى جواره إلا و هو مع المنافقين له و المظهريين خلاف ما يضمرون من تصديقه في جهاد شديد حتى لقد كاشفوه مرارا فقال لهم يوم الحديبية احلقوا و انحروا مرارا فلم يلقوا و لم ينحروا و لم يتحرك أحد منهم عند قوله و قال له بعضهم و هو يقسم الغنائم اعدل يا مُحَمَّد فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ. و قالت الأنصار له مواجهة يوم حنين أ تأخذ ما أفاء الله علينا بسيوفنا فتدفعه إلى أقاربك من أهل مكة حتى أفضى الأمر إلى أن قال لهم في مرض موته ائتوني بدواة و كتف أكتب لكم ما لا تضلون بعده فعصوه و لم يأتوه بذلك و ليتهم اقتصروا على عصيانه و لم يقولوا له ما قالوا و هو يسمع. و كان أبو جعفر عليه السلام يقول من هذا ما يطول شرحه و القليل منه ينبي عن الكثير و كان يقول إن الإسلام ما حلا عندهم و لا ثبت في قلوبهم إلا بعد موته حين فتحت عليهم الفتوح و جاءهم الغنائم و الأموال و كثرت عليهم المكاسب و ذاقوا طعم الحياة و عرفوا لذة الدنيا و لبسوا الناعم و أكلوا الطيب و تمتعوا بنساء الروم و ملكوا خزائن كسرى و تبدلوا بذلك القشف و الشظف و العيش الخشن و أكل

الضباب و القنافذ و اليرابيع و لبس الصوف و الكرايس و أكل اللوزينجات و الفالوذجات و لبس الحرير و الدياج فاستدلوا بما فتحه الله عليهم و أتاحه لهم على صحة الدعوة و صدق الرسالة و قد كان ص وعدهم بأنه سيفتح عليهم كنوز كسرى و قيصر فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظموه و بجلوه و انقلبت تلك الشكوك و ذاك النفاق و ذلك الاستهزاء إيماناً و يقيناً و إخلاصاً و طاب لهم العيش و تمسكوا بالدين لأنه زادهم طريقاً إلى نيل الدنيا فعظموا ناموسه و بالغوا في إجلاله و إجلال الرسول الذي جاء به ثم انقرض الأسلاف و جاء الأخلاف على عقيدة ممهدة و أمر أخذوه تقليداً من أسلافهم الذين ربوا في حجوهم ثم انقرض ذلك القرن و جاء من بعدهم كذلك و هلم جرا. قال و لو لا الفتوح و النصر و الظفر الذي منحهم الله تعالى إياه و الدولة التي ساقها إليهم لانقرض دين الإسلام بعد وفاة رسول الله ص و كان يذكر في التواريخ كما تذكر الآن نبوة خالد بن سنان العبسي حيث ظهر و دعا إلى الدين و كان الناس يعجبون من ذلك و يتذاكرونه كما يعجبون و يتذاكرون أخبار من نبغ من الرؤساء و الملوك و الدعاة الذين انقرض أمرهم و بقيت أخبارهم. و كان يقول من تأمل حال الرجلين وجدهما متشابهتين في جميع أمورهما أو في أكثرها و ذلك لأن حرب رسول الله ص مع المشركين كانت سجالات انتصر يوم بدر و انتصر المشركون عليه يوم أحد و كان يوم الخندق كفافاً خرج هو و هم سواء لا عليه و لا له لأنهم قتلوا رئيس الأوس و هو سعد بن معاذ و قتل منهم فارس قريش و هو عمرو بن عبد ود و انصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت ثم حارب بعدها قريشا يوم الفتح فكان الظفر له. و هكذا كانت حروب علي ع انتصر يوم الجمل و خرج الأمر بينه و بين

معاوية على سواء قتل من أصحابه رؤساء و من أصحاب معاوية رؤساء و انصرف كل واحد من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه ثم حارب بعد صفين أهل النهروان فكان الظفر له. قال و من العجب أن أول حروب رسول الله ص كانت بدرا و كان هو المنصور فيها و أول حروب علي ع الجمل و كان هو المنصور فيها ثم كان من صحيفة الصلح و الحكومة يوم صفين نظير ما كان من صحيفة الصلح و الهدنة يوم الحديبية ثم دعا معاوية في آخر أيام علي ع إلى نفسه و تسمى بالخلافة كما أن مسيلمة و الأسود العنسي دعوا إلى أنفسهما في آخر أيام رسول الله ص و تسميا بالنبوة و اشتد على علي ع ذلك كما اشتد على رسول الله ص أمر الأسود و مسيلمة و أبطل الله أمرهما بعد وفاة النبي ص و كذلك أبطل أمر معاوية و بني أمية بعد وفاة علي ع و لم يحارب رسول الله ص أحد من العرب إلا قريش ما عدا يوم حنين و لم يحارب عليا ع من العرب أحد إلا قريش ما عدا يوم النهروان و مات علي ع شهيدا بالسيف و مات رسول الله ص شهيدا بالسهم و هذا لم يتزوج على خديجة أم أولاده حتى ماتت و هذا لم يتزوج على فاطمة أم أشرف أولاده حتى ماتت و مات رسول الله ص عن ثلاث و ستين سنة و مات علي ع عن مثلها. و كان يقول انظروا إلى أخلاقهما و خصائصهما هذا شجاع و هذا شجاع و هذا فصيح و هذا فصيح و هذا سخي جواد و هذا سخي جواد و هذا عالم بالشرائع و الأمور الإلهية و هذا عالم بالفقه و الشريعة و الأمور الإلهية الدقيقة الغامضة و هذا زاهد في الدنيا غير نهم و لا مستكثر منها و هذا زاهد في الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها و هذا مذهب نفسه في الصلاة و العبادة و هذا مثله و هذا غير محبب إليه شيء من الأمور العاجلة

إلا النساء و هذا مثله و هذا ابن عبد المطلب بن هاشم و هذا في قعده و أبواهما أخوان لأب و أم دون غيرهما من بني عبد المطلب و ربي مُحَمَّد ص في حجر والد هذا و هذا أبو طالب فكان جاريا عنده مجرى أحد أولاده ثم لما شب ص و كبر استخلصه من بني أبي طالب و هو غلام فرباه في حجره مكافأة لصنيع أبي طالب به فامتزج الخلجان و تماثلت السجيتان و إذا كان القرين مقتديا بالقرين فما ظنك بالتربية و التثقيف الدهر الطويل فواجب أن تكون أخلاق مُحَمَّد ص كأخلاق أبي طالب و تكون أخلاق علي ع كأخلاق أبي طالب أبيه و مُحَمَّد ع مربيه و أن يكون الكل شيمة واحدة و سوسا واحدا و طينة مشتركة و نفسا غير منقسمة و لا متجزئة و ألا يكون بين بعض هؤلاء و بعض فرق و لا فضل لو لا أن الله تعالى اختص مُحَمَّدًا ص برسالته و اصطفاه لوحيه لما يعلمه من مصالح البرية في ذلك و من أن اللطف به أكمل و النفع بمكانه أتم و أعم فامتاز رسول الله ص بذلك عمن سواه و بقي ما عدا الرسالة على أمر الاتحاد و إلى هذا المعنى أشار ص بقوله أخصمك بالنبوة فلا نبوة بعدي و تخصم الناس بسبع و قال له أيضا أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي فأبان نفسه منه بالنبوة و أثبت له ما عداها من جميع الفضائل و الخصائص مشتركا بينهما. و كان النقيب أبو جعفر عليه السلام غزير العلم صحيح العقل منصفًا في الجدل غير متعصب للمذهب و إن كان علويا و كان يعترف بفضائل الصحابة و يثني على الشيخين. و يقول إنهما مهذا دين الإسلام و أرسيا قواعده و لقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله ص و إنما مهدها بما تيسر للعرب من الفتوح و الغنائم في دولتهما. و كان يقول في عثمان إن الدولة في أيامه كانت على إقبالها و علو جدها بل كانت الفتوح في أيامه أكثر و الغنائم أعظم لو لا أنه لم يراع ناموس الشيخين و لم يستطع أن يسلك

مسلكتهما و كان مضعفا في أصل القاعدة مغلوبا عليه و كثير الحب لأهله و أتيح له من مروان وزير سوء أفسد القلوب عليه و حمل الناس على خلعه و قتله

كلام أبي جعفر الحسني في الأسباب التي أوجبت محبة الناس لعلي

و كان أبو جعفر عليه السلام لا يجحد الفاضل فضله و الحديث شجون. قلت له مرة ما سبب حب الناس لعلي بن أبي طالب ع و عشقهم له و تهالكهم في هواه و دعني في الجواب من حديث الشجاعة و العلم و الفصاحة و غير ذلك من الخصائص التي رزقه الله سبحانه الكثير الطيب منها. فضحك و قال لي كم تجمع جراميزك علي. ثم قال هاهنا مقدمة ينبغي أن تعلم و هي أن أكثر الناس موتورون من الدنيا أما المستحقون فلا ريب في أن أكثرهم محرومون نحو عالم يرى أنه لا حظ له في الدنيا و يرى جاهلا غيره مرزوقا و موسعا عليه و شجاع قد أبلى في الحرب و انتفع بموضعه ليس له عطاء يكفيه و يقوم بضروراته و يرى غيره و هو جبان فشل يفرق من ظله مالكا لقطر عظيم من الدنيا و قطعة وافرة من المال و الرزق و عاقل سديد التدبير صحيح العقل قد قدر عليه رزقه و هو يرى غيره أحق مائقا تدر عليه الخيرات و تتحلب عليه أخلاف الرزق و ذي دين قوي و عبادة حسنة و إخلاص و توحيد و هو محروم ضيق الرزق و يرى غيره يهوديا أو نصرانيا أو زنديقا كثير المال حسن الحال حتى إن هذه الطبقات المستحقة يحتاجون في أكثر الوقت إلى الطبقات التي لا استحقاق

لها و تدعوهم الضرورة إلى الذل لهم و الخضوع بين أيديهم إما لدفع ضرر أو لاستجلاب نفع و دون هذه الطبقات من ذوي الاستحقاق أيضا ما نشاهده عيانا من نجار حاذق أو بناء عالم أو نقاش بارع أو مصور لطيف على غاية ما يكون من ضيق رزقهم و قعود الوقت بهم و قلة الحيلة لهم و يرى غيرهم ممن ليس يجري مجراهم و لا يلحق طبقتهم مرزوقا مرغوبا فيه كثير المكسب طيب العيش واسع الرزق فهذا حال ذوي الاستحقاق و الاستعداد و أما الذين ليسوا من أهل الفضائل كحشو العامة فإنهم أيضا لا يخلون من الحقد على الدنيا و الذم لها و الحنق و الغيظ منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم و جيرانهم و لا يرى أحد منهم قانعا بعيشه و لا راضيا بحاله بل يستريد و يطلب حالا فوق حاله. قال فإذا عرفت هذه المقدمة فمعلوم أن عليا ع كان مستحقا محروما بل هو أمير المستحقين المحرومين و سيدهم و كبيرهم و معلوم أن الذين ينالهم الضيم و تلحقهم المذلة و الهزيمة يتعصب بعضهم لبعض و يكونون إلبا و يدا واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا و نالوا مآربهم منها لا اشتراكهم في الأمر الذي آلمهم و ساءهم و عضهم و مضهم و اشتراكهم في الأنفة و الحمية و الغضب و المنافسة لمن علا عليهم و قهرهم و بلغ من الدنيا ما لم يبلغوه فإذا كان هؤلاء أعني المحرومين متساوين في المنزلة و المرتبة و تعصب بعضهم لبعض فما ظنك بما إذا كان منهم رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف جامع للفضائل محتو على الخصائص و المناقب و هو مع ذلك محروم محدود و قد جرعت الدنيا علاقمها و علته عللا بعد نحل من صابها و صبرها و لقي منها بارحا و جهدا جهيدا و علا عليه من هو دونه و حكم فيه و في بنيه و أهله و رهطه من لم يكن ما ناله من الإمرة و السلطان في حسابه و لا دائرا في خلدته و لا خاطرا بباله و لا كان أحد من الناس يرتقب ذلك له و لا يراه له ثم كان في آخر الأمر أن قتل هذا الرجل الجليل في

محرابه و قتل بنوه بعده و سبي حريمه و نساؤه و تتبع أهله و بنو عمه بالقتل و الطرد و التشريد و السجن مع فضلهم و زهدهم و عبادتهم و سخائهم و انتفاع الخلق بهم فهل يمكن ألا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص و هل تستطيع القلوب ألا تحبه و تحواه و تذوب فيه و تفنى في عشقه انتصارا له و حمية من أجله و أنفة مما ناله و امتعاضا مما جرى عليه و هذا أمر مركوز في الطبائع و مخلوق في الغرائز كما يشاهد الناس على الجرف إنسانا قد وقع في الماء العميق و هو لا يحسن السباحة فإنهم بالطبع البشري يرقون عليه رقة شديدة و قد يلقي قوم منهم أنفسهم في الماء نحوه يطلبون تخليصه لا يتوقعون على ذلك مجازاة منه بمال أو شكر و لا ثوابا في الآخرة فقد يكون منهم من لا يعتقد أمر الآخرة و لكنها رقة بشرية و كان الواحد منهم يتخيل في نفسه أنه ذلك الغريق فكما يطلب خلاص نفسه لو كان هذا الغريق كذلك يطلب تخلص من هو في تلك الحال الصعبة للمشاركة الجنسية و كذلك لو أن ملكا ظلم أهل بلد من بلاده ظلما عنيفا لكان أهل ذلك البلد يتعصب بعضهم لبعض في الانتصار من ذلك الملك و الاستعداد عليه فلو كان من جملتهم رجل عظيم القدر جليل الشأن قد ظلمه الملك أكثر من ظلمه إياهم و أخذ أمواله و ضياعه و قتل أولاده و أهله كان لياذهم به و انضواؤهم إليه و اجتماعهم و التفافهم به أعظم و أعظم لأن الطبيعة البشرية تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب الاضطراري و لا يستطيع الإنسان منه امتناعا. و هذا محصل قول النقيب أبي جعفر عليه السلام قد حكيت و الألفاظ لي و المعنى له لأني لا أحفظ الآن ألفاظه بعينها إلا أن هذا هو كان معنى قوله و فحواه عليه السلام و كان لا يعتقد في الصحابة ما يعتقد أكثر الإمامية فيهم و يسفه رأي من يذهب فيهم إلى النفاق و التكفير و كان يقول حكمهم حكم مسلم مؤمن عصى في بعض الأفعال و خالف الأمر فحكمه إلى الله إن شاء أخذه و إن شاء غفر له.

فلت له مرة أفتقول أنهما من أهل الجنة فقال إي والله أعتقد ذلك لأنهما إما أن يعفو الله تعالى عنهما ابتداء أو بشفاعة الرسول ص أو بشفاعة علي ع أو يؤاخذهما بعقاب أو عتاب ثم ينقلهما إلى الجنة لا أستريب في ذلك أصلا ولا أشك في إيمانهما برسول الله ص و صحة عقيدتهما. فقلت له فعثمان قال وكذلك عثمان ثم قال رحم الله عثمان و هل كان إلا واحدا منا و غصنا من شجرة عبد مناف و لكن أهله كدروه علينا و أوقعوا العداوة و البغضاء بينه و بيننا. قلت له فيلزمك على ما تراه في أمر هؤلاء أن تجوز دخول معاوية الجنة لأنه لم تكن منه إلا المخالفة و ترك امتثال أمر النبوي. فقال كلا إن معاوية من أهل النار لا لمخالفته عليا و لا بمحاربتة إياه و لكن عقيدته لم تكن صحيحة و لا إيمانه حقا و كان من رءوس المنافقين هو و أبوه و لم يسلم قلبه قط و إنما أسلم لسانه و كان يذكر من حديث معاوية و من فلتات قوله و ما حفظ عنه من كلام يقتضي فساد العقيدة شيئا كثيرا ليس هذا موضعه فأذكره. و قال لي مرة حاش لله أن يثبت معاوية في جريدة الشيخين الفاضلين أبي بكر و عمر و الله ما هما إلا كالذهب الإبريز و لا معاوية إلا كالدرهم الزائف أو قال كالدرهم القسي ثم قال لي فما يقول أصحابكم فيهما قلت أما الذي استقر عليه رأي المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم في التفضيل و غيره أن عليا ع أفضل الجماعة و أنهم تركوا الأفضل لمصلحة رؤوفا و أنه لم يكن هناك نص يقطع العذر و إنما كانت إشارة و إيماء لا يتضمن شيء منها صريح النص و إن عليا ع نازع ثم بايع

و جمع ثم استجاب و لو أقام على الامتناع لم نقل بصحة البيعة و لا بلزومها و لو جرد السيف كما جرده في آخر الأمر لقلنا بفسق كل من خالفه على الإطلاق كائنا من كان و لكنه رضي بالبيعة أخيرا و دخل في الطاعة. و بالجملة أصحابنا يقولون إن الأمر كان له و كان هو المستحق و المتعين فإن شاء أخذه لنفسه و إن شاء ولاه غيره فلما رأيناه قد وافق على ولاية غيره اتبعناه و رضينا بما رضي فقال قد بقي بيني و بينكم قليل أنا أذهب إلى النص و أنتم لا تذهبون إليه. فقلت له إنه لم يثبت النص عندنا بطريق يوجب العلم و ما تذكرونه أنتم صريحا فأنتم تتفردون بنقله و ما عدا ذلك من الأخبار التي نشارككم فيها فلها تأويلات معلومة. فقال لي و هو ضجر يا فلان لو فتحنا باب التأويلات لجاز أن يتناول قولنا لا إله إلا الله محمد رسول الله دعني من التأويلات الباردة التي تعلم القلوب و النفوس أنها غير مرادة و أن المتكلمين تكلفوها و تعسفوها فإنما أنا و أنت في الدار و لا ثالث لنا فيستحيي أحدنا من صاحبه أو يخافه. فلما بلغنا إلى هذا الموضع دخل قوم ممن كان يخشاه فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث و خضنا في غيره.

سياسة علي و معاوية و إيراد كلام للجاحظ في ذلك

فأما القول في سياسة معاوية و أن شنة علي ع و مبغضيه زعموا أنها خير من سياسة أمير المؤمنين فيكفينا في الكلام على ذلك ما قاله شيخنا أبو عثمان و نحن نحكيه بألفاظه.

قال أبو عثمان و ربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل و التحصيل و الفهم و التمييز و هو من العامة و يظن أنه من الخاصة يزعم أن معاوية كان أبعد غورا و أصح فكرا و أجود روية و أبعد غاية و أدق مسلكا و ليس الأمر كذلك و سأرمي إليك بجملة تعرف بها موضع غلطه و المكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله. كان علي ع لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب و السنة و كان معاوية يستعمل خلاف الكتاب و السنة كما يستعمل الكتاب و السنة و يستعمل جميع المكاييد حلالها و حرامها و يسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى و خاقان إذا لاقى رتييل و علي ع يقول لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم و لا تتبعوا مدبرا و لا تجهزوا على جريح و لا تفتحوا بابا مغلقا هذه سيرته في ذي الكلاع و في أبي الأعور السلمي و في عمرو بن العاص و حبيب بن مسلمة و في جميع الرؤساء كسيرته في الحاشية و الحشو و الأتباع و السفلة و أصحاب الحروب إن قدروا على البيات بيتوا و إن قدروا على رضخ الجميع بالجنادل و هم نيام فعلوا و إن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه إلى ساعة و إن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق و لم يؤخروا الحرق إلى وقت الغرق و إن أمكن الهدم لم يتكلفوا الحصار و لم يدعوا أن ينصبوا المجانيق و العرادات و النقب و التسريب و الدبابات و الكمين و لم يدعوا دس السموم و لا التضريب بين الناس بالكذب و طرح

الكتب في عساكرهم بالسعائيات و توهيم الأمور و إيجاش بعض من بعض و قتلهم بكل آلة و حيلة كيف وقع القتل و كيف دارت بهم الحال فمن اقتصر حفظك الله من التدبير على ما في الكتاب و السنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير و ما لا يتناهى من المكاييد و الكذب حفظك الله أكثر من الصدق و الحرام أكثر عددا من الحلال و لو سمي إنسان إنسانا باسمه لكان قد صدق و ليس له اسم غيره و لو قال هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير أو كل ما خطر على البال لكان كاذبا في ذلك و كذلك الإيمان و الكفر و كذلك الطاعة و المعصية و كذلك الحق و الباطل و كذلك السقم و الصحة و كذلك الخطأ و الصواب فعلي ع كان ملجما بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عز و جل رضا و ممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا و لا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله و يحبه و لا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب و السنة دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء و النكراء و المكاييد و الآراء فلما أبصرت العوام كثرة نوادر معاوية في المكاييد و كثرة غرائب في الخداع و ما اتفق له و تهيأ على يده و لم يرو ذلك من علي ع ظنوا بقصر عقولهم و قلة علومهم أن ذاك من رجحان عند معاوية و نقصان عند علي ع فانظر بعد هذا كله هل يعد له من الخدع إلا رفع المصاحف ثم انظر هل خدع بها إلا من عصى رأي علي ع و خالف أمره. فإن زعمت أنه قال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت و ليس في هذا اختلافنا و لا عن غرارة أصحاب علي ع و عجلتهم و تسرعهم و تنازعهم دفعنا و إنما كان قولنا في التميز بينهما في الدهاء و النكراء و صحة العقل و الرأي و البزلاء على أنا لا نصف الصالحين

بالدهاء و النكراء لا نقول ما كان أنكر أبا بكر بن أبي قحافة و ما كان أنكر عمر بن الخطاب و لا يقول أحد عنده شيء من الخير كان رسول الله ص أدهى العرب و العجم و أنكر قريش و أمكر كنانة لأن هذه الكلمة إنما وضعت في مديح أصحاب الأرب و من يتعمق في الرأي في توكيد الدنيا و زبرجها و تشديد أركانها فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر و إنما يصلحون على تدبير خالق البشر فإن هؤلاء لا يمدحون بالدهاء و النكراء و لم يمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه أ لا ترى أن المغيرة بن شعبة و كان أحد الدهاة حين رد على عمرو بن العاص قوله في عمر بن الخطاب و عمرو بن العاص أحد الدهاة أيضا أنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئاً فيلقنه عنك ما رأيت عمر مستخليا بأحد إلا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل كان عمر و الله أعقل من أن يخدع و أفضل من أن يخدع و لم يذكره بالدهاء و النكراء هذا مع عجب به بإضافة الناس ذلك إليه و لكنه قد علم أنه إذا أطلق على الأئمة الألفاظ التي لا تصلح في أهل الطهارة كان ذلك غير مقبول منه فهذا هذا. وكذلك كان حكم قول معاوية للجميع أخرجوا إلينا قتلة عثمان و نحن لكم سلم فاجهد كل جهدك و استعن بمن شايئك إلى أن تتخلص إلى صواب رأي في ذلك الوقت أضله علي حتى تعلم أن معاوية خادع و أن عليا ع كان المخدوع. فإن قلت فقد بلغ ما أراد و نال ما أحب فهل رأيت كتابنا وضع إلا على أن عليا كان قد امتحن في أصحابه و في دهره بما لم يمتحن إمام قبله من الاختلاف و المنازعة و التشاح من الرئاسة و التسرع و العجلة و هل أتى ع إلا من هذا المكان أ و لسنا قد فرغنا من هذا الأمر و قد علمنا أن ثلاثة نفر تواطئوا على قتل ثلاثة نفر فانفرد ابن ملجم

بالتماس ذلك من علي ع و انفرد البرك الصريمي بالتماس ذلك من عمرو بن العاص و انفرد الآخر و هو عمرو بن بكر التميمي بالتماس ذلك من معاوية فكان من الاتفاق أو من الامتحان أن كان علي من بينهم هو المقتول. و في قياس مذهبكم أن تزعموا أن سلامة عمرو و معاوية إنما كانت بحزم منهما و أن قتل علي ع إنما هو من تضييع منه فإذا قد تبين لكم أنه من الابتلاء و الامتحان في نفسه بخلاف الذي قد شاهدتموه في عدوه فكل شيء سوى ذلك فإنما هو تبع للنفس. هذا آخر كلام أبي عثمان في هذا الموضع و من تأمله بعين الإنصاف و لم يتبع الهوى علم صحة جميع ما ذكره و أن أمير المؤمنين دفع من اختلاف أصحابه و سوء طاعتهم له و لزومه سنن الشريعة و منهج العدل و خروج معاوية و عمرو بن العاص عن قاعدة الشرع في استمالة الناس إليهم بالرغبة و الرهبة إلى ما لم يدفع إليه غيره فلو لا أنه ع كان عارفاً بوجوه السياسة و تدبير أمر السلطان و الخلافة حاذقاً في ذلك لم يجتمع عليه إلا القليل من الناس و هم أهل الآخرة خاصة الذين لا ميل لهم إلى الدنيا فلما وجدناه دبر الأمر حين وليه و اجتمع عليه من العساكر و الأتباع ما يتجاوز العد و الحصر و قاتل بهم أعداءه الذين حالهم حالهم فظفر في أكثر حروبه و وقف الأمر بينه و بين معاوية على سواء و كان هو الأظهر و الأقرب إلى الانتصار علمنا أنه من معرفة تدبير الدول و السلطان بمكان مكين

ذكر أقوال من طعن في سياسة علي و الرد عليها

و قد تعلق من طعن في سياسته بأمور منها قولهم لو كان حين بوبع له بالخلافة في المدينة أقر معاوية على الشام إلى أن يستقر الأمر له و يتوطد و يبایعه معاوية و أهل الشام ثم يعزله بعد ذلك لكان قد كفي ما جرى بينهما من الحرب. و الجواب أن قرائن الأحوال حينئذ قد كان علم أمير المؤمنين ع منها أن معاوية لا يبایع له و إن أقره على ولاية الشام بل كان إقراره له على إمرة الشام أقوى لحال معاوية و أكد في الامتناع من البيعة لأنه لا يخلو صاحب السؤال إما أن يقول كان ينبغي أن يطالبه بالبيعة و يقرن إلى ذلك تقليده بالشام فيكون الأمران معا أو يتقدم منه ع المطالبة بالبيعة أو يتقدم منه إقراره على الشام و تتأخر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثان فإن كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاوية على أهل الشام تقليده بالإمرة فيؤكد حاله عندهم و يقرر في أنفسهم لو لا أنه أهل لذلك لما اعتمده علي ع معه ثم يماطله بالبيعة و يحاجزه عنها و إن كان الثاني فهو الذي فعله أمير المؤمنين ع و إن كان الثالث فهو كالقسم الأول بل هو أكد فيما يريده معاوية من الخلاف و العصيان و كيف يتوهم من يعرف السير أن معاوية كان يبایع له لو أقره على الشام و بينه و بينه ما لا تبرك الإبل عليه من الترات القديمة و الأحقاد و هو الذي قتل حنظلة أخاه و الوليد خاله و عتبة جده في مقام واحد ثم ما جرى بينهما في أيام عثمان حتى أغلظ كل واحد منهما لصاحبه و حتى تحدده معاوية و قال له إني شاخص إلى الشام و تارك عندك هذا الشيخ يعني عثمان و الله لعن

انحصت منه شعرة واحدة لأضربنك بمائة ألف سيف و قد ذكرنا شيئاً مما جرى بينهما فيما تقدم. و أما قول ابن عباس له ع وله شهرا و اعزله دهرا و ما أشار به المغيرة بن شعبه فإنهما ما توهماه و ما غلب على ظنونهما و خطر بقلوبهما و علي ع كان أعلم بحاله مع معاوية و أنها لا تقبل العلاج و التدبير و كيف يخطر ببال عارف بحال معاوية و نكره و دهائه و ما كان في نفسه من علي ع من قتل عثمان و من قبل قتل عثمان أنه يقبل إقرار علي ع له على الشام و ينخدع بذلك و يبايع و يعطي صفقة يمينه إن معاوية لأدهى من أن يكاد بذلك و إن عليا ع لأعرف بمعاوية ممن ظن أنه لو استماله بإقراره لبايع له و لم يكن عند علي ع دواء لهذا المرض إلا السيف لأن الحال إليه كانت تقول لا محالة فجعل الآخر أولا. و أنا أذكر في هذا الموضع خبرا رواه الزبير بن بكار في الموفقيات ليعلم من يقف عليه أن معاوية لم يكن لينجذب إلى طاعة علي ع أبدا و لا يعطيه البيعة و أن مضادته له و مباينته إياه كمضادة السواد للبياض لا يجتمعان أبدا و كمباينة السلب للإيجاب فإنها مباينة لا يمكن زوالها أصلا قال الزبير حدثني مُجَدُّ بن زكريا بن بسطام قال حدثني مُجَدُّ بن يعقوب بن أبي الليث قال حدثني أحمد بن مُجَدُّ بن الفضل بن يحيى المكي عن أبيه عن جده الفضل بن يحيى عن الحسن بن عبد الصمد عن قيس بن عرفة قال لما حصر عثمان أبرد مروان بن الحكم بخبره يريدان أحدهما إلى الشام و الآخر إلى اليمن و بها يومئذ يعلى بن منية و مع كل واحد منهما كتاب فيه أن بني أمية في الناس كالشامة

الحمراء و أن الناس قد قعدوا لهم برأس كل محجة و على كل طريق فجعلوهم مرمى العر و العضيهة و مقذف القشب و الأفيكة و قد علمتم أنها لم تأت عثمان إلا كرها تجبذ من ورائها و إني خائف إن قتل أن تكون من بني أمية بمناط الثريا إن لم نصر كرصيف الأساس المحكم و لئن وهى عمود البيت لتتداعين جدرانها و الذي عيب عليه إطعامكما الشام و اليمن و لا شك أنكما تابعا إن لم تحذرا و أما أنا فمساعف كل مستشير و معين كل مستصرخ و مجيب كل داع أتوقع الفرصة فأثب وثبة الفهد أبصر غفلة مقتنصة و لو لا مخافة عطب البريد و ضياع الكتب لشرحت لكما من الأمر ما لا تفرعان معه إلى أن يحدث الأمر فجدا في طلب ما أنتما ولياه و على ذلك فليكن العمل إن شاء الله و كتب في آخره:

و ما بلغت عثمان حتى تخطمت رجال و دانت للصغار رجال
لقد رجعت عودا على بدء كونها و إن لم تجدا فالمصير زوال
سييدي مكنون الضمائر قولهم و يظهر منهم بعد ذاك فعال
فإن تقعدا لا تطلبا ما ورثتما فليس لنا طول الحياة مقال
نعيش بدار الذل في كل بلدة و تظهر مناكبة و هزال
فلما ورد الكتاب على معاوية أذن في الناس الصلاة جامعة ثم خطبهم خطبة المستنصر المستصرخ. و في أثناء ذلك ورد عليه قبل أن يكتب الجواب كتاب مروان بقتل عثمان و كانت نسخته وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوة العزم و صلاح النية و من عليك بمعرفة الحق و اتباعه فإني كتبت إليك هذا الكتاب بعد قتل عثمان أمير المؤمنين

و أي قتلة قتل نحر كما ينحر البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بالحمل بعد أن نقتب صفحته بطي المراحل و سير الهجير و إني معلمك من خبره غير مقصر و لا مطيل إن القوم استطالوا مدته و استقلوا ناصره و استضعفوه في بدنه و أملوا بقتله بسط أيديهم فيما كان قبضه عنهم و اعصوبوا عليه فظل محاصرا قد منع من صلاة الجماعة و رد المظالم و النظر في أمور الرعية حتى كأنه هو فاعل لما فعلوه فلما دام ذلك أشرف عليهم فخوفهم الله و ناشدهم و ذكرهم مواعيد رسول الله ص له و قوله فيه فلم يحدوا فضله و لم ينكروه ثم رموه بأباطيل اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعة إلى قتله فوعدهم التوبة مما كرهوا و وعدهم الرجعة إلى ما أحبوا فلم يقبلوا ذلك و نهبوا داره و انتهكوا حرمة و وثبوا عليه فسفكوا دمه و انقشعوا عنه انقشاع سحابة قد أفرغت ماءها منكفئين قبل ابن أبي طالب انكفاء الجراد إذا أبصر المرعى فأخلق ببني أمية أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العيوق إن لم يثأره ثائر فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكنه و السلام. فلما ورد الكتاب على معاوية أمر بجمع الناس ثم خطبهم خطبة أبكى منها العيون و قلقل القلوب حتى علت الرنة و ارتفع الضجيج و هم النساء أن يتسلحن ثم كتب إلى طلحة بن عبيد الله و الزبير بن العوام و سعيد بن العاص و عبد الله بن عامر بن كريز و الوليد بن عقبة و يعلى بن منية و هو اسم أمه و إنما اسم أبيه أمية. فكان كتاب طلحة أما بعد فإنك أقل قريش و ترا مع صباحة وجهك و سماحة كفك و فصاحة لسانك فأنت بإزاء من تقدمك في السابقة و خامس المبشرين بالجنة و لك يوم أحد و شرفه و فضله فسارع رحمك الله إلى ما تقلدك الرعية من أمرها مما لا يسعك التخلف عنه و لا يرضى الله منك إلا بالقيام به فقد أحكمت لك الأمر

قبلي و الزبير فغير متقدم عليك بفضل و أيكما قدم صاحبه فالمقدم الإمام و الأمر من بعده للمقدم له سلك الله بك قصد المهتدين و وهب لك رشد الموفقين و السلام. و كتب إلى الزبير أما بعد فإنك الزبير بن العوام بن أبي خديجة و ابن عمه رسول الله ص و حواريه و سلفه و صهر أبي بكر و فارس المسلمين و أنت الباذل في الله مهجته بمكة عند صيحة الشيطان بعثك المنبعث فخرجت كالثعبان المنسلخ بالسيف المنصلت تخبط خبط الجمل الرديع كل ذلك قوة إيمان و صدق يقين و سبقت لك من رسول الله ص البشارة بالجنة و جعلك عمر أحد المستخلفين على الأمة و اعلم يا أبا عبد الله أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغيبة الراعي فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء و لم الشعث و جمع الكلمة و صلاح ذات البين قبل تفاقم الأمر و انتشار الأمة فقد أصبح الناس على شفا جرف هار عما قليل ينهار إن لم يرأب فشمز لتأليف الأمة و ابتغ إلى ربك سبيلا فقد أحكمت الأمر على من قبلي لك و لصاحبك على أن الأمر للمقدم ثم لصاحبه من بعده و جعلك الله من أئمة الهدى و بغاة الخير و التقوى و السلام. و كتب إلى مروان بن الحكم أما بعد فقد وصل إلي كتابك بشرح خبر أمير المؤمنين و ما ركبوه به و نالوه منه جهلا بالله و جراءة عليه و استخفافا بحقه و لأماني لوح الشيطان بما في شرك الباطل ليدهدهم في أهويات الفتن و وهادات الضلال و لعمرى لقد صدق عليهم ظنه و لقد اقتنصهم بأنشودة فحه فعلى رسلك أبا عبد الله يمشى الهوينى و يكون أولا فإذا قرأت كتابي هذا فكن كالشهد لا يصطاد إلا غيلة و لا يتشازر إلا عن حيلة

و كالثعلب لا يفلت إلا روغانا و أخف نفسك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأكف و
امتهن نفسك امتهان من يئأس القوم من نصره و انتصاره و ابحت عن أمورهم بحت الدجاجة عن
حب الدخن عند فقاسها و أنغل الحجاز فإني منغل الشام و السلام. و كتب إلى سعيد بن العاص
أما بعد فإن كتاب مروان ورد علي من ساعة وقعت النازلة تقبل به البرد بسير المطي الوجيف
تتوجس الحية الذكر خوف ضربة الفأس و قبضة الحاوي و مروان الرائد لا يكذب أهله
فعلام الإفكاك يا ابن العاص و لات حين مناص ذلك أنكم يا بني أمية عما قليل تسألون أدنى
العيش من أبعد المسافة فينكركم من كان منكم عارفا و يصد عنكم من كان لكم واصلا متفرقين
في الشعاب تتمنون لمظة المعاش إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم و قتل في سبيلكم فقيم القعود
عن نصرته و الطلب بدمه و أنتم بنو أبيه ذوو رحمه و أقربوه و طلاب ثأره أصبحتم متمسكين
بشظف معاش زهيد عما قليل ينزع منكم عند التخاذل و ضعف القوى فإذا قرأت كتابي هذا
فدب ديب البرء في الجسد النحيف و سر سير النجوم تحت الغمام و احشد حشد الذرة في
الصيف لانجحارها في الصرد فقد أيدتكم بأسد و تيم و كتب في الكتاب:

تالله لا يذهب شيخي باطلا حتى أبير مالكا و كاهلا

القاتلين الملك الحاحلا خير معد حسبا و نائلا

و كتب إلى عبد الله بن عامر أما بعد فإن المنبر مركب ذلول سهل الرياضة لا ينازعك اللجام و
هيهات ذلك إلا بعد ركوب أثباج المهالك و اقتحام أمواج المعاطب و كأني بكم يا بني أمية
شعارير كالأوارك تقودها الحداة أو كرخم الخندمة تذرق خوف العقاب فنب الآن رحمك الله قبل
أن يستشري الفساد و ندب السوط جديد و الجرح لما يندمل و من قبل استضرء الأسد و التقاء
لحييه على فريسته و ساور الأمر مساورة الذئب الأطلس كسيرة القطيع و نازل الرأي و انصب
الشرك و ارم عن تمكّن و ضع الهناء مواضع النقب و اجعل أكبر عدتك الحذر و أحد سلاحك
التحريض و اغض عن العوراء و سامح اللجوج و استعطف الشارد و لاین الأشوس و قو عزم
المريد و بادر العقبة و ازحف زحف الحية و اسبق قبل أن تسبق و قم قبل أن يقام لك و اعلم
أنك غير متروك و لا مهمل فإني لكم ناصح أمين و السلام. و كتب في أسفل الكتاب

عليك سلام الله قيس بن عاصم و رحمته ما شاء أن يترحمها
تحيمة من أهدي السلام لأهله إذا شط دارا عن مزارك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد و لكنه بنيان قوم تهلما
و كتب إلى الوليد بن عقبة يا ابن عقبة كن الجيش و طيب العيش أطيّب من سفح سموم
الجوزاء عند اعتدال الشمس في أفقها إن عثمان أخاك أصبح بعيدا منك فاطلب لنفسك ظلا
تستكن به إني أراك على التراب رقودا و كيف بالرقاد بك لا رقاد لك فلو قد استتب هذا الأمر
لمريده ألفت كشريد النعام يفزع من ظل الطائر و عن قليل تشرب الرنق و تستشعر الخوف أراك
فسيح الصدر مسترخي اللب رخو الحزام قليل الاكتراث و عن قليل يجتث أصلك و السلام. و
كتب في آخر الكتاب

اخترت نومك أن هبت شامية عند الهجير و شربا بالعشيات
على طلابك ثارا من بني حكم هيهات من راقد طلاب ثارات
و كتب إلى يعلى بن أمية حاطك الله بكلاءته و أيدك بتوفيقه كتبت إليك صبيحة ورد علي
كتاب مروان بنجر قتل أمير المؤمنين و شرح الحال فيه و إن أمير المؤمنين طال به العمر حتى
نقصت قواه و ثقلت نهضته و ظهرت الرعشة في أعضائه فلما رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده
موضعا للإمامة و الأمانة و تقليد الولاية وثبوا به و ألبوا عليه فكان أعظم ما نقموا عليه و عابوه
به ولايتك اليمن و طول مدتك عليها ثم ترامى بهم الأمر حالا بعد حال

حتى ذبحوه ذبح النطيحة مبادرا بها الفوت و هو مع ذلك صائم معانق المصحف يتلو كتاب الله فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرسول و الإمام المقتول على غير جرم سفكوا دمه و انتهكوا حرمة و أنت تعلم أن بيعته في أعناقنا و طلب ثأره لازم لنا فلا خير في دنيا تعدل بنا عن الحق و لا في إمرة توردنا النار و إن الله جل ثناؤه لا يرضى بالتعذير في دينه فشمرد لدخول العراق، فأما الشام فقد كفيتك أهلها و أحكمت أمرها و قد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكة حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة و الطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم و كتبت إلى عبد الله بن عامر يمهد لكم العراق و يسهل لكم حزنونة عقابها. و اعلم يا ابن أمية أن القوم قاصدوك بادئ بدء لا يستنطاف ما حوته يداك من المال فاعلم ذلك و اعمل على حسبه إن شاء الله. و كتب في أسفل الكتاب:

ظل الخليفة محصورا يناشدهم	بالله طورا و بالقرآن أحيانا
و قد تألف أقوام على حنق	عن غير جرم و قالوا فيه بهتان
فقام يذكروهم وعد الرسول له	و قوله فيه إسرا و إعلانا
فقال كفوا فإني معتب لكم	و صارف عنكم يعلى و مروانا
فكذبوا ذاك منه ثم ساوره	من حاض لبته ظلما و عدوانا

قال فكتب إليه مروان جوابا عن كتابه أما بعد فقد وصل كتابك فنعم كتاب زعيم العشيرة و حامى الذمار و أخبرك

أن القوم على سنن استقامة إلا شظايا شعب شنت بينهم مقولي على غير مجاهدة حسب ما تقدم من أمرك و إنما كان ذلك رسيس العصاة و رمي أخدر من أغصان الدوحة و لقد طويت أديمهم على نغل يحلم منه الجلد كذبت نفس الظان بنا ترك المظلمة و حب الهجوع إلا تهوية الراكب العجل حتى تجذ جماجم و جماجم جذ العراجين المهذلة حين إيناعها و أنا على صحة نيتي و قوة عزيمتي و تحريك الرحم لي و غليان الدم مني غير سابقك بقول و لا متقدمك بفعل و أنت ابن حرب طلاب الترات و آبي الضميم. و كتابي إليك و أنا كحرباء السبب في الهجير ترقب عين الغزاة و كالسبع المفلت من الشرك يفرق من صوت نفسه منتظرا لما تصح به عزيمتك و يرد به أمرك فيكون العمل به و المحتذى عليه. و كتب في أسفل الكتاب:

أ يقتل عثمان و ترقا دموعنا	و نرقد هذا الليل لا نتفزع
و نشرب برد الماء ريا و قد مضى	على ظمأ يتلو القرآن و يركع
فإني و من حج الملبون بيته	و طافوا به سعيًا و ذو العرش يسمع
سأمنع نفسي كل ما فيه لذة	من العيش حتى لا يرى فيه مطمع
و أقتل بالمظلوم من كان ظالما	و ذلك حكم الله ما عنه مدفع

و كتب إليه عبد الله بن عامر

أما بعد فإن أمير المؤمنين كان لنا الجناح الحاضنة تأوي إليها فراخها تحتها فلما أفصده السهم صرنا كالنعام الشارد و لقد كنت مشترك الفكر ضال الفهم ألتمس دريئة أستجن بها من خطأ الحوادث حتى وقع إلي كتابك فانتبهت من غفلة طال فيها رقادي فأنا كواجد المحجة كان إلى جانبها حائرا و كأني أعاين ما وصفت من تصرف الأحوال. و الذي أخبرك به أن الناس في هذا الأمر تسعة لك و واحد عليك و و الله للموت في طلب العز أحسن من الحياة في الذلة و أنت ابن حرب فتى الحروب و نضار بني عبد شمس و الهمم بك منوطة و أنت منهضها فإذا نهضت فليس حين قعود و أنا اليوم على خلاف ما كانت عليه عزمي من طلب العافية و حب السلامة قبل قرعك سويداء القلب بسوط الملام و لنعم مؤدب العشيرة أنت و إنا لنرجوك بعد عثمان و ها أنا متوقع ما يكون منك لأمثله و أعمل عليه إن شاء الله. و كتب في أسفل الكتاب:

لا خير في العيش في ذل و منقصة	و الموت أحسن من ضيم و من عار
إنا بنو عبد شمس معشر أنف	غر جحاحجة طالاب أوتار
و الله لو كان ذميا مجاورنا	ليطلب العز لم نقعد عن الجار
فكيف عثمان لم يدفن بمزيلة	على القمامة مطروحا بها عار
فازحف إلي فإني زاحف لهم	بكل أبيض ماضي الحد بتار

و كتب إليه الوليد بن عقبة أما بعد فإنك أسد قريش عقلا و أحسنهم فهما و أصوبهم رأيا معك حسن

السياسة و أنت موضع الرئاسة تورّد بمعرفة و تصدر عن منهل روي مناوئك كالمقلب من العيوق يهوي به عاصف الشمال إلى لجة البحر. كتبت إلي تذكر طيب الخيش و لين العيش فملء بطني علي حرام إلا مسكة الرمق حتى أفري أوداج قتلة عثمان فري الأهب بشبابة الشفار و أما اللين فتهيئات إلا خيفة المرتقب يرتقب غفلة الطالب إنا على مداجاة و لما تبد صفحاتنا بعد و ليس دون الدم بالدم مزحل إن العار منقصة و الضعف ذل أ يخبط قتلة عثمان زهرة الحياة الدنيا و يسقون برد المعين و لما يمتطوا الخوف و يستحلّسوا الحذر بعد مسافة الطرد و امتطاء العقبة الكثود في الرحلة لا دعيت لعقبة إن كان ذلك حتى أنصب لهم حربا تضع الحوامل لها أطفالها قد ألوت بنا المسافة و وردنا حياض المنايا و قد عقلت نفسي على الموت عقل البعير و احتسبت أني ثاني عثمان أو أقتل قاتله فعجل علي ما يكون من رأيك فإننا منوطون بك متبعون عقبك و لم أحسب الحال تتراخي بك إلى هذه الغاية لما أخافه من إحكام القوم أمرهم و كتب في أسفل الكتاب:

نومي علي محرم إن لم أقم بدم ابن أمي من بني العلات

قامت علي إذا قعدت و لم أقم بطلاّب ذاك مناحة الأموات

عذبت حياض الموت عندي بعد ما كانت كريهة مورد النهلات

و كتب إليه يعلى بن أمية

إنا و أنتم يا بني أمية كالحجر لا يبنى بغير مدر و كالسيف لا يقطع إلا بضاربه. وصل كتابك
ببحر القوم و حالهم فلئن كانوا ذبحوه ذبح النطيحة بودر بها الموت لينحرن ذابحه نحر البدنة وافي بها
الهدى الأجل ثكلتني من أنا ابنها إن نمت عن طلب وتر عثمان أو يقال لم يبق فيه رمق إني أرى
العيش بعد قتل عثمان مرا إن أدلج القوم فإني مدلج و أما قصدهم ما حوته يدي من المال فلمال
أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان و إن أبوا ذلك أنفقنا المال على قتالهم و إن لنا و لهم لمعركة
نتناحر فيها نحر القدار النقائع عن قليل تصل لحومها. و كتب في أسفل الكتاب:

لمثل هذا اليوم أوصى الناس لا تعط ضيما أو يخر الراس
قال فكل هؤلاء كتبوا إلى معاوية يحرضونه و يغرونه و يحركونه و يهيجونه إلا سعيد بن العاص
فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء كان كتابه أما بعد فإن الحزم في الثبوت و الخطأ في العجلة و
الشؤم في البدار و السهم سهمك ما لم ينبض به الوتر و لن يرد الحالب في الضرع اللبن ذكرت
حق أمير المؤمنين علينا و قرابتنا منه و أنه قتل فينا فحصلتان ذكرهما نقص و الثالثة تكذب و
أمرتنا بطلب دم عثمان فأني جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن ردمت الفجاج و أحكم الأمر عليك
و ولي زمامه غيرك فدع مناواة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به غيره و قلت كأنا
عن قليل لا نتعارف فهل نحن إلا حي من قريش إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنا الحق إنها خلافة
منافية و بالله أقسم قسما مبرورا لئن صحت عزيمتك على

ما ورد به كتابك لألفينك بين الحالين طليحا و هبني إخالك بعد خوض الدماء تنال الظفر هل في ذلك عوض من ركوب المأثم و نقص الدين. أما أنا فلا على بني أمية و لا لهم أجعل الحزم داري و البيت سجني و أتوسد الإسلام و أستشعر العافية فاعدل أبا عبد الرحمن زمام راحلتك إلى محجة الحق و استوهب العافية لأهلك و استعطف الناس على قومك و هيهات من قبولك ما أقول حتى يفجر مروان ينابيع الفتن تأجج في البلاد و كأني بكما عند ملاقاة الأبطال تعتذران بالقدر و لبئس العاقبة الندامة و عما قليل يضح لك الأمر و السلام. هذا آخر ما تكتاتب القوم به و من وقف عليه علم أن الحال لم يكن حالا يقبل العلاج و التدبير و أنه لم يكن بد من السيف و أن عليا ع كان أعرف بما عمل. و قد أجاب ابن سنان في كتابه الذي سماه العادل عن هذا السؤال فقال قد علم الناس كافة أنه ع في قصة الشورى عرض عليه عبد الرحمن بن عوف أن يعقد له الخلافة على أن يعمل بكتاب الله و سنة رسوله و سيرة أبي بكر و عمر فلم يستجب إلى ذلك و قال بل على أن أعمل بكتاب الله و سنة رسوله و أجتهد رأيي. و قد اختلف الناس في ذلك فقالت الشيعة إنما لم يدخل تحت الشرط لأنه لم يستصوب سيرتهما و قال غيرهم إنما امتنع لأنه مجتهد و المجتهد لا يقلد المجتهد فأيهما أقرب على القولين جميعا إثما و أيسر وزرا أن يقر معاوية على ولاية الشام مدة إلى أن تتوطد خلافته مع ما ظهر من جور معاوية و عداوته و مد يده إلى الأموال و الدماء أيام سلطانه أو أن يعاهد عبد الرحمن على العمل بسيرة أبي بكر و عمر ثم يخالف بعض أحكامها إذا استقر الأمر له و وقع العقد و لا ريب أن أحدا لا يخفى عليه فضل ما بين

الموضعين و فضل ما بين الإثمين فمن لا يجيب إلى الخلافة و الاستيلاء على جميع بلاد الإسلام إذا تسمح بلفظة يتلفظ بها يجوز أن يتأولها أو يوري فيها كيف يستجيب إلى إقرار الجائر و تقوية يده مع تمكنه في سلطانه لتحصل له طاعة أهل الشام و استضافة طرف من الأطراف و كأن معنى قول القائل هلا أقر معاوية على الشام هو هلا كان ع متهاونا بأمر الدين راغباً في تشديد أمر الدنيا. و الجواب عن هذا ظاهر و جهل السائل عنه واضح. و اعلم أن حقيقة الجواب هو أن علياً ع كان لا يرى مخالفة الشرع لأجل السياسة سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيوية أما الدنيوية فنحو أن يتوهم الإمام في إنسان أنه يروم فساد خلافته من غير أن يثبت ذلك عليه يقيناً فإن علياً ع لم يكن يستحل قتله و لا حبسه و لا يعمل بالتوهم و بالقول غير المحقق و أما الدينية فنحو ضرب المتهم بالسرقة فإنه أيضاً لم يكن يعمل به بل يقول إن يثبت عليه بإقرار أو بينة أقمت عليه الحد و إلا لم أعترضه و غير علي ع قد كان منهم من يرى خلاف هذا الرأي و مذهب مالك بن أنس العمل على المصالح المرسلة و أنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمة لإصلاح الثلثين و مذهب أكثر الناس أنه يجوز العمل بالرأي و بغالب الظن و إذا كان مذهبه ع ما قلناه و كان معاوية عنده فاسقاً و قد سبق عنده مقدمة أخرى يقينية هي أن استعمال الفاسق لا يجوز و لم يكن ممن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة فقد تعين مجاهرته بالعزل و إن أفضى ذلك إلى الحرب. فهذا هو الجواب الحقيقي و لو لم يكن هذا هو الجواب الحقيقي لكان لقائل أن

يقول لابن سنان القول في عدوله عن الدخول تحت شرط عبد الرحمن كالقول في عدوله عن إقرار معاوية على الشام فإن من ذهب إلى تغليظه في أحد الموضعين له أن يذهب إلى تغليظه في الموضع الآخر. قال ابن سنان و جواب آخر و هو أنا قد علمنا أن أحد الأحداث التي نقيمت على عثمان و أفضت بالمسلمين إلى حصاره و قتله تولية معاوية الشام مع ما ظهر من جور و عدوانه و مخالفة أحكام الدين في سلطانه و قد خوطب عثمان في ذلك فاعتذر بأن عمر و لاه قبله فلم يقبل المسلمون عذره و لا قنعوا منه إلا بعزله حتى أفضى الأمر إلى ما أفضى و كان علي ع من أكثر المسلمين لذلك كراهية و أعرفهم بما فيه من الفساد في الدين. فلو أنه ع افتتح عقد الخلافة له بتوليته معاوية الشام و إقراره فيه أ ليس كان يتدنى في أول أمره بما انتهى إليه عثمان في آخره فأفضى إلى خلعه و قتله و لو كان ذلك في حكم الشريعة سائغا و الوزر فيه مأمونا لكان غلطا قبيحا في السياسة و سببا قويا للعصيان و المخالفة و لم يكن يمكنه ع أن يقول للمسلمين إن حقيقة رأيي عزل معاوية عند استقرار الأمر و طاعة الجمهور لي و إن قصدي بإقراره على الولاية مخادعته و تعجيل طاعته و مبايعة الأجناد الذين قبله ثم أستأنف بعد ذلك فيه ما يستحقه من العزل و أعمل فيه بموجب العدل لأن إظهاره ع لهذا العزم كان يتصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذي شرع فيه و ينتقض الرأي الذي عول عليه. و منها قولهم إنه ترك طلحة و الزبير حتى خرجا إلى مكة و أذن لهما في العمرة و ذهب عنه الرأي في ارتباطهما قبله و منعهما من البعد عنه.

و الجواب عنه أنه قد اختلف الرواة في خروج طلحة و الزبير من المدينة هل كان بإذن علي ع أم لا فمن قال إنهما خرجا عن غير إذنه و لا علمه فسؤاله ساقط و من قال إنهما استأذناه في العمرة و أذن لهما فقد روي أنه قال و الله ما تريدان العمرة و إنما تريدان الغدرة و خوفهما بالله من التسرع إلى الفتنة و ما كان يجوز له في الشرع أن يجسهما و لا في السياسة أما في الشرع فلأنه محظور أن يعاقب الإنسان بما لم يفعل و على ما يظن منه و يجوز ألا يقع و أما في السياسة فلأنه لو أظهر التهمة لهما و هما من أفاضل السابقين و جلة المهاجرين لكان في ذلك من التنفير عنه ما لا يخفى و من الطعن عليه ما هو معلوم بأن يقال إنه ليس من إمامته على ثقة فلذلك يتهم الرؤساء و لا يأمن الفضلاء لا سيما و طلحة كان أول من بايعه و الزبير لم يزل مشتهرا بنصرته فلو حبسهما و أظهر الشك فيهما لم يسكن أحد إلى جهته و لنفر الناس كلهم عن طاعته. فإن قالوا فهلا استصلحهما و ولاهما و ارتبطهما بالإجابة إلى أغراضهما. قيل لهم فحوى هذا أنكم تطلبون من أمير المؤمنين ع أن يكون في الإمامة مغلوبا على رأيه مفتاتا عليه في تدبيره فيقر معاوية على ولاية الشام غصبا و يولي طلحة و الزبير مصر و العراق كرها و هذا شيء ما دخل تحته أحد ممن قبله و لا رضوا أن يكون لهم من الإمامة الاسم و من الخلافة اللفظ و لقد حورب عثمان و حصر على أن يعزل بعض ولاته فلم يجب إلى ذلك فكيف تسومون عليا ع أن يفتتح أمره بهذه الدنية و يرضى بالدخول تحت هذه الخطة و هذا ظاهر. و منها تعلقهم بتولية أمير المؤمنين ع محمد بن أبي بكر مصر و عزله قيس بن سعد عنها حتى قتل محمد بها و استولى معاوية عليها.

و الجواب أنه ليس يمكن أن يقال إن مُحَمَّدًا ﷺ لم يكن بأهل لولاية مصر لأنه كان شجاعا زاهدا فاضلا صحيح العقل و الرأي و كان مع ذلك من المخلصين في محبة أمير المؤمنين ع و المجتهدين في طاعته و ممن لا يتهم عليه و لا يرتاب بنصحته و هو ربيبه و خريجه و يجري مجرى أحد أولاده ع لتربيته له و إشفاقه عليه. ثم كان المصريون على غاية المحبة له و الإيثار لولايته و لما حاصروا عثمان و طالبوه بعزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح عنهم اقترحوا تأمير مُحَمَّد بن أبي بكر عليهم فكتب له عثمان بالعهد على مصر و صار مع المصريين حتى تعقبه كتاب عثمان إلى عبد الله بن سعد في أمره و أمر المصريين بما هو معروف فعادوا جميعا و كان من قتل عثمان ما كان فلم يكن ظاهر الرأي و وجه التدبير إلا تولية مُحَمَّد بن أبي بكر على مصر لما ظهر من ميل المصريين إليه و إثارة لهم له و استحقاقه لذلك بتكامل خصال الفضل فيه فكان الظن قويا باتفاق الرعية على طاعته و انقيادهم إلى نصرته و اجتماعهم على محبته فكان من فساد الأمر و اضطرابه عليه حتى كان ما كان و ليس ذلك يعيب على أمير المؤمنين ع فإن الأمور إنما يعتمد عليها الإمام على حسب ما يظن فيها من المصلحة و لا يعلم الغيب إلا الله تعالى. و قد ولى رسول الله ص في مؤتة جعفرًا فقتل و ولى زيدا فقتل و ولى عبد الله بن رواحة فقتل و هزم الجيش و عاد من عاد منهم إلى المدينة بأسوأ حال فهل لأحد أن يعيب رسول الله ص بهذا و يطعن في تدبيره. و منها قولهم إن جماعة من أصحابه ع فارقوه و صاروا إلى معاوية كعقيل بن أبي طالب أخيه و النجاشي شاعره و رقبة بن مصقلة أحد الوجوه من أصحابه و لو لا أنه

كان يوحشهم و لا يستميلهم لم يفارقوه و يصيروا إلى عدوه و هذا يخالف حكم السياسة و ما يجب من تألف قلوب الأصحاب و الرعية. و الجواب أنا أولا لا ننكر أن يكون كل من رغب في حطام الدنيا و زخرفها و أحب العاجل من ملاذها و زينتها يميل إلى معاوية الذي يذل منها كل مطلوب و يسمح بكل مأمول و يطعم خراج مصر عمرو بن العاص و يضمن لذي الكلاع و حبيب بن مسلمة ما يوفي على الرجاء و الاقتراح و علي ع لا يعدل فيما هو أمين عليه من مال المسلمين عن قضية الشريعة و حكم الملة حتى يقول خالد بن معمر السدوسي لعلباء بن المهيثم و هو يحمله على مفارقة علي ع و اللحاق بمعاوية اتق الله يا علباء في عشيرتك و انظر لنفسك و لرحمك ما ذا تؤمل عند رجل أردته على أن يزيد في عطاء الحسن و الحسين دريهمات يسيرة ريثما يرأبان بها ظلف عيشهما فأبى و غضب فلم يفعل. فأما عقيل فالصحيح الذي اجتمع ثقات الرواة عليه أنه لم يجتمع مع معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين ع و لكنه لازم المدينة و لم يحضر حرب الجمل و صفين و كان ذلك بإذن أمير المؤمنين ع و قد كتب عقيل إليه بعد الحكمين يستأذنه في القدوم عليه الكوفة بولده و بقية أهله فأمره ع بالمقام و قد روي في خبر مشهور أن معاوية وبخ سعيد بن العاص على تأخيريه عنه في صفين فقال سعيد لو دعوتني لوجدتني قريبا و لكني جلست مجلس عقيل و غيره من بني هاشم و لو أوعبنا لأوعبوا. و أما النجاشي فإنه شرب الخمر في شهر رمضان فأقام علي ع الحد عليه

و زاده عشرين جلدة فقال النجاشي ما هذه العلاوة قال لجرأتك على الله في شهر رمضان فهرب النجاشي إلى معاوية. و أما رقبة بن مصقلة فإنه ابتاع سبي بني ناجية و أعتقهم و ألت بالمال و هرب إلى معاوية فقال ع فعل فعل السادة و أبق إباق العبيد و ليس تعطيل الحدود و إباحة حكم الدين و إضاعة مال المسلمين من التألف و السياسة لمن يريد وجه الله تعالى و التلزم بالدين و لا يظن بعلي ع التساهل و التسامح في صغير من ذلك و لا كبير. و منها شبهة الخوارج و هي التحكيم و قد يحتج به على أنه اعتمد ما لا يجوز في الشرع و قد يحتج به على أنه اعتمد ما ليس بصواب في تدبير الأمر أما الأول فقولهم إنه حكم الرجال في دين الله و الله سبحانه يقول (إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ) و أما الثاني فقولهم إنه كان قد لاح له النصر و ظهرت أمارات الظفر بمعاوية و لم يبق إلا أن يأخذ برقبتة فترك التصميم على ذلك و أخلد إلى التحكيم و ربما قالوا إن تحكيمه يدل على شك منه في أمره و ربما قالوا كيف رضي بحكومة أبي موسى و هو فاسق عنده بتبسيطه أهل الكوفة عنه في حرب البصرة و كيف رضي بتحكيم عمرو بن العاص و هو أفسق الفاسقين. و الجواب أما تحكيم الرجال في الدين فليس بمحذور فقد أمر الله تعالى بالتحكيم بين المرأة و زوجها فقال (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُتُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا

مِنْ أَهْلِهَا) و قال في جزاء الصيد: (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ). و أما قولهم كيف ترك التصميم بعد ظهور أمارات النصر فقد تواتر الخبر بأن أصحابه لما رفع أهل الشام المصاحف عند ظهور أهل العراق عليهم و مشاركة هلاك معاوية و أصحابه انخدعوا برفع المصاحف و قالوا لا يحل لنا التصميم على حريهم و لا يجوز لنا إلا وضع السلاح و رفع الحرب و الرجوع إلى المصاحف و حكمها فقال لهم إنها خديعة و إنها كلمة حق يراد بها باطل و أمرهم بالصبر و لو ساعة واحدة فأبوا ذلك و قالوا أرسل إلى الأشتر فليعد فأرسل إليه فقال كيف أعود و قد لاحت أمارات النصر و الظفر فقالوا له ابعث إليه مرة أخرى فبعث إليه فأعاد الجواب بنحو قوله الأول و سأل أن يمهل ساعة من النهار فقالوا إن بينك و بينه وصية ألا يقبل فإن لم تبعث إليه من يعيده و إلا قتلناك بسيوفنا كما قتلنا عثمان أو قبضنا عليك و أسلمناك إلى معاوية فعاد الرسول إلى الأشتر فقال أ تحب أن تظفر أنت هاهنا و تكسر جنود الشام و يقتل أمير المؤمنين ع في مضربه قال أ و قد فعلوها لا بارك الله فيهم أ بعد أن أخذت بمخنق معاوية و رأى الموت عيانا أرجع ثم عاد فشتم أهل العراق و سبهم و قال لهم و قالوا له ما هو منقول مشهور و قد ذكرنا الكثير منه فيما تقدم. فإذا كانت الحال وقعت هكذا فأني تقصير وقع من أمير المؤمنين ع و هل ينسب المغلوب على أمره المقهور على رأيه إلى تقصير أو فساد تدبير. و بهذا نجيب عن قولهم إن التحكيم يدل على الشك في أمره لأنه إنما يدل على ذلك لو ابتدأ هو به فأما إذا دعاه إلى ذلك غيره و استجاب إليه أصحابه فمنعهم و أمرهم

أن يمروا على وتيرتهم و شأهم فلم يفعلوا و بين لهم أنها مكيدة فلم يتبينوا و خاف أن يقتل أو يسلم إلى عدوه فإنه لا يدل تحكيمه على شكه بل يدل على أنه قد دفع بذلك ضررا عظيما عن نفسه و رجا أن يحكم الحكمان بالكتاب فتزول الشبهة عمن طلب التحكيم من أصحابه. و أما تحكيمه عمرا مع ظهور فسقه فإنه لم يرض به و إنما رضي به مخالفه و كرهه هو فلم يقبل منه و قد قيل إنه أجاب ابن عباس رضي الله عنه عن هذا فقال للخوارج أ ليس قد قال الله تعالى (فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا) أ رأيتم لو كانت المرأة يهودية فبعثت حكما من أهلها أ كنا نسخط ذلك. و أما أبو موسى فقد كرهه أمير المؤمنين ع و أراد أن يجعل بدله عبد الله بن عباس فقال أصحابه لا يكون الحكمان من مضر فقال فالأشتر فقالوا و هل أضرم النار إلا الأشتر و هل جر ما ترى إلا حكومة الأشتر و لكن أبا موسى فأباه فلم يقبلوا منه و أثنوا عليه و قالوا لا نرضى إلا به فحكمه على مضض. و منها قولهم ترك الرأي لما دعاه العباس وقت وفاة الرسول ص إلى البيعة و قال له امدد يدك أبايعك فيقول الناس عم رسول الله ص بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان فلم يفعل و قال و هل يطمع فيها طامع غيري فما راعه إلا الضوضاء و اللغط في باب الدار يقولون قد بويع أبو بكر بن أبي قحافة. الجواب أن صواب الرأي و فساده فيما يرجع إلى مثل هذه الواقعة يستندان إلى

ما قد كان غلب على الظن و لا ريب أنه ع لم يغلب على ظنه أن أحدا يستأثر عليه بالخلافة لأحوال قد كان مهدها له رسول الله ص و ما توهم إلا أنه ينتظر و يرتقب خروجه من البيت و حضوره و لعله قد كان يخطر له أنه إما أن يكون هو الخليفة أو يشاور في الخلافة إلى من يفوض و ما كان يتوهم أنه يجري الأمر على ما جرى من الفتنة عند ثوران تلك الفتنة و لا يشاور هو و لا العباس و لا أحد من بني هاشم و إنما كان يكون تدبيره فاسدا لو كان يحاذر خروج الأمر عنه و يتوهم ذلك و يغلب على ظنه إن لم يبادر تحصيله بالبيعة المعجلة في الدار من وراء الأبواب و الأغلاق و إلا فاته ثم يهمل ذلك و لا يفعله و قد صرح هو بما عنده فقال و هل يطمع فيها طامع غيري ثم قال إني أكره البيعة هاهنا و أحب أن أصحر بها فبين أنه يستهجن أن يبايع سرا خلف الحجب و الجدران و يجب أن يبايع جبهة بمحضر من الناس كما قال حيث طلبوا منه بعد قتل عثمان أن يبايعهم في داره فقال لا بل في المسجد و لا يعلم و لا خطر له ما في ضمير الأيام و ما يحدث الوقت من وقوع ما لا يتوهم العقلاء و أرباب الأفكار وقوعه. و منها قولهم إنه قصر في طلب الخلافة عند بيعة أبي بكر و قد كان اجتمع له من بني هاشم و بني أمية و غيرهم من أفناء الناس من يتمكن بهم من المنازعة و طلب الخلافة فقصر عن ذلك لا جبنًا لأنه كان أشجع البشر و لكن قصور تدبير و ضعف رأي و لهذا أكفرته الكاملية و أكفرت الصحابة فقالوا كفرت الصحابة لتركهم بيعته و كفر هو بترك المنازعة لهم.

و الجواب أما على مذهبنا فإنه لم يكن ع منصوصا عليه و إنما كان يدعيها بالأفضلية و القرابة و السابقة و الجهاد و نحو ذلك من الخصائص فلما وقعت بيعة أبي بكر رأى هو علي ع أن الأصلح للإسلام ترك النزاع و أنه يخاف من النزاع حدوث فتنة تحل معاهد الملة و تزعزع أركانها فحضر و بايع طوعا و وجب علينا بعد مبايعته و رضاه أن نرضى بمن رضي هو ع و نطيع من أطاعه لأنه القدوة و أفضل من تركه ص بعده. و أما الإمامية فلهم عن ذلك جواب آخر معروف من قواعدهم. و منها قولهم إنه قصر في الرأي حيث دخل في الشورى لأنه جعل نفسه بدخوله فيها نظيرا لعثمان و غيره من الخمسة و قد كان الله تعالى رفعه عنهم و على من كان قبلهم فوهن بذلك قدره و طأطأ من جلالته أ لا ترى أنه يستهجن و يقبح من أبي حنيفة و الشافعي رحمهما الله أن يجعلا أنفسهما نظراء لبعض من بدأ طرفا من الفقه و يستهجن و يقبح من سيبويه و الأخفش أن يوازيا أنفسهما بمن يعلم أبوابا يسيرة من النحو. الجواب أنه ع و إن كان أفضل من أصحاب الشورى فإنه كان يظن أن ولي الأمر أحدهم بعد عمر لا يسير سيرة صالحة و أن تضطرب بعض أمور الإسلام و قد كان يثني على سيرة عمر و يحمدها فواجب عليه بمقتضى ظنه أن يدخل معهم فيما أدخله عمر فيه توقعا لأن يفضي الأمر إليه فيعمل بالكتاب و السنة و يحيي معالم رسول الله ص و ليس اعتماد ما يقتضيه الشرع مما يوجب نقضا في الرأي فلا تدبير أصح و لا أسد من تدبير الشرع.

و منها قولهم إنه ما أصاب حيث أقام بالمدينة و عثمان محصور و قد كان يجب في الرأي أن يخرج عنها بحيث لا تنوط بنو أمية به دم عثمان فإنه لو كان بعيدا عن المدينة لكان من قذفهم إياه بذلك أبعد و عنه أنزه. و الجواب أنه لم يكن يخطر له مع براءته من دم عثمان أن أهل الفساد من بني أمية يرمونه بأمره و الغيب لا يعلمه إلا الله و كان يرى مقامه بالمدينة أدعى إلى انتصار عثمان على المحاصرين له فقد حضر هو بنفسه مرارا و طرد الناس عنه و أنفذ إليه ولديه و ابن أخيه عبد الله و لو لا حضور علي ع بالمدينة لقتل عثمان قبل أن يقتل بمدة و ما تراخي أمره و تأخر قتله إلا لمراقبة الناس له حيث شاهدوه ينتصر له و يحامي عنه. و منها قولهم كان يجب في مقتضى الرأي حيث قتل عثمان أن يغلق بابه و يمنع الناس من الدخول إليه فإن العرب كانت تضطرب اضطرابا ثم تقول إليه لأنه تعين للأمر بحكم الحال الحاضرة فلم يفعل و فتح بابه و ترشح للأمر و بسط له يده فلذلك انتقضت عليه العرب من أقطارها. و الجواب أنه ع كان يرى أن القيام بالأمر يومئذ فرض عليه لا يجوز له الإخلال به لعدم من يصلح في ظنه للخلافة فما كان يجوز له أن يغلق بابه و يمتنع و ما الذي كان يومئذ أن يبايع الناس طلحة أو الزبير أو غيرهما ممن لا يراه أهلا للأمر فقد كان عبد الله بن الزبير يومئذ يزعم أن عثمان عهد إليه بالخلافة و هو محصور و كان مروان يطمع أن ينحاز إلى طرف من الأطراف فيخطب لنفسه بالخلافة و له من بني أمية شيعة و أصحاب بشبهة أنه ابن عم عثمان و أنه كان يدبر أمر الخلافة على عهده و كان معاوية يرجو أن ينال الخلافة لأنه من بني أمية و ابن عم عثمان و أمير الشام عشرين سنة و قد كان قوم من بني أمية يتعصبون لأولاد عثمان المقتول و يرومون إعادة الخلافة فيهم

و ما كان يسوغ لعلي ع في الدين إذا طلبه المسلمون للخلافة أن يمتنع عنها و يعلم أنها ستصير إذا امتنع إلى هؤلاء فلذلك فتح بابه و امتنع امتناع من يحاول أن يعلم ما في قلوب الناس هل لرغبتهم إليه حقيقة أم لا فلما رأى منهم التصميم وافق لوجوب الموافقة عليه وقد قال في خطبته لو لا حضور الحاضر و وجوب الحجة بوجود الناصر... لألقيت حبلها على غاربها و لسقيت آخرها بكأس أولها و هذا تصريح بما قلناه. و منها قولهم هلا إذ ملك شريعة الفرات على معاوية بعد أن كان معاوية ملكها عليه و منعه و أهل العراق منها منع معاوية و أهل الشام منها فكان يأخذهم قبضا بالأيدي فإنه لم يصبر على منعهم عن الماء بل فسخ لهم في الورود و هذا يخالف ما يقتضيه تدبير الحرب. الجواب أنه ع لم يكن يستحل ما استحله معاوية من تعذيب البشر بالعطش فإن الله تعالى ما أمر في أحد من العصاة الذين أباح دماءهم بذلك و لا فسخ فيه في نحو القصاص أو حد الزاني المحصن أو قتل قاطع الطريق أو قتال البغاة و الخوارج و ما كان أمير المؤمنين ممن يترك حكم الله و شريعته و يعتمد ما هو محرم فيها لأجل الغلبة و القهر و الظفر بالعدو و لذلك لم يكن يستحل البيات و لا الغدر و لا النكث و أيضا فمن الجائز أن يكون ع غلب على ظنه أن أهل الشام إن منعوا من الماء كان ذلك أدعى لهم إلى الحملات الشديدة المنكرة على عسكره و أن يضعوا فيهم السيوف فيأتوا عليهم و يكسروهم بشدة حنقهم و قوة داعيهم إلى ورود الماء فإن ذلك من أشد الدواعي إلى أن يستमित القوم و يستقتلوا و من الذي يقف بين يدي جيش عظيم عرمرم قد اشتد بهم العطش و هم يرون الماء كبطون الحيات لا يحول بينهم و بينه

إلا قوم مثلهم بل أقل منهم عدة و أضعف عدة و لذلك لما حال معاوية بين أهل العراق و بين الماء و قال لأمنعهم وروده فأقتلهم بشفار الظمأ قال له عمرو بن العاص خل بين القوم و بين الماء فليسوا ممن يرى الماء و يصبر عنه فقال لا و الله لا أخلي لهم عنه فسفه رأييه و قال أ تظن أن ابن أبي طالب و أهل العراق يموتون بإزائك عطشا و الماء بمقعد الأزر و سيوفهم في أيديهم فلج معاوية و قال لا أسقيهم قطرة كما قتلوا عثمان عطشا فلما مس أهل العراق العطش أشار علي ع إلى الأشعث أن يحمل و إلى الأشتر أن يحمل فحملا بمن معهما فضربا أهل الشام ضربا أشاب الوليد و فر معاوية و من رأى رأييه و تابعه على قوله عن الماء كما تفر الغنم خالطتها السباع و كان قصارى أمره و منتهى همته أن يحفظ رأسه و ينجو بنفسه و ملك أهل العراق عليهم الماء و دفعوهم عنه فصاروا في البر القفر و صار علي ع و أصحابه على شريعة الفرات مالكين لها فما الذي كان يؤمن عليا ع لو أعطش القوم أن يذوق هو و أصحابه منهم مثل ما أذاقهم و هل بعد الموت بالعطش أمر يخافه الإنسان و هل يبقى له ملجأ إلا السيف يحمل به فيضرب خصمه إلى أن يقتل أحدهما. و منها قولهم أخطأ حيث محأ اسمه بالخلافة من صحيفة الحكومة فإن ذلك مما وهنه عند أهل العراق و قوى الشبهة في نفوس أهل الشام. و الجواب أنه ع احتذى في ذلك لما دعي إليه و اقترحه الخصم عليه فعل رسول الله ص في صحيفة الحديدية حيث محأ اسمه من النبوة لما قال له سهيل بن عمرو لو علمنا أنك رسول الله لما حاربناك و لا منعناك عن البيت و قد قال له ص و هو يومئذ كاتب تلك الصحيفة ستدعى إلى مثلها فتجيب و هذا من أعلام نبوته ص و من دلائل صدقه و مثله جرى له حذو القذة بالقذة.

و منها قولهم إنه كان غير مصيب في ترك الاحتراس فقد كان يعلم كثرة أعدائه و لم يكن يحترس منهم و كان يخرج ليلا في قميص و رداء وحده حتى كمن له ابن ملجم في المسجد فقتله و لو كان احترس و حفظ نفسه و لم يخرج إلا في جماعة و لو خرج ليلا كانت معه أضواء و شرطة لم يوصل إليه. و الجواب أن هذا إن كان قادحا في السياسة و التدبير فليكن قادحا في تدبير عمر و سياسته و هو عند الناس في الطبقة العليا في السياسة و صحة التدبير و ليكن قادحا في تدبير معاوية فقد ضربه الخارجي بالسيف ليلة ضرب أمير المؤمنين ع فجرحه و لم يأت على نفسه و معاوية عند هؤلاء شديد التدبير و ليكن قادحا في صحة تدبير رسول الله ص فقد كان يخرج وحده في المدينة ليلا و نهارا مع كثرة أعدائه و قد كان يأكل ما دعي إليه و لا يحترس حتى أكل من يهودية شاة مشوية قد سمته فيها فمرض و خيف عليه التلف و لما برأ لم تزل تنتقض عليه حتى مات منها وقال عند موته إني ميت من تلك الأكلة و لم تكن العرب في ذلك الزمان تحترس و لا تعرف الغيلة و الفتك و كان ذلك عندهم قبيحا يعير به فاعله لأن الشجاعة غير ذلك و الغيلة فعل العجزة من الرجال و لأن عليا ع كانت هيئته قد تمكنت في صدور الناس فلم يكن يظن أن أحدا يقدم عليه غيلة أو مبارزة في حرب فقد كان بلغ من الذكر بالشجاعة مبلغا عظيما لم يبلغه أحد من الناس لا من تقدم و لا من تأخر حتى كانت أبطال العرب تفزع باسمه أ لا ترى إلى عمرو بن معديكرب و هو شجاع العرب الذي تضرب به الأمثال كتب إليه عمر بن الخطاب في أمر أنكره عليه و غدر تخوفه منه أما و الله لئن أقمت على ما أنت عليه لأبعثن إليك رجلا تستصغر معه نفسك يضع سيفه على هامتك فيخرجه من بين فخذيك فقال عمرو لما وقف على الكتاب هددني بعلي و الله و لهذا قال شبيب بن بجرة لابن ملجم لما رآه يشد الحرير على بطنه و صدره ويلك ما تريد

أن تصنع قال أقتل عليا قال هبلتك الهبول لقد جئت شيئا إذا كيف تقدر على ذلك فاستبعد أن
يتم لابن ملجم ما عزم عليه و رآه مراما وعرا و الأمر في هذا و أمثاله مسند إلى غلبات الظنون
فمن غلبت على ظنه السلامة مع الاسترسال لم يجب عليه الاحتراس و إنما يجب الاحتراس على
من يغلب على ظنه العطب إن لم يحترس. فقد بان بما أوضحناه فساد قول من قال إن تدبيره ع و
سياسته لم تكن صالحة و بان أنه أصح الناس تدبيرا و أحسنهم سياسة و إنما الهوى و العصبية لا
حيلة فيهما

١٩٤ و من كلام له ع

أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْجِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ فَإِنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شَبَعُهَا قَصِيرٌ وَ جُوعُهَا طَوِيلٌ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَ السُّخْطُ وَ إِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ حَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْحَسْفَةِ حُورَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَّ الْمَاءَ وَ مَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي الْبُيْتِ الْاسْتِيحَاشِ ضِدَّ الْاسْتِنْسَانِ وَ كَثِيرًا مَا يَحْدُثُهُ التَّوْحِدُ وَ عَدَمُ الرِّفِيقِ فَنَهَى عَنِ الْاسْتِيحَاشِ فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِأَجْلِ قَلَّةِ أَهْلِهِ فَإِنَّ الْمُهْتَدِيَّ يَنْبَغِي أَنْ يَأْنِسَ بِالْهَدَايَةِ فَلَا وَحْشَةَ مَعَ الْحَقِّ. وَ عَنِ الْمَائِدَةِ الدُّنْيَا لِدُنْيَا قَلِيلَةٍ وَ نَغْصَتِهَا كَثِيرَةٌ وَ الْوُجُودُ فِيهَا زَمَانٌ قَصِيرٌ جَدًّا وَ الْعَدَمُ عَنْهَا زَمَانٌ طَوِيلٌ جَدًّا. ثُمَّ قَالَ لَيْسَتْ الْعُقُوبَةُ لِمَنْ اجْتَرَمَ ذَلِكَ الْجُرْمَ بَعِينَهُ بَلْ لِمَنْ اجْتَرَمَهُ وَ مَنْ رَضِيَ بِهِ وَ إِنْ لَمْ يَبَاشِرْهُ بِنَفْسِهِ فَإِنْ عَاقَرَ نَاقَةَ صَالِحٍ إِنَّمَا كَانَ إِنْسَانًا وَاحِدًا فَعَمَّ اللَّهُ ثَمُودَ بِالسُّخْطِ

لما كانوا راضين بذلك الفعل كلهم و اسم كان مضمراً فيها أي ما كان الانتقام منهم إلا كذا. و خارت أرضهم بالخسفة صوتت كما يخور الثور و شبه ع ذلك بصوت السكة المحمأة في الأرض الخوارة و هي اللينة و إنما جعلها حمأة لتكون أبلغ في ذهابها في الأرض ومن كلامه ع يوم خير يقول لرسول الله ص و قد بعثه بالراية أكون في أمرك كالسكة المحمأة في الأرض أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فقال له بل يرى الشاهد ما لا يرى الغائب. و قال له أيضاً هذه اللفظة لما بعثه في شأن مارية القبطية و ما كانت اتهمت به من أمر الأسود القبطي و لهذا علة في العلم الطبيعي و ذلك أن السكة المحمأة تحرق الأرض بشيئين أحدهما تحدد رأسها و الثاني حرارته فإن الجسم المحدد الحار إذا اعتمد عليه في الأرض اقتضت الحرارة إعانة ذلك الطرف المحدد على النفوذ بتحليلها ما تلاقي من صلابة الأرض لأن شأن الحرارة التحليل فيكون غوص ذلك الجسم المحدد في الأرض أوحى و أسهل. و التيه المفازة يتحير سالكها

قصة صالح و ثمود

قال المفسرون إن عاداً لما أهلكتم عمرت ثمود بلادها و خلفوهم في الأرض و كثروا و عمروا أعماراً طويلاً حتى إن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته فتحثوا البيوت في الجبال و كانوا في سعة و رخاء من العيش فعتوا على الله و أفسدوا في الأرض و عبدوا الأوثان فبعث الله إليهم صالحاً و كانوا قوماً عرباً و صالح من أوسطهم

نسباً فما آمن به إلا قليل منهم مستضعفون فحذرهم و أنذرهم فسألوه أية فقال أية تريدون قالوا تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهك و ندعو إلهنا فإن استجيب لك اتبعناك و إن استجيب لنا اتبعتنا. قال نعم فخرج معهم و دعوا أوثانهم و سألوها الاستجابة فلم تجب فقال سيدهم جندع بن عمرو و أشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يسمونها الكاثبة أخرج لنا في هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء و المخترجة التي شاكلت البخت فإن فعلت صدقناك و أجبناك. فأخذ عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن و لتصدقن قالوا نعم فصلى و دعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض التتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله و عظاماؤهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها في العظم فأمن به جندع و رهط من قومه و منع أعقابهم ناس من رءوسهم أن يؤمنوا فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر و تشرب الماء و كانت ترد غبا فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها ثم تتفجح فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون و يدخرون فإذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه و إذا وقع البرد تشتت ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم و زينت عقرها لهم امرأتان عنيزة أم غنم و صدفة بنت المختار لما أضرت به من مواشيها و كانتا كثيرتي المواشي فعقروها عقرها قدار الأحمر و اقتسموا لحمها و طبخوه.

فانطلق سقبتها حتى رقي جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا و كان صالح قال لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه و انفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا و وجوهكم مصفرة و بعد غد وجوهكم محمرة و اليوم الثالث وجوهكم مسودة ثم يغشاكم العذاب. فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله سبحانه إلى أرض فلسطين فلما كان اليوم الرابع و ارتفعت الضحوة تحنطوا بالصبر و تكفونوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء و خسف شديد و زلزال فتقطعت قلوبهم فهلكوا. وقد جاء في الحديث أن رسول الله ص مر بالحجر في غزوة تبوك فقال لأصحابه لا يدخلن أحد منكم القرية و لا تشربوا من مائها و لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تمروا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم وروى المحدثون أن النبي ص قال لعلي ع أ تدري من أشقى الأولين قال نعم عاقر ناقة صالح قال أ فتدري من أشقى الآخرين قال الله و رسوله أعلم قال من يضربك على هذه حتى تخضب هذه

١٩٥ و من كلام له ع

روي عنه : أَنَّهُ قَالَهُ عِنْدَ دَفْنِ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ فَاطِمَةَ ع كَالْمُنَاجِي بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ص عِنْدَ قَبْرِهِ
السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي وَ عَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جَوَارِكَ وَ السَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ قَلَّ يَا رَسُولَ
اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي وَ رَقَّ عَنْهَا تَحُلْدِي إِلَّا أَنَّ فِي النَّاسِي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ وَ فَادِحِ مُصِيبَتِكَ
مَوْضِعَ تَعَزٍّ فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ وَ فَاصَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَ صَدْرِي نَفْسُكَ فَإِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا
إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَلَقَدْ أُسْتُرِجِعَتِ الْوُدِيعَةُ وَ أُخِذَتِ الرَّهْيَةُ أَمَّا حُزْنِي فَسَرَمْتُ وَ أَمَّا لَيْلِي فَمُسْهَدٌ إِلَى أَنَّ
يُخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ وَ سَتُنَبِّئُكَ ابْنُتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا فَأُخْفِهَا
السُّؤَالَ وَ اسْتَحْزِرَهَا الْحَالَ هَذَا وَ لَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ وَ لَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ وَ السَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامٌ
مُؤَدَّعٍ لَا قَالٍ وَ لَا سَمٍّ فَإِنْ أَنْصَرَفَ فَلَا عَنْ مَلَائِكَةٍ وَ إِنْ أُقِمَ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ
الصَّابِرِينَ أَمَا قَوْلُ الرُّضِيِّ عليه السلام عِنْدَ دَفْنِ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ فَلَأَنَّهُ

قد تواتر الخبر عنه ص أنه قال فاطمة سيدة نساء العالمين إما هذا اللفظ بعينه أو لفظ يؤدي

هذا

المعنى روي أنه قال و قد رآها تبكي عند موته أ لا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة و روي أنه قال سادات نساء العالمين أربع خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت مُحَمَّد و آسية بنت مزاحم و مريم بنت عمران. قوله ع و سريعة اللحاق بك جاء في الحديث أنه رآها تبكي عند موته فأسر إليها أنت أسرع أهلي لحوقا بي فضحكت. قوله عن صفيتك أجله ص عن أن يقول عن ابنتك فقال صفيتك و هذا من لطيف عبارته و محاسن كنياته يقول ع ضعف جلدي و صبري عن فراقها لكني أتأسى بفراقي لك فأقول كل عظيم بعد فراقك جلل و كل خطب بعد موتك يسير. ثم ذكر حاله معه وقت انتقاله ص إلى جوار ربه فقال لقد وسدتك في ملحودة قبرك أي في الجهة المشقوقة من قبرك و اللحد الشق في جانب القبر و جاء بضم اللام في لغة غير مشهورة. قال و فاضت بين نحري و صدري نفسك يروى أنه ص قذف دما يسيرا وقت موته و من قال بهذا القول زعم أن مرضه كان ذات الجنب و أن القرحة التي كانت في الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت في تلك الحال و كانت فيها نفسه ص و ذهب قوم إلى أن مرضه إنما كان الحمى و السرسام الحار و أن أهل داره ظنوا أن به ذات الجنب فلدوه و هو مغمى عليه و كانت العرب تداوي باللدود من به ذات الجنب فلما أفاق علم أنهم قد لدوه فقال لم يكن الله ليسلطها علي لدواكل من في الدار فجعل بعضهم يلد بعضها.

و احتج الذاهبون إلى أن مرضه كان ذات الجنب بما روي من انتصابه و تعذر الاضطجاع و النوم عليه قال سلمان الفارسي دخلت عليه صبيحة يوم قبل اليوم الذي مات فيه فقال لي يا سلمان أ لا تسأل عما كابده الليلة من الألم و السهر أنا و علي فقلت يا رسول الله أ لا أسهر الليلة معك بدله فقال لا هو أحق بذلك منك. و زعم آخرون أن مرضه كان أثرا لأكلة السم التي أكلها ع و احتجوا بقوله ص ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبجري. و من لم يذهب إلى ذات الجنب فأولوا قول علي ع فاضت بين نحري و صدري نفسك فقالوا أراد بذلك آخر الأنفاس التي يخرجها الميت و لا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضا عنها و لا بد لكل ميت من نفخة تكون آخر حركاته. و يقول قوم إنها الروح و عبر علي ع عنها بالنفس لما كانت العرب لا ترى بين الروح و النفس فرقا. و اعلم أن الأخبار مختلفة في هذا المعنى فقد روى كثير من المحدثين عن عائشة أنها قالت توفي رسول الله ص بين سحري و نحري. و روى كثير منهم هذا اللفظ عن علي ع أنه قال عن نفسه وقال في رواية أخرى ففاضت نفسه في يدي فأمررتها على وجهي.

و الله أعلم بحقيقة هذه الحال و لا يبعد عندي أن يصدق الخبران معا بأن يكون رسول الله ص وقت الوفاة مستندا إلى علي و عائشة جميعا فقد وقع الاتفاق على أنه مات و هو حاضر لموته و هو الذي كان يقلبه بعد موته و هو الذي كان يعلله ليالي مرضه فيجوز أن يكون مستندا إلى زوجته و ابن عمه و مثل هذا لا يبعد وقوعه في زماننا هذا فكيف في ذلك الزمان الذي كان النساء فيه و الرجال مختلطين لا يستتر البعض عن البعض. فإن قلت فكيف تعمل بأية الحجاب و ما صح من استتار أزواج رسول الله ص عن الناس بعد نزولها. قلت قد وقع اتفاق المحدثين كلهم على أن العباس كان ملازما للرسول ص أيام مرضه في بيت عائشة و هذا لا ينكره أحد فعلى القاعدة التي كان العباس ملازمه ص كان علي ع ملازمه و ذلك يكون بأحد الأمرين إما بأن نساءه لا يستترن من العباس و علي لكونهما أهل الرجل و جزءا منه أو لعل النساء كن يختمرن بأخمرهن و يخالطن الرجال فلا يرون وجوههن و ما كانت عائشة وحدها في البيت عند موته بل كان نساؤه كلهن في البيت و كانت ابنته فاطمة عند رأسه ص. فأما حديث مرضه ص و وفاته فقد ذكرناه فيما تقدم. قوله إنا لله إلى آخره أي عبده كما تقول هذا الشيء لزيد أي يملكه. ثم عقب الاعتراف بالملكية بالإقرار بالرجعة و البعث و هذه الكلمة تقال عند المصيبة كما أدب الله تعالى خلقه و عباده. و الوديعة و الرهينة عبارة عن فاطمة و من هذا الموضع أخذ ابن ثوابه الكاتب قوله عن قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون لما حملت من مصر إلى المعتضد أحمد بن

طلحة بن المتوكل و قد وصلت الوديعة سالمة و الله المحمود و كيف يوصي الناظر بنوره أم كيف يحض القلب على حفظ سروره. و أخذ الصابي هذه اللفظة أيضا فكتب عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى عدة الدولة أبي تغلب بن حمدان و قد نقل إليه ابنته قد وجهت الوديعة يا سيدي و إنما تقلب من وطن إلى سكن و من مغرس إلى مغرس و من مأوى بر و انعطاف إلى مثنوى كرامة و الطاف. فأما الرهينة فهي المرهنة يقال للمذكر هذا رهين عندي على كذا و للأُنثى هذه رهينة عندي على كذا كأنها ع كانت عنده عوضا من رؤية رسول الله ص كما تكون الرهينة عوضا عن الأمر الذي أخذت رهينة عليه. ثم ذكر ع أن حزنه دائم و أنه يسهر ليله و لا ينام إلى أن يلتحق برسول الله ص و يجاوره في الدار الآخرة و هذا من باب المبالغة كما يبالغ الخطباء و الكتاب و الشعراء في المعاني لأنه ع ما سهر منذ ماتت فاطمة و دام سهره إلى أن قتل ع و إنما سهر ليلة أو شهرا أو سنة ثم استمر مريه و ارعوى رسنه فأما الحزن فإنه لم يزل حزينا إذا ذكرت فاطمة هكذا وردت الرواية عنه. قوله ع و ستنبئك ابنتك أي ستعلمك. فأحفظها السؤال أي استقص في مسألتها و استخبرها الحال أحفيت إحياء في السؤال استقصيت و كذلك في الحجاج و المنازعة قال الحارث بن حلزة:

إن إخواننا الأراقم يغـلـون علينا في قـيـلهم إـحـفـاء
و رجل حفي أي مستقص في السؤال.

و استخبرها الحال أي عن الحال فحذف الجار كقولك اخترت الرجال زيدا أي من الرجال أي سلها عما جرى بعدك من الاستبداد بعقد الأمر دون مشاورتنا و لا يدل هذا على وجود النص لأنه يجوز أن تكون الشكوى و التألم من إطراحهم و ترك إدخالهم في المشاورة فإن ذلك مما تكرهه النفوس و تتألم منه و هجا الشاعر قوما فقال:

و يقضى الأمر حين تغيب تيم و لا يستأذنون و هم شهود
قوله هذا و لم يطل العهد و لم يخلق الذكر أي لم ينس.

فإن قلت فما هذا الأمر الذي لم ينس و لم يخلق إن لم يكن هناك نص. قلت قوله ص إني مخلف فيكم الثقلين وقوله اللهم أدر الحق معه حيث دار و أمثال ذلك من النصوص الدالة على تعظيمه و تبجيله و منزلته في الإسلام فهو ع كان يريد أن يؤخر عقد البيعة إلى أن يحضر و يستشار و يقع الوفاق بينه و بينهم على أن يكون العقد لواحد من المسلمين بموجبه إما له أو لأبي بكر أو لغيرهما و لم يكن ليليق أن يبرم الأمر و هو غير حاضر له مع جلالته في الإسلام و عظيم أثره و ما ورد في حقه من وجوب موالاته و الرجوع إلى قوله و فعله فهذا هو الذي كان ينقم ع و منه كان يتألم و يطيل الشكوى و كان ذلك في موضعه و ما أنكر إلا منكرأ فأما النص فإنه لم يذكره ع و لا احتج به و لما طال الزمان صفح عن ذلك الاستبداد الذي وقع منهم و حضر عندهم فبايعهم و زال ما كان في نفسه.

فإن قلت فهل كان يسوع لأبي بكر و قد رأى وثوب الأنصار على الأمر أن يؤخره إلى أن يخرج ع و يحضر المشورة. قلت إنه لم يلم أبا بكر بعينه و إنما تألم من استبداد الصحابة بالأمر دون حضوره و مشاورته و يجوز أن يكون أكثر تألمه و عتابه مصروفا إلى الأنصار الذين فتحوا باب الاستبداد و التغلب

ما رواه أبو حيان في حديث السقيفة

و روى القاضي أبو حامد أحمد بن بشير المروزي العامري فيما حكاه عنه أبو حيان التوحيدي قال أبو حيان سمنا عند القاضي أبي حامد ليلة ببغداد بدار ابن جیشان في شارع المازيان فتصرف الحديث بنا كل متصرف و كان و الله معنا مزيلا مغلطا عزيز الرواية لطيف الدراية له في كل جو متنفس و في كل نار مقتبس فجرى حديث السقيفة و تنازع القوم الخلافة فركب كل منا فنا و قال قولاً و عرض بشيء و نزع إلى مذهب فقال أبو حامد هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر إلى علي و جواب علي له و مبايعته إياه عقيب تلك الرسالة فقالت الجماعة لا و الله فقال هي و الله من درر الحقائق المصونة و مخبئات الصناديق في الخزائن المحوطة و منذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلي في وزارته فكتبها عني في خلوة بيده و قال لا أعرف في الأرض رسالة

أعقل منها و لا أبين و إنما لتدل على علم و حكم و فصاحة و فقاهاة في دين و دهاء و بعد غور و شدة غوص. فقال له واحد من القوم أيها القاضي فلو أتممت المنة علينا بروايتها سمعناها و رويناه عنك فنحن أوعى لها من المهلبي و أوجب ذماما عليك. فقال هذه الرسالة رواها عيسى بن دأب عن صالح بن كيسان عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير عن أبي عبيدة بن الجراح. قال أبو عبيدة لما استقامت الخلافة لأبي بكر بين المهاجرين و الأنصار و لحظ بعين الوقار و الهيبة بعد هنة كاد الشيطان بها يسر فدفع الله شرها و أدحض عسرها فركد كيدها و تيسر خيرها و قصم ظهر النفاق و الفسق بين أهلها بلغ أبا بكر عن علي ع تلكؤ و شماس و تمهم و نفاس فكره أن يتمادى الحال و تبدو له العورة و تنفرج ذات البين و يصير ذلك دريئة لجاهل مغرور أو عاقل ذي دهاء أو صاحب سلامة ضعيف القلب خوار العنان دعاني في خلوة فحضرته و عنده عمر وحده و كان عمر قبسا له و ظهيرا معه يستضيء بناره و يستملي من لسانه فقال لي يا أبا عبيدة ما أيمن ناصيتك و أبين الخير بين عارضيك لقد كنت مع رسول الله ص بالمكان المحوط و المحل المغبوط ولقد قال فيك في يوم مشهود أبو عبيدة أمين هذه الأمة و طالما أعز الله الإسلام بك و أصلح ثلثة على يديك و لم تزل للدين ناصرا و للمؤمنين روحا و لأهلك ركنا و لإخوانك مردا قد أردتك

لأمر له ما بعده خطره مخوف و صلاحه معروف و لئن لم يندمل جرحه بمسبارك و رفقك و لم
تجب حيته برقيتك لقد وقع اليأس و أعضل اليأس و احتيج بعدك إلى ما هو أمر من ذلك و أعلق
و أعسر منه و أغلق و الله أسأل تمامه بك و نظامه على يدك فتأت له يا أبا عبيدة و تلتطف فيه
و انصح لله و لرسوله و لهذه العصابة غير آل جهدا و لا قال حمدا و الله كالكلك و ناصرك و
هاديك و مبصرك. امض إلى علي و اخفض جناحك له و اغضض من صوتك عنده و اعلم أنه
سلالة أبي طالب و مكانه ممن فقدناه بالأمس مكانه و قل له البحر مغرقة و البر مفرقة و الجو
أكلف و الليل أغلف و السماء جلواء و الأرض صلعاء و الصعود متعذر و الهبوط متعسر و الحق
عطوف رءوف و الباطل نسوف عصوف و العجب مقدحة الشر و الضغن رائد البوار و التعريض
شجار الفتنة و القحة مفتاح العداوة و الشيطان متكئ على شماله باسط ليمينه نافح حضنيه
لأهله ينتظر الشتات و الفرقة و يدب بين الأمة بالشحناء و العداوة عنادا لله و لرسوله و لدينه
يوسوس بالفجور و يدلي بالغرور و يمني أهل الشرور و يوحى إلى أوليائه بالباطل دأبا له منذ كان
على عهد أبينا

آدم و عادة منه منذ أهانه الله في سالف الدهر لا ينجى منه إلا بعض الناجذ على الحق و غض
الطرف عن الباطل و وطء هامة عدو الله و الدين بالأشد فالأشد و الأجد فالأجد و إسلام
النفس لله فيما حاز رضاه و جنب سخطه. و لا بد من قول ينفع إذ قد أضر السكوت و خيف
غبه و لقد أرشدك من أفاء ضالتك و صافاك من أحيا مودته لك بعتابك و أراد الخير بك من أثر
البقيا معك. ما هذا الذي تسول لك نفسك و يدوى به قلبك و يلتوي عليه رأيك و يتخاوص
دونه طرفك و يستشري به ضغتك و يتراد معه نفسك و تكثر لأجله صعداؤك و لا يفيض به
لسانك أ عجمة بعد إفصاح أ لبسا بعد إيضاح أ دينا غير دين الله أ خلقا غير خلق القرآن أ هديا
غير هدي محمد أ مثلي يمشى له الضراء و يدب له الخمر أم مثلك يغص عليه الفضاء و يكسف في
عينه القمر ما هذه القعقة بالشنان و الوعوة باللسان إنك لجد عارف باستجابتنا لله و لرسوله و
خروجنا من أوطاننا و أولادنا و أحببتنا هجرة إلى الله و نصرة لدينه في زمان أنت منه في كن الصبا
و خدر الغرارة غافل تشبب و ترب لا تعي ما يشاد و يراد و لا تحصل ما يساق و يقاد سوى ما
أنت جار عليه من أخلاق الصبيان أمثالك و سجايا الفتيان أشكالك حتى بلغت إلى غايتك هذه
التي إليها أجريت و عندها حط رحلك غير مجهول القدر

و لا محدود الفضل و نحن في أثناء ذلك نعاني أحوالا تزيل الرواسي و نقاسي أهوالا تشيب
النواصي خائضين غمارها راكبين تيارها تتجرع صلبها و نشرح عياها و نحكم أساسها و نبرم
أمراسها و العيون تحدج بالحسد و الأنوف تعطس بالكبر و الصدور تستعر بالغیظ و الأعناق
تتطاول بالفخر و الأسنة تشحد بالمكر و الأرض تمید بالخوف لا ننتظر عند المساء صباحا و لا
عند الصباح مساء و لا ندفع في نحر أمر إلا بعد أن نحسو الموت دونه و لا نبليغ إلى شيء إلا بعد
تجرع العذاب قبله و لا نقوم منادا إلا بعد اليأس من الحياة عنده فأدين في كل ذلك رسول الله ص
بالأب و الأم و الخال و العم و المال و النشب و السبد و اللبد و الهلة و البلة بطيب أنفـس و قرة
أعين و ربح أعطان و ثبات عزائم و صحة عقول و طلاقة أوجه و ذلاقة ألسن هذا إلى خبيثات
أسرار و مكنونات أخبار كنت عنها غافلا و لو لا سنك لم تك عن شيء منها ناكلا كيف و
فؤادك مشهور و عودك معجوم و غيبك مخبور و الخير منك كثير فالآن قد بلغ الله بك و أرهص
الخير لك و جعل مرادك بين يديك فاسمع ما أقول لك و اقبل ما يعود قبوله عليك و دع التحبس
و التعبس

لمن لا يضلّع لك إذا خطا و لا يتزحّج عنك إذا عطا فالأمر غض و في النفوس مض و أنت أديم
هذه الأمة فلا تحلم لجاجا و سيفها العضب فلا تنب اعوجاجا و ماؤها العذب فلا تحل أجاجا و
الله لقد سألت رسول الله ص عن هذا لمن هو فقال هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه و لمن
يتضاءل له لا لمن يشمخ إليه و هو لمن يقال له هو لك لا لمن يقول هو لي. و لقد شاورني رسول
الله ص في الصهر فذكر فتيانا من قريش فقلت له أين أنت من علي فقال إني لأكره لفاطمة ميعه
شبابه و حدة سنه فقلت متى كنفته يدك و رعته عينك حفت بهما البركة و أسبغت عليهما
النعمة مع كلام كثير خطبت به رغبته فيك و ما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء و لا لوجاء و
لكني قلت ما قلت و أنا أرى مكان غيرك و أجد رائحة سواك و كنت لك إذ ذاك خيرا منك
الآن لي و لئن كان عرض بك رسول الله ص في هذا الأمر فقد كنى عن غيرك و إن قال فيك فما
سكت عن سواك و إن اختلج في نفسك شيء فهلّم فالحكم مرضي و الصواب مسموع و الحق
مطاع. و لقد نقل رسول الله ص إلى ما عند الله و هو عن هذه العصابة راض و عليها حذب يسره
ما سرها و يكيده ما كادها و يرضيه ما أرضاها و يسخطه

ما أسخطها أ لم تعلم أنه لم يدع أحدا من أصحابه و خلطائه و أقاربه و سجرائه إلا أبانه بفضيلة
و خصه بمزية و أفرده بحالة لو أصفقت الأمة عليه لأجلها لكان عنده إيالتها و كفالتها. أ تظن أنه
ع ترك الأمة سدى بددا عدا مباهل عباهل طلاحى مفتونة بالباطل ملوية عن الحق لا ذائد و لا
رائد و لا ضابط و لا خابط و لا رابط و لا سائي و لا واقى و لا حادي و لا هادي كلا و الله
ما اشتاق إلى ربه و لا سأل المصير إلى رضوانه إلا بعد أن أقام الصوى و أوضح الهدى و أمن
المهالك و حمى المطارح و المبارك و إلا بعد أن شدخ يافوخ الشرك بإذن الله و شرم وجه النفاق
لوجه الله و جدع أنف الفتنة في دين الله و تفل في عين الشيطان بعون الله و صدع بملء فيه و يده
بأمر الله. و بعد فهؤلاء المهاجرون و الأنصار عندك و معك في بقعة جامعة و دار واحدة إن
استقادوا لك و أشاروا بك فأنا واضع يدي في يدك و صائر إلى رأيهم فيك و إن تكن الأخرى
فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون و كن العون على مصالحهم و الفاتح لمغالقتهم و المرشد
لضالهم و الرادع لغاويهم فقد أمر الله بالتعاون على البر و أهاب إلى التناصر على الحق و دعنا
نقض هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل و نلقى الله بقلوب سليمة من الضغن.

و إنما الناس ثمامة فارفق بهم و احن عليهم و لن لهم و لا تسول لك نفسك فرقتهم و اختلاف
كلمتهم و اترك ناجم الشر حصيدا و طائر الحقد واقعا و باب الفتنة مغلقا لا قال و لا قيل و لا
لوم و لا تعنيف و لا عتاب و لا تثريب و الله على ما أقول وكيل و بما نحن عليه بصير. قال أبو
عبيدة فلما تهيأت للنهوض قال لي عمر كن على الباب هنيهة فلي معك ذرو من الكلام فوقفت
و ما أدري ما كان بعدي إلا أنه لحقني بوجه يندى تهللا و قال لي قل لعلي الرقاد محلمة و اللجاج
ملحمة و الهوى مقحمة و ما منا أحد إلا له مقام معلوم و حق مشاع أو مقسوم و بناء ظاهر أو
مكتوم و إن أكيس الكيسى من منح الشارد تألفا و قارب البعيد تلطفًا و وزن كل أمر بميزانه و لم
يجعل خبره كعيانه و لا قاس فتره بشبره دينا كان أو دنيا و ضلالا كان أو هدى و لا خير في علم
معتمل في جهل و لا في معرفة مشوبة بنكر:

و لسنا كجلدة رفغ البعير بين العجان و بين الذنب
و كل صال فبناره يصلى و كل سيل فىلى قراره يجرى و ما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه
الغاية لعي و حصر و لا كلامها اليوم لفرق أو حذر فقد جدع الله بمحمد ع أنف كل متكبر و
قصم به ظهر كل جبار و سل لسان كل كذوب فما ذا بعد الحق إلا الضلال. ما هذه الخنزوانة التي
في فراش رأسك و ما هذا الشجاء المعترض في مدارج أنفاسك و ما هذه الوحرة التي أكلت
شراسيفك و القذاة التي أعشت ناظرك و ما هذا الدحس

و الدس اللذان يدلان على ضيق الباع و خور الطباع و ما هذا الذي لبست بسببه جلد النمر و
اشتملت عليه بالشحناء و النكر لشد ما استسعت لها و سریت سرى ابن أنقذ إليها إن العوان
لا تعلم الخمرة ما أحوج الفرعاء إلى فالية و ما أفقر الصلعاء إلى حالية و لقد قبض رسول الله ص
و الأمر معبد مخيس ليس لأحد فيه ملمس لم يسير فيك قولاً و لم يستنزل لك قرآناً و لم يجزم في
شأنك حكماً لسنا في كسروية كسرى و لا قيصرية قيصر تأمل إخوان فارس و أبناء الأصفر قد
جعلهم الله جزراً لسيوفنا و دريئة لرماحنا و مرمى لطعاننا بل نحن في نور نبوة و ضياء رسالة و ثمة
حكمة و أثر رحمة و عنوان نعمة و ظل عصمة بين أمة مهدية بالحق و الصدق مأمونة على الرتق
و الفتق لها من الله تعالى قلب أبي و ساعد قوي و يد ناصرة و عين ناظرة. أ تظن ظناً أن أبا بكر
وثب على هذا الأمر مفتاتاً على الأمة خادعاً لها و متسلطاً عليها أ تراه امتلخ أحلامها و أزاع
أبصارها و حل عقودها و أحال عقولها و استل من صدورهم حميتها و انتكث رشاءها و انتضب
ماءها و أضلها عن هداها و ساقها إلى رداها و جعل نهارها ليلاً و وزعها كيلاً و يقظتها رقاداً و
صالحها فساداً إن كان هكذا إن سحره لمبين و إن كيده لمتين كلا و الله بأي خيل و رجل و بأي
سنان و نصل و بأي منة و قوة و بأي مال و عدة و بأي أيد و شدة و بأي عشيرة و أسرة و
بأي قدرة و مكنة و بأي تدرع و بسطة لقد أصبح بما وسمته منيع الرقبة رفيع العتبة لا و الله لكن
سلا عنها فوهت نحوه و تطامن لها فالتفت به و مال عنها فمالت إليه و اشمأز دوحها فاشتملت
عليه حبة حباه الله بها و غاية بلغه الله إليها و نعمة سربله جمالها و يد الله أوجب عليه شكرها و
أمة نظر الله به

لها و طالما حلقت فوقه في أيام النبي ص و هو لا يلتفت لفتها و لا يرتصد وقتها و الله أعلم بخلقها
و أرفأ بعباده يختار ما كان لهم الخيرة و إنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة و معدن
الرسالة و كهف الحكمة و لا يجحد حقك فيما آتاك ربك من العلم و منحك من الفقه في الدين
هذا إلى مزايا خصصت بها و فضائل اشتملت عليها و لكن لك من يراحمك بمنكب أضخم من
منكبك و قرى أمس من قرباك و سن أعلى من سنك و شية أروع من شيتك و سيادة معروفة
في الإسلام و الجاهلية و مواقف ليس لك فيها جمل و لا ناقة و لا تذكر فيها في مقدمة و لا
ساقة و لا تضرب فيها بذراع و لا إصبع و لا تعد منها بيازل و لا هبع. إن أبا بكر كان حبة قلب
رسول الله ص و علاقة همه و عيبة سره و مثنوى حزنه و راحة باله و مرمق طرفه شهرته مغنية عن
الدلالة عليه. و لعمري إنك لأقرب منه إلى رسول الله ص قرابة و لكنه أقرب منك قرية و القرابة
لحم و دم و القرية روح و نفس و هذا فرق يعرفه المؤمنون و لذلك صاروا إليه أجمعون. و مهما
شككت فلا تشك في أن يد الله مع الجماعة و رضوانه لأهل الطاعة فادخل فيما هو خير لك
اليوم و أنفع غدا و الفظ من فيك ما هو متعلق بلهاتك و انفث

سخيمة صدرك فإن يكن في الأمد طول و في الأجل فسحة فستأكله مريئاً أو غير مريء و
ستشربه هنيئاً أو غير هنيء حين لا راد لقولك إلا من كان آيساً منك و لا تابع لك إلا من كان
طامعاً فيك حين يمض إهابك و يفري أديمك و يزري على هديك هناك تقرع السن من ندم و
تشرب الماء ممزوجاً بدم حين تأسى على ما مضى من عمرك و انقضى و انقضى من دارج قومك
و تود أن لو سقيت بالكأس التي سقيتها غيرك و رددت إلى الحال التي كنت تكرهها في أمسك و
لله فينا و فيك أمر هو بالغه و عاقبة هو المرجو لسرائها و ضرائها و هو الولي الحميد الغفور
الودود. قال أبو عبيدة فمشيت إلى علي مثبطاً متباطئاً كأنما أخطو على أم رأسي فرقا من الفتنة و
إشفاقاً على الأمة و حذراً من الفرقة حتى وصلت إليه في خلاء فأبشنته بشي كله و برئت إليه منه و
دفعته له فلما سمعها و وعائها و سرت في أوصاله حماها قال حلت معلوطة و ولت مخروطة ثم
قال..:

إحدى لياليك فهيسي هيسي لا تنعمي الليلة بالتعريس
يا أبا عبيدة أ هذا كله في أنفاس القوم يستنبطونه و يضطغنون عليه فقلت لا جواب عندي إنما
جئتكم قاضياً حق الدين و راتقاً فتق الإسلام و ساداً ثلثة الأمة يعلم الله ذلك من جلجلان قلبي
و قرارة نفسي.

فقال ما كان قعودي في كسر هذا البيت قصدا لخلاف و لا إنكارا لمعروف و لا زراية على مسلم بل لما وقذني به رسول الله ص من فراقه و أودعني من الحزن لفقده فياني لم أشهد بعده مشهدا إلا جدد علي حزنا و ذكرني شجنا و إن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره و قد عكفت على عهد الله أنظر فيه و أجمع ما تفرق منه رجاء ثواب معد لمن أخلص لله عمله و سلم لعلمه و مشيئته أمره على أني أعلم أن التظاهر علي واقع و لي عن الحق الذي سيق إلي دافع و إذ قد أفعم الوادي لي و حشد النادي علي فلا مرحبا بما ساء أحدا من المسلمين و في النفس كلام لو لا سابق قول و سالف عهد لشفيت غيظي بخصري و بنصري و خضت لجنته بأخصي و مفرقي و لكني ملجم إلى أن ألقى الله تعالى عنده أحتسب ما نزل بي و أنا غاد إن شاء الله إلى جماعتكم و مبايع لصاحبكم و صابر على ما ساءني و سرکم ليقضي الله أمرا كان مفعولا و كان الله على كل شيء شهيدا. قال أبو عبيدة فعدت إلى أبي بكر و عمر فقصصت القول على غره و لم أترك شيئا من حلوه و مره ذكرت غدوة إلى المسجد فلما كان صباح يومئذ وافي علي فخرق الجماعة إلى أبي بكر و بايعه و قال خيرا و وصف جميلا و جلس زمينا و استأذن للقيام و نهض فتبعه عمر إكراما له و إجلالا لموضعه و استنباطا لما في نفسه و قام أبو بكر إليه فأخذ بيده و قال إن عصابة أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة و إن أمة أنت فيها لمرحومة و لقد أصبحت عزيزا علينا كريما لدينا نخاف الله إن سخطت و نرجوه إذا رضيت و لو لا أني شذهت لما أجبته إلى ما دعيت إليه و لكني خفت

الفرقة و استئثار الأنصار بالأمر على قريش و أعجلت عن حضورك و مشاورتك و لو كنت حاضرا لبايعتك و لم أعدل بك و لقد حط الله عن ظهرك ما أثقل كاهلي به و ما أسعد من ينظر الله إليه بالكفاية و إنا إليك محتاجون و بفضلك عالمون و إلى رأيك و هديك في جميع الأحوال راغبون و على حمايتك و حفيظتك معولون ثم انصرف و تركه مع عمر.

فالتفت علي إلى عمر فقال يا أبا حفص و الله ما قعدت عن صاحبك جزعا على ما صار إليه و لا أتيتته خائفا منه و لا أقول ما أقول بعله و إني لأعرف مسمى طرفي و مخطي قدمي و منزع قوسي و موقع سهمي و لكني تخلفت إعدارا إلى الله و إلى من يعلم الأمر الذي جعله لي رسول الله و أتيت فبايعت حفظا للدين و خوفا من انتشار أمر الله. فقال له عمر يا أبا الحسن كفكف من غريبك و نحنه من شرتك و دع العصا بلحائها و الدلو برشائها فإننا من خلفها و ورائها إن قدحنا أورينا و إن متحنا أروينا و إن قرحنا أدمينا و قد سمعت أمثالك التي ألغزت بها صادرة عن صدر دو و قلب جو زعمت أنك قعدت في كسر بيتك لما وقذك به فراق رسول الله أ فراق رسول الله ص وقذك وحدك و لم يقذ سواك إن مصابه لأعز و أعظم من ذاك و إن من حق مصابه ألا تصدع شمل الجماعة بكلمة لا عصام لها فإنك لترى الأعراب حول المدينة لو تداعت علينا في صبح يوم لم نلتق في ممساه و زعمت أن الشوق إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره فمن الشوق إليه نصره دينه و موازنة المسلمين عليه و معاونتهم فيه.

و زعمت أنك مكب على عهد الله تجمع ما تفرق منه فمن العكوف على عهده النصيحة لعباده
و الرأفة على خلقه و أن تبذل من نفسك ما يصلحون به و يجتمعون عليه و زعمت أن التظاهر
عليك واقع أي تظاهر وقع عليك و أي حق استؤثر به دونك لقد علمت ما قالت الأنصار أمس
سرا و جهرا و ما تقلبت عليه ظهرا و بطنا فهل ذكرتك أو أشارت بك أو طلبت رضاها من
عندك و هؤلاء المهاجرون من الذي قال منهم إنك صاحب هذا الأمر أو أوما إليك أو همهم بك
في نفسه أ تظن أن الناس ضنوا من أجلك أو عادوا كفارا زهدا فيك أو باعوا الله تعالى بمواهم
بغضا لك و لقد جاءني قوم من الأنصار فقالوا إن عليا ينتظر الإمامة و يزعم أنه أولى بها من أبي
بكر فأنكرت عليهم و رددت القول في نخورهم حتى قالوا إنه ينتظر الوحي و يتوكف مناجاة الملك
فقلت ذاك أمر طواه الله بعد محمد ع. و من أعجب شأنك قولك لو لا سابق قول لشفيت غيظي
بخنصري و بنصري و هل ترك الدين لأحد أن يشفي غيظه بيده أو لسانه تلك جاهلية استأصل
الله شأفتها و اقتلع جرثومتها و نور ليلها و غور سيلها و أبدل منها الروح و الريحان و الهدى و
البرهان. و زعمت أنك ملجم فلعمري إن من اتقى الله و آثر رضاه و طلب ما عنده أمسك لسانه
و أطبق فاه و غلب عقله و دينه على هواه. و أما قولك إني لأعرف منزع قوسي فإذا عرفت منزع
قوسك عرفك غيرك مضرب سيفه و مطعن رمحه و أما ما تزعمه من الأمر الذي جعله رسول الله
ص لك فتخلفت إعدارا إلى الله و إلى العارفة به من المسلمين فلو عرفه المسلمون

لجنحوا إليه و أصفقوا عليه و ما كان الله ليجمعهم على العمى و لا ليضربهم بالصبا بعد الهدى و لو كان لرسول الله ص فيك رأي و عليك عزم ثم بعثه الله فرأى اجتماع أمته على أبي بكر لما سفه آراءهم و لا ضلل أحلامهم و لا أثرك عليهم و لا أرضاك بسخطهم و لأمرك باتباعهم و الدخول معهم فيما ارتضوه لدينهم.

فقال علي مهلا أبا حفص أرشدك الله خفض عليك ما بذلت ما بذلت و أنا أريد عنه حولا و إن أخسر الناس صفقة عند الله من استبطن النفاق و احتضن الشقاق و في الله خلف عن كل فائت و عوض من كل ذاهب و سلوة عن كل حادث و عليه التوكل في جميع الحوادث ارجع أبا حفص إلى مجلسك نافع القلب مبرود الغليل فصيح اللسان رحب الصدر متهلل الوجه فليس وراء ما سمعته مني إلا ما يشد الأزر و يحبط الوزر و يضع الإصر و يجمع الألفة و يرفع الكلفة إن شاء الله فانصرف عمر إلى مجلسه. قال أبو عبيدة فلم أسمع و لم أر كلاما و لا مجلسا كان أصعب من ذلك الكلام و المجلس. قلت الذي يغلب على ظني أن هذه المراسلات و المحاورات و الكلام كله مصنوع موضوع و أنه من كلام أبي حيان التوحيدي لأنه بكلامه و مذهبه في الخطابة و البلاغة أشبه و قد حفظنا كلام عمر و رسائله و كلام أبي بكر و خطبه فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب و لا يسلكان هذا السبيل في كلامهما و هذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى و أين أبو بكر و عمر من البديع و صناعة المحدثين و من تأمل كلام أبي حيان عرف أن

هذا الكلام من ذلك المعدن خرج و يدل عليه أنه أسنده إلى القاضي أبي حامد المرورودي و هذه عاداته في كتاب البصائر يسند إلى القاضي أبي حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه إذا كان كارها لأن ينسب إليه و إنما ذكرناه نحن في هذا الكتاب لأنه و إن كان عندنا موضوعا منحولا فإنه صورة ما جرت عليه حال القوم فهم و إن لم ينطقوا به بلسان المقال فقد نطقوا به بلسان الحال. و مما يوضح لك أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة و الشيعة و الأشعرية و أصحاب الحديث و كل من صنف في علم الكلام و الإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية و لقد كان المرتضى عليه السلام يلتقط من كلام أمير المؤمنين ع اللفظة الشاذة و الكلمة المفردة الصادرة عنه ع في معرض التألم و التظلم فيحتج بها و يعتمد عليها نحو قوله ما زلت مظلوما مذ قبض رسول الله حتى يوم الناس هذا و قوله لقد ظلمت عدد الحجر و المدر و قوله إن لنا حقا إن نعطه نأخذه و إن نمنعه نركب أعجاز الإبل و إن طال السرى و قوله فصبرت و في الحلق شجا و في العين قذى و قوله اللهم إني أستعديك على قريش فإنهم ظلموني حقي و غصبوني إرثي. و كان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه فكأنما ظفر بملك الدنيا و يودعها كتبه و تصانيفه فأين كان المرتضى عن هذا الحديث و هلا ذكر في كتاب الشافي في الإمامة

كلام أمير المؤمنين ع هذا وكذلك من قبله من الإمامية كابن النعمان و بني نوبخت و بني بابويه و غيرهم و كذلك من جاء بعده من متأخري متكلمي الشيعة و أصحاب الأخبار و الحديث منهم إلى وقتنا هذا و أين كان أصحابنا عن كلام أبي بكر و عمر له ع و هلا ذكره قاضي القضاة في المغني مع احتوائه على كل ما جرى بينهم حتى أنه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد في أخبار السقيفة و هلا ذكره من كان قبل قاضي القضاة من مشايخنا و أصحابنا و من جاء بعده من متكلميها و رجالنا و كذلك القول في متكلمي الأشعرية و أصحاب الحديث كابن الباقلاني و غيره و كان ابن الباقلاني شديدا على الشيعة عظيم العصبية على أمير المؤمنين ع فلو ظفر بكلمة من كلام أبي بكر و عمر في هذا الحديث لمأ الكتب و التصانيف بها و جعلها هجيرا و دأبه. و الأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان و معرفة كلام الرجال و لمن عنده أدنى معرفة بعلم السير و أقل أنس بالتواريخ. قوله ع مودع لا قال و لا مبعوض و لا سئم أي لا ملول سئمت من الشيء أسأم سأمًا و سآما و سامة سئمته إذا مللته و رجل سئوم. ثم أكد ع هذا المعنى فقال إن انصرفت فلا عن ملالة و إن أقمت فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين أي ليست إقامتي على قبرك و جزعي عليك إنكارا مني لفضيلة الصبر و التجلد و التعزي و التأسى و ما وعد الله به الصابرين من الثواب بل أنا عالم بذلك و لكن يغلبني بالطبع البشري. و روي أن فاطمة بنت الحسين ع ضربت فسطاطا على قبر بعلمها الحسن

بن الحسن ع سنة فلما انقضت السنة قوضت الفسطاط راجعة إلى بيتها فسمعت هاتفا يقول
هل بلغوا ما طلبوا فأجابه هاتف آخر بل يئسوا فانصرفوا. و ذكر أبو العباس مُجَدُّ بن يزيد الميرد في
كتابه الكامل أنه ع تمثل عند قبر فاطمة:

ذكرت أبا أروى فبت كَأني برد الهموم الماضيات وكيـل
لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل
و إن افتقادي واحدا بعد واحد دليل على ألا يدوم خليل
و الناس يرونه
و إن افتقادي فاطما بعد أحمد

الفهرس

كتاب شرح نهج البلاغة الجزء العاشر ابن ابي الحديد	١
ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان	٥
فصل في ذكر بعض أقوال الغلاة في علي	١٢
جملة من إخبار علي بالأمور الغيبية	١٣
فصل في القرآن و ذكر الآثار التي وردت بفضله	٢٠
فصل في الآثار الواردة في شديد عذاب جهنم	٣٥
فصل في العزلة و الاجتماع و ما قيل فيهما	٣٧
ذكر فوائد العزلة	٤٢
كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص و هو على مصر	٥٦
نوف البكالي	٧٦
نسب جعدة بن هبيرة	٧٧
نسب العمالقة	٩٣
نسب عاد و ثمود	٩٤
نسب الفراعنة	٩٤
نسب أصحاب الرس	٩٤
عمار بن ياسر و نسبه و نبذ من أخباره	١٠٢
ذكر أبي الهيثم بن التيهان و طرف من أخباره	١٠٧
ذكر ذي الشهادتين خزيمه بن ثابت و طرف من أخباره	١٠٨
ذكر سعد بن عباد و نسبه	١١١
ذكر أبي أيوب الأنصاري و نسبه	١١٢
نبذ و أقاويل في التقوى	١٢١
طرف و أخبار	١٢٥

١٢٨	رأي للمؤلف في كتاب نهج البلاغة.....
١٣٦	فصل في فضل الصمت و الاقتصاد في المنطق.....
١٣٨	ذكر الآثار الواردة في آفات اللسان
١٤٦	ذكر الخوف و ما ورد فيه من الآثار.....
١٦١	ذكر بعض أحوال العارفين
١٨٣	ذكر خبر موت الرسول ع
١٩٥	اختلاف الأقوال في عمر الدنيا.....
٢٠٥	فصل في ذكر الآثار الواردة في الصلاة و فضلها
٢٠٨	ذكر الآثار الواردة في فضل الزكاة و التصديق
٢١٢	سياسة علي و جريها على سياسة الرسول ع
٢٢٣	كلام أبي جعفر الحسني في الأسباب التي أوجبت محبة الناس لعلي.....
٢٢٧	سياسة علي و معاوية و إيراد كلام للجاحظ في ذلك
٢٣٢	ذكر أقوال من طعن في سياسة علي و الرد عليها
٢٦٢	قصة صالح و ثمود
٢٧١	ما رواه أبو حيان في حديث السقيفة.....
٢٨٩	الفهرس.....